ضياء الضياء

تأليف الشيخ الفقيه العلامة
سلمة بن مسلم العوتبي الصحاري
(رحمه الله تعالى)

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م

ضياء الضياء

تأليف الشيخ الفقيه العلامة
سلمة بن مسلم العوتبي الصحاري
(رحمه الله تعالى)

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م

الناشر

مكتب المستشار الخاص لجلالة السلطان
للشؤون الدينية والتاريخية

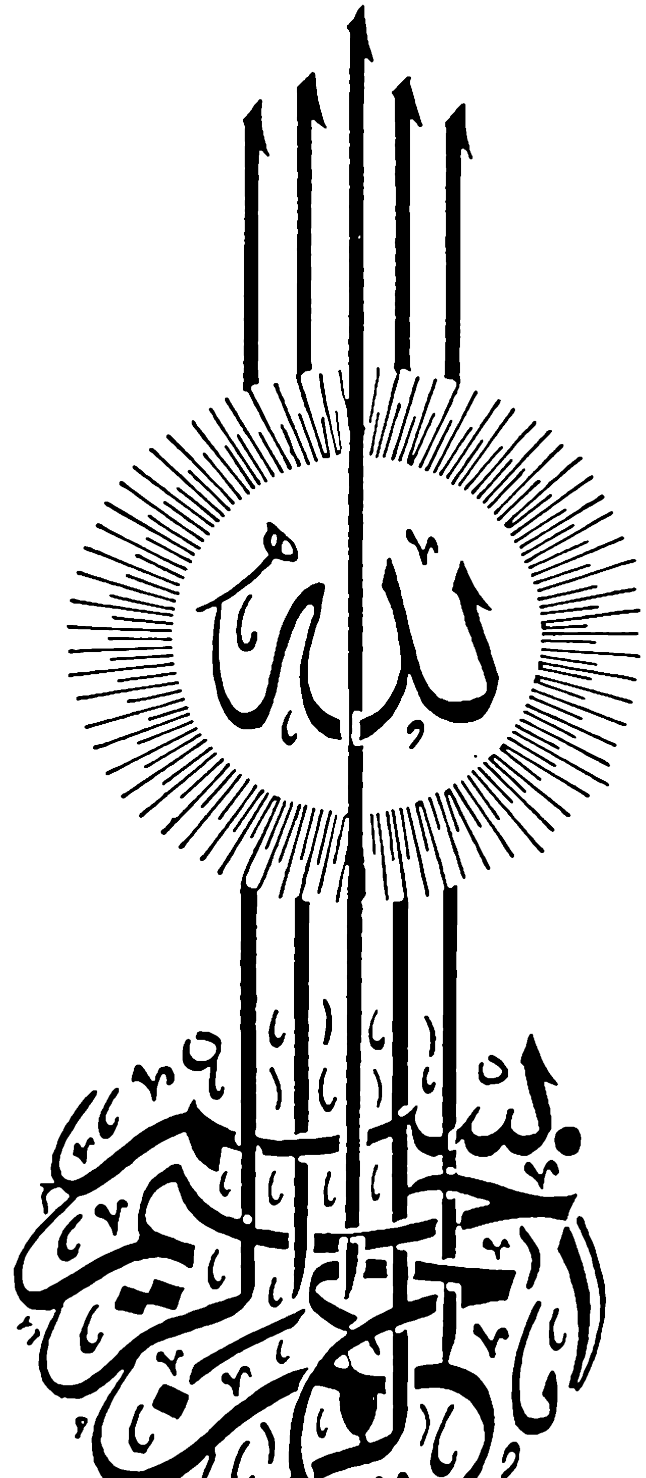
الله
بسم الله الرحمن الرحيم

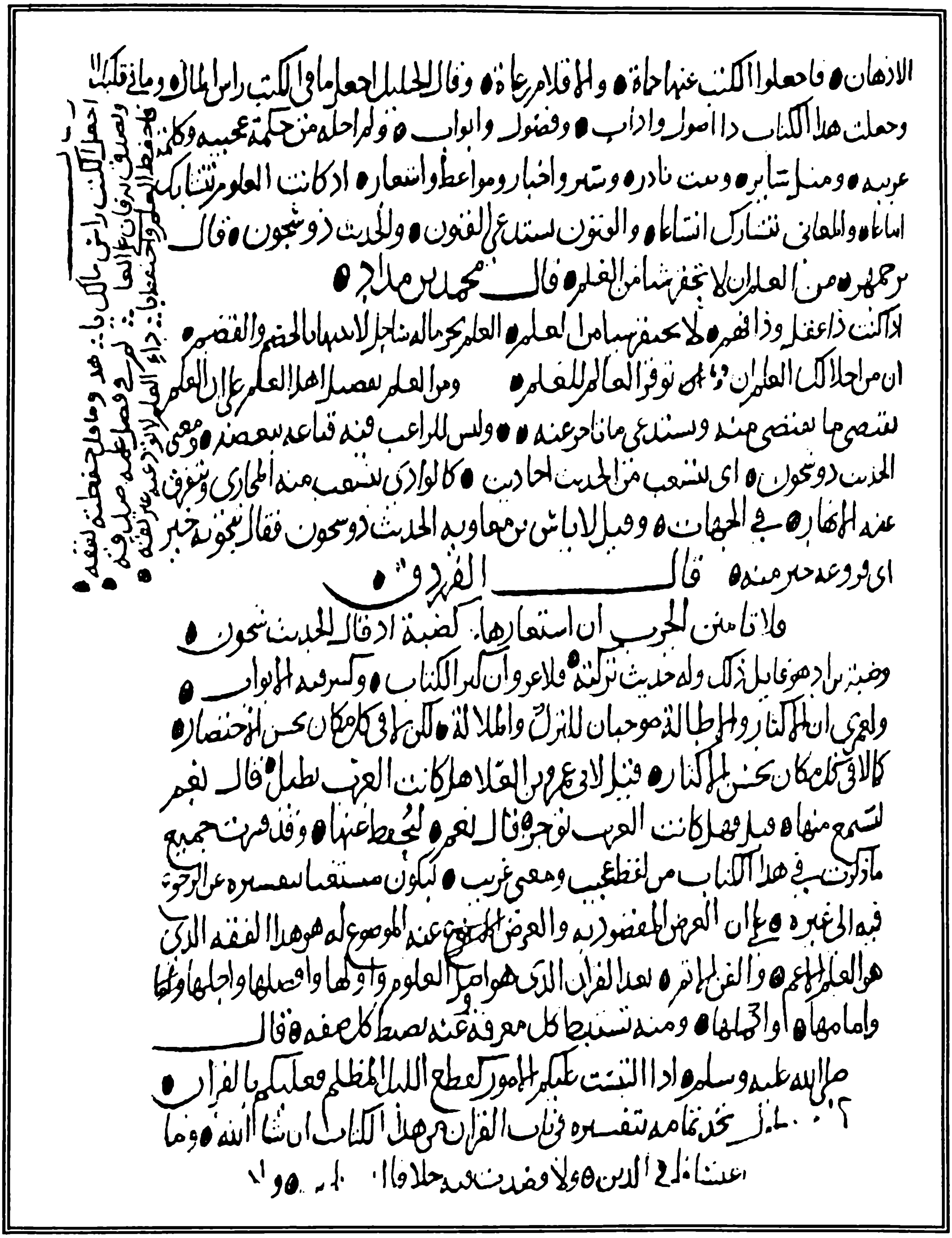
الاذهان • فاجعلوا الكتب عنها حماة • والاقلام رعاة • وقال الخليل اجعل ما في الكتب رأس المال وما في قلبك النفقة
وجعلت هذا الكتاب ذا أصول وآداب • وفصول وأبواب • ولم أخله من حكمة عجيبة وكلمة
غريبة • ومثل سائر • وبيت نادر • وشعر وأخبار ومواعظ وأشعار • إذ كانت العلوم تتشابك
أسبابها • والمعاني تتشارك أنسابها • والفنون تستدعي الفنون • والحديث ذو شجون • قال
بزرجمهر • من العلم أن لا تحقر شيئاً من العلم • قال محمد بن مناذر •
إذا كنت ذا عقل وذا فهم • لا تحقرن شيئاً من العلم • العلم بحر ما له ساحل لا بدّ بها بالحشو والقصر
إن من أجل كل العلم أن • لا يحقر العالم للعلم • ومن العلم يتصل أهل العلم على أن العلم
يتقصى ما يقتضي منه ويستدعي ما تأخر عنه • وليس للراغب فيه قناعة ببعضه • ومعنى
الحديث ذو شجون • أي يتشعب من الحديث أحاديث • كالوادي يتشعب منه المجاري وتتفرق
عنه الأنهار • في الجهات • وقيل لإياس بن معاوية الحديث ذو شجون فقال يجوز به خبر
أي فرع عنه خبر منه • قال الفرزدق •
فلا تأمنن الحرب أن استعارها • كضبة إذ قال الحديث شجون •
وضبة بن أدّ هو قائل ذلك وله حديث تركته • فلا عذر وإن كبر الكتاب • وكثرت فيه الأبواب •
ولعمري إن الإكثار والإطالة موجبان للإبرام والملالة • لكن لا في كل مكان يحسن الاختصار •
كما لا في كل مكان يحسن الإكثار • قيل لأبي عمرو بن العلاء هل كانت العرب تطيل قال نعم
لتسمع منها • قيل فهل كانت العرب توجز قال نعم ليحفظ عنها • وقد فسرت جميع
ما ذكرت في هذا الكتاب من لفظ عجيب ومعنى غريب • ليكون مستغنياً بتفسيره عن الرجوع
فيه إلى غيره • على أن الغرض المقصود به والغرض المنتهى عنه الموضوع له هو هذا الفقه الذي
هو العلم الأعم • والفن الأتم • بعد القرآن الذي هو أمير العلوم وأولها وأفضلها وأجلها وأولها
وإمامها وأكملها • ومنه تستنبط كل معرفة وعنه تضبط كل صفة • قال
صلى الله عليه وسلم إذا التبست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن •
[illegible] تجد تمامه بتفسير غريب القرآن من هذا الكتاب إن شاء الله • وما
أعيننا في الدين • ولا [illegible]

صورة الصفحة الأولى من المخطوط

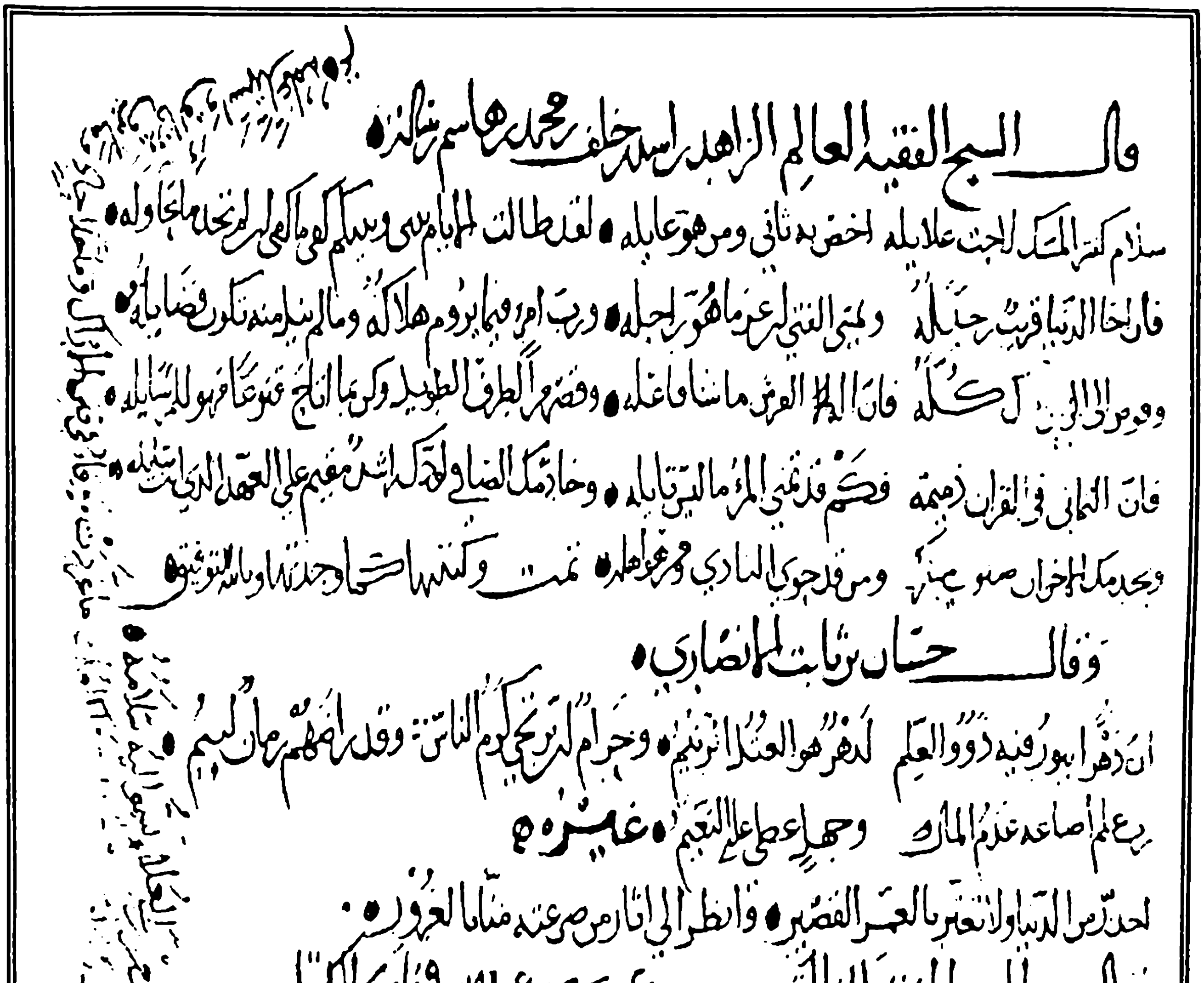

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

كِتاب : " ضياء الضياء " ، قال ناسخه : أن مُؤلّفهُ / سلمه القثمي ، كما جاء في آخر الكِتاب ، قوله :

وهو الضياءُ من الضياءِ لقلب كل مُهذبٍ
طبٍ ربيطٍ لا تطيش لذي الحلوم سهامه
تأليف قدوتنا الفتى القثمي سلمه ذي الندى
فاق الورى أصلاً وفرعاً نثره ونظامه

فبحثنا بحثاً ـ حسب الطاقة والإمكان ـ عن فتى إسمه / سلمه القثمي ، فلم نجد غير سلمه العُوتبي ، مُؤلّف كِتاب : " الضياء " .

وتبين لنا ، بيان لا شك فيه ، أن كِتاب : " ضياء الضياء " ، إختصار ، إختصره مُؤلّف كِتاب : " الضياء " ، من الجُزء الأول من : " الضياء " ، كما دلت عليه الدلالات الصريحة .

لكن وقعنا في مُشكلة الإستشهاد بشعر محمد بن مداد بن محمد بن مداد ؛ مع أن سلمه العُوتبي من عُلماء القرن الخامس

الهجري ؛ أما الشيخ محمد بن مداد بن محمد بن مداد ، من عُلماء النصف الثاني من القرن التاسع الهجري ؛ مع أن كِتاب : " الضياء " نفسه ، وهو أربعة وعشرون جُزءاً ، لا يُوجد فيه بيت واحد من شِعر محمد بن مداد .

ومن البديهي ، أن الإستشهاد بشِعر محمد بن مداد ، وُضِعَ أخيراً ، ولكنا لم نستطع معرفة من هو الواضع .

ويتبين أن العلاَّمة سلمه العُوتبي ، كان ينوي إختصار كِتابه : " الضياء " كُله ، فبدأ بالجُزء الأول ، فتوقف لسبب من الأسباب ، ولعله توفي (رحمه الله) .

ووجدنا كِتاب : " ضياء الضياء " ، ثمانية عشر باباً ، ولم يُكمل ؛ هذا المخطوط الذي عندنا ، ولم نتمكن من العثور على نُسخة أخرى ؛ أما الجُزء الأول من : " الضياء " ، فهو عشرون باباً .

وقد جاء في كِتاب : " ضياء الضياء " ، الدليل الواضح بأن العلاَّمة سلمه العُوتبي ، هو الذي إختصر كِتابه : " الضياء " ، وقد جاء كثيراً ، كقوله : [وقد ذكرت هذا في كِتاب : " الإبانة "] ؛ كذلك قوله : [والبلية قد ذكرتها في كِتاب :

" الإبانة "] ؛ [وقد ذكرته بتفسيره في كِتـاب : " الإبانـة "] ؛ [في الإعراب ، قد ذكرته في باب التوحيد] ؛ [وقد ذكرتـه فـي بـاب المواريـث] ؛ [وقـد ذكـرت منــه صـدراً فـي بـاب الأدب ، واختصرتــه هنـا] ؛ [وقـد ذكـرت علـل (هــل) فــي كِتــاب : " الإبانــة "] ؛ [وقــد ذكــرت علـــل (كيــف) فــي كِتـــاب : " الإبانـة "] ؛ [وقد ذكـرت هــذا الخـبر بجُملتــه فـي كِتـاب : " الإبانـة " ، واختصرتـه هـا هنـا] ؛ [والتـامور : الـدم ، ولــها تفسير آخر ، وقـد ذكرتـه فـي كِتـاب : " الإبانـة "] ؛ [وقـد مَـرَّ تفسيره في كِتاب : " الإبانة "] .

أمـا قـول الناسـخ : { تـأليف قدوتنـا الفتـى القثمـي سـلمه ذي الندى } ؛ فكلمة : القثمي ، مدح لسلمه ؛ قال محمد بن مداد ، في عكس السُؤال :

إن عكس السُؤال لم يستطعه	غير من كان عَالِماً ربّيـا
يحسن الـرد ثـم يعكس أولاه	لأخـراه مـاهـراً قـثـمـيـا

وفسره في نفس المخطوط : القثمي : الجامع للأمور .

وبعـد أن راجعنـا المراجـع اللغويـة ، تبيـن أن كلمـة : القثمـي وتصريفـها ، تـأت إلـى معـان عديـدة ؛ جـاء منـها فـي : " مُعجـم

أسماء العرب " ، القثمي : نسبة إلى القثم ، وهو المعطاء ، والمُجتمع الخلق ، والجمُوع للخير ، والذكر من الضباع .

وفي : " شمس العُلوم " ، القثم : رجل قثم ، أي : معطاء كثير العطا ؛ وقثم من أسماء الرجال ، قثم يُقال له : قثماً ، أي : أعطى عطاءً كثيراً ، ومنه إشتق : قثم ؛ والقثم : الجمع ؛ والقثوم : الرجل الجموع للخير .

وجاء في موسُوعة : " قبائل العرب " ، القثمة : فخذ من عيال منصور بن برقا ، من قبيلة عُتيبه الحجازية ، من العرب العدنانية .

وقد جاء في مادة : (قثم) ، وما تصرف منها الشيء الكثير ، ومن أراد الإستقصاء ، فليرجع إلى كُتب اللغة .

أيضاح :

إن النُسخة من كِتاب : " ضياء الضياء " ، الموجُودة بمكتبتنا ، نُسخت في عَام ٩٧٦هـ ، وقد ذهب شيء من أولها ، وشيء من آخرها .

وبعد البحث مُدة طويلة ، لم نُوفق عَلى نُسخة غيرها ؛ ولما

طالت مُدة البحث ، رأينا نشرها ، لكونها تحتوي على كثير من شِعر الشيخ العلاَّمة محمد بن مداد بن محمد بن مداد ؛ ونحن نجمع أشعاره ، ونسأل الله التوفيق .

ولكون خُطبة كِتاب : " ضياء الضياء " ، ذاهبة من أوله ، أخذناها من الجُزء الأول من كِتاب : " الضياء " ؛ أمَّا ما ذهب من آخر كِتاب : " ضياء الضياء " ، لم نستطع أن نأخذه من كِتاب : " الضياء " .

قال الناسخ ، سعيد بن عُمر ، في أبياته آخر كِتاب : " ضياء الضياء " :

ويليه ديوان الهُمام محمد نجل الندى مداد قد جمع الغريب من اللغات نظامه

والذي سماه ديوان ، ما هو إلاَّ بضع قصائد من شعر الشيخ محمد بن مداد ، وقد أكلت الرِّمة الكثير من قرطاسه ، ونحن الآن نُعالجه ، فعسى أن يُوفقنا الله لإبرازه ديواناً مُتكاملاً .

والله ولي التوفيق ،،،

محمد بن أحمد بن سعود آلبوسعيدي

حرر في : ٢/رمضان/١٤٢٤هـ .

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا تدركه الأعين موجُوداً ، ولا تصفه الألسُن محدُوداً ، ولا يكفيه الفكر معدُوداً ، ولا تعرفه الخليقة والداً ولا مولوداً ، أحمده على نعمه وآلائه ، وأشكره على حُسن قسمه وبلائه ، وأعوذ به من نقمه وابتلائه ، حمد إثر حمد ، وعوداً بعد بدأ ، وأوحده خالقاً ، وأمجده صادقاً ، وأعبده رازقاً ، وأتوكل عليه واثقاً ، وأستعين به مُحقاً .

وأشهد أن لا إله إلاَّ هُو الله ، الأول بلا غاية ، والآخر بلا نهاية ، الذي قدر فأحسن التقدير ، ودبر فأحكم التدبير ، وملك الأشياء فهو عليها قدير ، وعلمها جُملة فهو بها خبير ، الذي : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ (١) .

وأشهد أن محمداً عبده النبي ، ورسوله الأمي ، وحبيبه الصفي ، أرسله بالقرآن العربي ، والبيان الجلي ، والبُرهان النبوي ، فأوضح به المحجة ، وأقام به الحجة على من بلغته دعوته ، أو وصلته رسالته ، وهدى به من الضلالة ، وبصر به

(١) سورة الشورى : ١١ .

من الجهالة ، فلم يزل لله طائعاً ، ولأمره صادعاً ، وإليه داعياً ، ولأمته هادياً ، وعن المعاصي ناهياً ، وبما أمر به مُبصراً ، وبالجنة مُبشراً ، ومن النار مُحذراً ، حتى قبضه الله إليه (ﷺ) ، وأمره قد ظهر ، ونور الدين قد بهر ، وعز الإسلام قد قهر ، والشرك مُنقمع ، والشك مُنقذع ، والحق مُتبع ، والقول مُستمع ، (ﷺ) وعلى آله الأتقياء ، وسلم تسليماً .

أما بعد :

فهذا كِتاب ، دعاني إلى تأليفه ، وحداني إلى تصنيفه ، ما وجدت من دروس آثار المُسلمين ، وطموس آثار الدين ، وذهاب العِلم ومتحمليه ، وقلة طالبيه ومنتحليه ، فرأيت الإمساك عن إحيائه ، مع القدرة عليه ، ووجود السبيل إليه ، ذنباً وشؤماً وذماً ولؤماً ، فألفته على ضعف معرفتي ، ونقص بصيرتي ، وكلة لساني ، وقلة بياني ، طالباً للأجر لا للفخر ، وللتعليم لا للتقدم ، وللدراسة لا للرئاسة ، غير مُدع للعُلوم تصنيفاً ، ولا مُبتدع للفنون تأليفاً ، لكن لأحي به نفساً ، وأفزع إليه أنساً ، وأرجع إليه فيما أنسى ، ولأستصبح بضيائه مُهتدياً ، وأصبح بما فيه مُقتدياً ، إذا لتشكك مُعترض ، والنسيان ذو عفون ، والحفظ خؤون ، ولكل شيء آفة ، وآفة الحفظ النسيان .

قال ابن عباس : إنما سُمّيَ الإنسان إنساناً لأنه ينسى ؛ وقال : وسُمّيَ آدم إنساناً ، لأنه عهد إليه فنسى ؛ وقال الشاعر :

وما سُمّيَ الإنسان إلاّ لنسيه ولا القلب إلاّ أنه يتقلب

وقال الطائي :

ولا تنسين تلك العهود فإنما سميت إنساناً لأنك ناسي

وقال اللغويون : إنما سمي القلب قلباً : لتقلبه وكثرة تغيره ، وأصله من قلبت الشيء أقلبه ؛ وقد ذكرت هذا في كِتاب : " الإبانة " .

وقد روي عن النبي (ﷺ) ، من طريق أنس بن مالك (رضي الله عنه) ، أنه قال : " قيدو العِلم بالكِتاب " .

وروي أن رجلاً شكا إلى النبي (ﷺ) النسيان ، فقال (ﷺ) : " إستعمل يدك " ، يعني : أكتب حتى ترجع إذا نسيت إلى ما كتبت .

وقال بعض : ما كتب قرَّ ، وما حفظ فرَّ .

وقال مالك بن شيبان : من شأن ابن آدم أن لا يعلم كل شيء ، ومن شأنه أن يعلم كل شيء ثم ينسى ؛ اللهم إني أشكر إليه ما

فقدت من عقلي .

ويُقال : القلب نور ، والغم ظلمة .

وقال ابن عباس (رضي الله عنهما) : ما إجتمع عِلم وشغل في قلب قط .

وقال بعض البُلغاء : إن هذه الأذهان والآداب نوافر ، تند عن عقل الأذهان ، فاجعلوا الكُتب عنها حماة ، والأقلام عنها رعاة .

وقال الخليل : اجعل ما في الكُتب رأس المال ، وما في قلبك للنفقة ؛ وقال الشيخ محمد بن مداد :

اجعل الكتب رأس مالك يا هذا   وما قد حفظته نفقة
وتصدق به فإن على العَالِم   في فضل عِلمه صدقة
فاحفظ العِلم واحتفظ بأداء   العِلم لا تودعنه غير ثقة

وقد جعلت هذا الكتاب ذا أصول وآداب ، وفصول وأبواب ، ولم أخله من حكمة عجيبة ، وكلمة غريبة ، ومثل سائر ، وبيت نادر ، وسنن وأخبار ، ومواعظ وأشعار ، إذ كانت العُلوم تتشابك إتباعاً ، والمعاني تتشارك إتساعاً ، والفنون تستدعي الفنون ، والحديث ذو شجون .

وقال بزرجمهر : من العِلم أن لا تحقر شيئاً من العِلم ؛ وقال الشيخ محمد بن مداد :

إذا كنت ذا عقل وذا فهم لا تحتقر شيئاً من العِلم
العِلم بحر ما له ساحل لا ينتها بالخضم والقضم
وأن من إجلالك العِلم أن توقر العَالِم للعِلم

ومن العِلم تفضيل أهل العِلم ، على أن العِلم يقتضي ما يقتضي منه ، ويستدعي ما تأخر عنه ، وليس للراغب فيه قناعة ببعضه ، ومعنى : الحديث ذو شجون ، أي : يتشعب من الحديث أحاديث ، كالوادي يتشعب منه المجاري ، ويتفرق منه الأنهار في الجهات ، وقيل لإياس بن معاوية : الحديث ذو شجون ، فقال : شجونه خير ، أي : فروعه خير منه ؛ وقال الفرزدق :

فلا تأمنن الحرب إن إستعارها كضبة إذ قال الحديث شجون

وضبة بن أدهر : هو قائل ذلك ، وله حديث تركته ، فلا غرو إن كبر الكِتاب ، وكثرت فيه الأبواب ؛ ولعمري إن الإكثار والإطالة مُوجبان للترك والملالة ، لكن لا في كل مكان يحسن الإختصار ، كما لا في كل مكان يحسن الإكثار .

وقيل لأبي عمرو بن العلاء : هل كانت العرب تطيل ؟ قال :

نعم ، ليسمع منها ؛ قيل : فهل كانت العرب توجز ؟ قال : نعم ، ليحفظ عنها .

وقد فسرت جميع ما ذكرت في هذا الكِتاب ، من لفظ غريب ، ومعنى عجيب ، ليكون مُستغنياً بتفسيره عن الرجوع فيه إلى غيره ، على أن الغرض المقصود به ، والغرض الموضوع له ، هو هذا الفقه ، الذي هو العِلم الأعم ، والفن الأتم ، بعد القرآن ، الذي هو أصل العُلوم ، وأولها ، وأفضلها ، وأجلها ، وإمامها ، وأكملها ، ومنه تستنبط كل معرفة ، وعنه تضبط كل صفة .

قال (ﷺ) : " إذا إلتبست عليكم الأمور كقطع الليل المُظلم فعليكم بالقرآن " ، في خبر فيه طول ، تجد تمامه بتفسيره في باب القرآن من هذا الكتاب - إن شاء الله - .

وما أردت بتأليفه إعتسافاً في الدِّين ، ولا قصدت فيه خلافاً للمُسلمين ، ولا بدلت مقالاتهم مائناً ، ولا عدلت عن تأويلاتهم مبايناً ، بل قفوت آثارهم واطئاً ، ونحوت أخبارهم مُواظباً ، وقلت ما ذكروه إخباراً ، ونقلت ما سطروه إختصاراً ، وقبلت ما أثروه إختياراً ، فإنا وإن إختلف مني الكلام لهم ولأقاويلهم على الوئام ، وبالله أعوذ عن مُفارقة مذاهبهم ، ومُجانبة الإقتداء بهم ، فهُم العُلماء المُؤمنون ، والفقهاء المُؤتمنون ، والأوائل المُتقدمون ،

والأفاضل المُقدمون ، والأخيار المُتبعون ، والأبرار الورعُون ، والأتقياء الصادقون ، والأولياء المُوافقون ، والأجلاء ديانة ، والأخلاء أمانة ، لم يركنوا إلى الدُّنيا طلباً ، ولم يغفلوا عن الآخرة لعباً ، ولم يعرفوا بجهل مضل ، ولم يفرقوا بعقل مزل ، ولا تورطوا إلى الأهواء هالكين ، ولا تخبطوا العشواء سالكين ، هيهات هيهات ، بل جدوا للآخرة مُشمرين ، واجتهدوا عليها غير مُقصرين ، ودعوا إلى الحق مُبصرين ، وقاتلوا في سبيل الله صابرين ، فنحن بهم مُهتدون ، وبهُداهُم مُقتدون ، ولأمرهم طائعون ، ولقولهم مُستمعون ، ولفعلهم تابعون ، جزاهم الله بما علمُونا جنة وسلاماً ، وبما حملونا رحمة وإكراماً ، وإياه تعالى أستغفر من الجهل عاملاً ، ومن الإفك قائلاً ، وما التوفيق إلاّ من عند الله ، به وعليه توكلت ، وإليه أنيب .

وقد ذكرت شيئاً مما قاله غيرنا من فرق المُسلمين وغيرهم ، إذ العِلم بذلك خير من الجهل به ، فإن الكِتاب كلما كبر حجمه ، كثرت فوائده وعِلمه .

حكى الجاحظ : أن القتبي ذكر يوماً كِتاباً لأحد القدماء ، فقال : لولا طوله وكثرة ورقه لنسخته ؛ فقال ابن الجهم : ولكنني ما رغبني فيه إلاّ الذي زهدك فيه ، وما قرأت كِتاباً قط كبيراً ، فأخلاني من فائدة ، وما أحصي كم قرأت من صغار الكُتب ،

فخرجت منها كما دخلت .

وحكي عن بعض أهل العِلم : أنه كان يعظم الكِتاب لكبره ، ويزري عليه لصغره ، في حال نظره إليه ، قبل وقوفه عليه .

وقيل : أن كِتاب المجوس الذي ألفوه مُستعجماً ، لما فسروه بالعربية ، كان قرابة إثني عشر جملاً ، من كبره وكثرته ، وكله باطل مضيوع ، وضلال غير مسموع ؛ وقيل : إن إسمه : " بستاً " .

وقيل : أنه كُتب في عشرين ألف جلد من جلود الإبل ، نقلاً بالحديد لا بالمداد ، والله أعلم .

وقيل : أن الكِتاب الذي ألفه أبُقراط ، سمي : " أفورسمو " ، أي : كِتاب " الفصول " .

وحكي عن بعضهم : أنه ألف في التوحيد فقط كِتاباً ، كان عدد أجزانه مائة وأربعين جُزءاً .

وذكر محمد بن إسحاق : أنه ألف كِتاباً في الشروط ، يزيد على أربعة آلاف ورقة ، وهو فن واحد ، وكم مثل هذا ، أو أكثر ، أو أقل ، وأكثر من العُلوم المصنفة ، والكُتب المؤلَّفة .

فلو إستطعت أن أجمع كل العُلوم في هذا الكِتاب لفعلت ، لكن ذلك ما لم يكن لمُتقدم ، ولا يكون لمُتأخر ، فهو وإن كان كبيراً فبالقياس لغيره يكون صغيراً ، وقد جمع ما تفرق في سواه ، وهو مع ذلك ـ بحمد الله ـ مُهذب التصنيف ، مُصوب التأليف ، إلاَّ أن يعترضه طعن حاسد ، أو تمرضه عين مُعاند ، وما الباطل بمقبول من أهله ، ولا الحق بمنقول عن أصله ، والسكوت خير من الخلاف العاري من البُرهان ، والخرس أفضل من قول بغير بيان .

ويجب لمن رام لغيره المُعارضة ، ولأقاويله المُناقضة ، ألاَّ ينطق إلاَّ بالبراهين ، لا سيما فيما يتعلق بالدِّين ، وللناس مذاهب فيما يألفونه ، ومطالب فيما يصنفونه ، فمنهم من يُريد بذلك تدليساً ، ويقصد فيه تلبيساً ؛ ومنهم من يعتمد للمُناقضات ، ويجتهد للمُعارضات ؛ ومنهم من يطلب بذلك الدُّنيا والمُفاخرة ، لا للدِّين يُريد ولا للآخرة ؛ ومنهم من يعتمد به التقوية للمُسلمين ، ويعقد فيه النية لرب العَالمِين .

فيجب لمن ألَّفَ كِتاباً ، أن يقصد به تأييداً للدِّين ، وإرشاداً للمُسلمين ، وأن يصح كلامه ، ويوضح نظامه ، ويحذر غلطات الكلم ، وسقطات القلم ، فإنه يعرض عِلمه ، وعمله ، وعقله ، وحقه ، وجهله .

وروي عن إياس بن معاوية ، أنه قال : من ألّفَ كِتاباً فقد إستهدف ، فإن أحسن فقد إستشرف ، وإن أساء فقد إستقذف ، ثم لا يخرج كِتابه من يده ، حتى يقرأه ويصححه ، ويحرره ويوضحه ، ليخرج سالماً صحيحاً ، واضحاً فصيحاً .

قال هشام بن عروة : قال لي أبي : كتبت ؟ قلت : نعم ؛ قال : عرضت ؟ قلت : لا ؛ قال : فلم تكتب ، وليُحسن الإختبار ، ويقصد الإختصار .

وقال النبي (ﷺ) : " بُعثت بجوامع الكلم " ، واختصر لي الحديث .

وقال الخليل : يُختصر الكِتاب ليُحفظ ، ويُبسط ليُفهم .

ويُقال : إختيار العِلم أشد من جمعه .

ويُقال : مُجتني كنوز العِلم في إختياره ، وحُسن إختصاره .

وقال الخليل : لكل شيء صناعة ، وحسن الإختصار صناعة العقل .

وقيل : دل على عقل إختياره ، تفسير ما في الخطبة من الغريب .

قوله : عود بعد بدء ، العود : تثنية الأمر بدأ ثم عوداً ؛

والعودة : عودة مرة واحدة ، كما يقول ملك الموت لأهل البيت إذا قبض أحدهم : إن ليَّ فيكم لعودة ، ثم عودة ، حتى لا يبقى منكم أحد ؛ وعاد علينا فلان بمعروفه ، أي : أحسن ، ثم زاد ؛ قال شعراً :

قد أحسن سعد في الذي كان بيننا فإن عاد بالمعروف فالعود أحمد

والبدء : مصدر بدأ يبدو ، وهو أن تفعل شيئاً قبل غيره ؛ والله بدأ الخلق ، وأبدأ الخلق ، والمعنى واحد ؛ والآلاء : النِعم ، وإحدها : آلاء ؛ والبلاء يكون في الخير والشر ، والله يبتلي العِباد بلاءً حسناً ، وبلاءً سيئاً ؛ والنقم : جمع نقمة : وهي العقوبة ، كقوله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ (١) ؛ ونقول : نقمت عليه ما صنع نقماً ، ونقمته ، أي : أنكرت عليه ؛ وتقول : نقم ينقم لغتان ؛ قال الشاعر :

ما نقموا من بني أمية إلاّ أنهم يحلمون إذا غضبوا

والبلاء : الإمتحان ؛ يُقال : بلى الإنسان وابتلي ؛ قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه ﴾ (٢) ؛ قال الشاعر :

---

(١) سورة المائدة : ٩٥ .
(٢) سورة الفجر : ١٦ .

بليت وفقدان الخليل بلية وكم من كريم يبتلي ثم يصبر

والبلوى : هي البلية ؛ والبلوى : التجربة ، بلوته بلوى ؛ والقثمي : الجامع الكامل ؛ بهر الشيء : إذا غلب ضوءه ضوء غيره ؛ قال :

كما يبهر البدر النجوم السواريا

وقال آخر :

وقد بهرت فما تخفى على أحد إلاّ على أحد لا يعرف القمرا

مُنقمع ، أي : ذليل ؛ وقمعت فلاناً فانقمع ، أي : ذللته فذل ؛ وكان قمعة بن إلياس بن مضر ، إسمه : عُمير ، فأغير على غنم لعمة أبيه ، فانقمع في البيت فرقاً ، فسماه أبوه : قمعة ؛ مُنقدع : كاف ؛ قدعته عن هذا الأمر فانقدع ؛ ذو عنون ، العنون : مصدر ؛ عَنَّ لنا كذا ، أي : إعترض ؛ يعن عنوناً ؛ قال إمرؤ القيس :

فعنّ لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار في ملأ مذيل

ودوار : صنم كانوا يطوفون به في الجاهلية ؛ ويُقال : هو حجر وحجارة ، كانوا يطوفون بها ؛ ودوار (بالفتح والتشديد) : موضع بالرمل ؛ قال الشاعر :

كانت منازلنا التي كُنَّا بها شتى فألف بيننا دوار

يند ، أي : ينفر ؛ يُقال : أنددت البعير فندَّ ، أي : نفرته فنفر ؛ والحديث ذو شجون : وقد فسرته في موضعه ؛ ولا غرو ، أي : فلا عجب ؛ الوئام ـ ويُقال : الموام أيضاً ـ : المُوافقة ؛ ويُقال : المُباهاة في الأشياء .

وقيل : يُقال : لولا الوئام هلك الأنام ؛ وقيل : هلك اللئام ؛ يقول : إن اللئام إنما يفعلون الجميل مُباهاة ، وتشبيها بأهل الكرم ، ولولا ذلك هلكوا ؛ ومُجانبة الإقتداء : ترك الإتباع وقطعه ، تقول : جانبت فلاناً ، قاطعته وقطعته واجتنبت قربه ؛ تورطوا : وقعوا في بلية ؛ تخبطوا ، أي : سلكوا غير قصد ؛ والعشواء : بمنزلة الظلماء ؛ وعشواء الليل : ظلمته ؛ والعُشوة ، والعِشوة ، والعَشوة : لغات كلها في معنى أن تركب أمراً على غير هداية وبيان ؛ وناقة عشواء : لا تبصر ؛ وقال زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء مَن تُصِب تمته ومن تخطأ يُعمر فيهرم

وهذا مثل معناه : أن المنايا تأتي بما لا يعرفه ، فمن أصابته أماتته ، فكأنها ناقة عشواء لا تبصر ، وقد ندت ، فهي تقتل من أصابته ، والمعنى : كخبط عشواء ؛ هجر المقالة : قبيح المقالة ؛

حجم الشيء نتوه : مثل حجم الصبي في بطن أمه ، وحجم الثدي في الصدر ؛ وقال قيس :

تعلقت ليلى وهي ذات موصد ولم يبد للأتراب من ثديها حجم

الموصد : لبسة الأعراب بمنزلة الإزار ؛ وغيرهم يسميها : النقبة .

الفرق بين [إن] ، [وأن] ؛ فإن : لما يأتي ؛ وأن : لما يمضي ؛ وكذلك [إذ] ، [وإذا] ؛ فإذا : لما يأتي ، وهو ظرف ؛ [وإذ] : ظرف لما يمضي ، والدليل على ذلك ، قوله (عز وجل) : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ (١) .

---

(١) سورة النصر : ١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول في : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ (١)

أول ما يفتتح به الكِتاب : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ (١) ، وهي آية من القرآن ، بإجماعهم ، أنزلها الله (عز وجل) ، مُبتدئاً الكلام في كلامه ، وفصلاً بين سوره ، وأثبتتها الصحابة في المُصحف .

ويُروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، أنه عدها من أم الكِتاب ، وقال : " إنها من السبع المثاني " ، ونُحب إفتتاح كل عمل وقول بها ، والإقتداء في ذلك بالله (جل جلاله) ، ثم برسوله (صلى الله عليه وسلم) ؛ وقد كره بعض أن يُكتب معها في سطرها شيئاً غيرها ، أو يبتديء بها الشعراء ، ويُدغم منها صورة الباء والسين ، على ما يفعله بعض الكُتاب ؛ وكره بعض تصغير خط : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ (١) (عز وجل) ، تعظيماً لإسمه وكلامه ، ويكره تغوير الهاء من إسم الله جل ثناؤه ، ويستحب تبين هذه الآية ، وتفسيح حروفها ، وتتميم ألفاتها ، وتقويم لاماتها .

---

(١) سورة النمل : ٣٠ .

ورُوي أن عاملاً لعُمر بن عبد العزيز كتب : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، فحذف السين بين الباء والميم ، فعزله لذلك ، والله أعلم .

وكره جماعة من الصحابة والتابعين ـ فيما وجدت ـ أن يمد الباء إلى الميم حتى يكتب السين ؛ وكره مجاهد والشعبي وغيرهما أن يكتب الجُنب : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، وكره أن يُكتب على الأرض .

وعن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : " من كتب : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، فجودها تعظيماً لله (عز وجل) ، وجلت عظمته ، غفر الله له ؛ ومن رفع قرطاساً فيه : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، إجلالاً لله (عز وجل) أن يُداس ، كُتب عند الله من الصديقين ، ويُخفف عن والديه ، وإن كانا مُشركين ـ أعني من العذاب ـ " .

وعنه ، من طريق عليّ ، أنه قال (ﷺ) : " ما من كِتاب فيه إسم الله ، نُسخ فيه : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، مُلقى ببُقعة من الأرض ، إلاّ بعث الله إليه من يرفعه ، وإذا رفعه ، أدخله الله الجنة ، وخفف عن والديه العذاب ، وإن كانا مُشركين " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " من يتوق : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، رزقه الله ولداً بلا عيب " .

وعن أبو جعفر محمد بن عليّ ، أنه قال : مُفتاح كل كِتاب أنزل من السماء : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، تيجان الكُتب " ؛ وأنشد :

بإسم الله يفتتح الكلام وبسم الله شافية السقام

قال عليّ : لما أنزلت : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، قال (ﷺ) : " أول ما أنزلت هذه الآية ، على آدم (عليه السلام) ، قال : أمن ذريتي العذاب ما داموا على قرائتها ، ثم رفعت ، فأنزلت على إبراهيم (عليه السلام) ، فتلاها وقرأها وهو في كفة المنجنيق ، فجعل الله تعالى عليه النار برداً وسلاماً ، ثم رفعت بعده ، فما نزلت إلاّ على سُليمان (عليه السلام) ، وعندها قالت الملائكة : الآن تم والله مُلكك ، ثم رُفعت ، فأنزلها الله تعالى عليَّ ، ثم تأتي أمتي يوم القيامة وهم يقولون : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، فإذا وُضِعت في ميزان أعمالهم ، رجحت حسناتهم " ؛ وقال رسول الله (ﷺ) : " اكتبوها في كُتبكم فإذا كتبتموها فتكلموا بها " .

وعن عائشة ، أنها قالت : لما نزلت : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، ضجت الجبال ، حتى سمع أهل مكة دويها ، فقالوا : سحر محمد الجبال ، فبعث الله عليهم دُخاناً ، حتى ظلل مكة .

وقال النبي (ﷺ) : " من قال : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، مُؤمناً مُوقناً ، سبحت معه الملائكة والجبال ، إلاَّ أنه لا يسمع ذلك " .

وقال ابن عباس : لما نزلت : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، في سورة النمل ، مرت الغيم إلى المشرق ، وسكنت الرياح ، وصاحت النجوم ، وأصغت البهائم بآذانها وأقبلت ، ومُنِعت الشياطين من السماء ، وحلف رب العرش لا يُسمىً إسمه على شيء إلاَّ شفاه ، ولا على شيء إلاَّ بارك فيه ، ولم يرن إبليس - لعنه الله - مثل ثلاث رنات قط ، رنة حين لُعن وأخرج من ملكوت السماوات ، ورنة حين ولد النبي (ﷺ) ، ورنة حين نزلت : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، فاتحة الكتاب .

وعن ابن عباس ، أنه قال : أول ما أنزل الله تعالى : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، على سُليمان (عليه السلام) ، ليفتتح بها الدُّنيا ، ويذل بها الملوك ، وهي قراءة أهل السماوات ، ثم رُفعت ،

فأنزلت على محمد (ﷺ) ، في سورة النمل ، وكانت فتحاً عظيماً ، فإذا قرأتموها فمدوها ، فإنها هي العزيزة ، فإذا كتبتموها فاقرؤها ، فإنها هي الشافية من كل داء ، وما تقدمها شيء من الكلام ، فجعلت إفتتاحاً لكل مُهم ، ودواء لكل سقيم ، ولم يُرد دُعاء أوله : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

وقال عليّ بن أبي طالب : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، شفاء من كل داء ، وعون على كل دواء ؛ وقال محمد بن مداد :

بسم الله تشفي كل داء ... وبسم الله عون في الدواء
وبسم الله مُفتاح المثاني ... وبسم الله تاج الأنبياء
وبسم الله تسعة أحرف بعد ... عشر في العداد لكل راء
وفي الحسنات حرف منه عشر ... فأكثر في مُضاعفة الجزاء

وروى الشعبي : أن العرب كانت تكتب في أوائل كُتبها - قبل الإسلام - بسمك اللهم ، وكان النبي (ﷺ) يكتبها كذلك صدراً ، فلما أنزلت عليه : ﴿ بسم الله مجريها ومرساها ﴾ [1] ، كتب : بسم الله ، ثم نزلت عليه : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ [2] ، فكتب : بسم الله الرحمن ، ثم نزلت عليه : ﴿ إنه من سليمان وإنه

---

(١) سورة هود : ٤١ .
(٢) سورة الإسراء : ١١٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم ﴾[1] ، فكتبها كذلك ، فاستقام الأمر ، واستمر على إفتتاح الكُتب بها إلى اليوم .

ويُقال : إن أول من كتبها سُليمان (عليه السلام) ، و ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، تسعة عشر حرفاً ، لقارئها بكل حرف عشر حسنات .

ويُقال : قد أكثر من البسملة ، إذا أكثر من قول : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ؛ قال عُمر بن أبي ربيعة المخزومي :

ألا بسملت ليلى غداة لقيتها ألا حبذا ذاك الحديث المُبسمل

فصل

قال عمرو بن شرحبيل : أول ما جاء به جبريل (عليه السلام) إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، قال له : قل ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، فأعادها عليه ثلاثاً ؛ ثم قال له : قل ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾[2] ، فأعادها عليه ثلاثاً .

وعن الزهري ، في قول الله (عز وجل) : ﴿ وألزمهم كلمة

(١) سورة النمل : ٣٠ .
(٢) سورة الفاتحة : ٢ .

التقوى ﴾ (١) ، قال : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

قال عبد الله بن الحسن ، في قوله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ﴾ (٢) ، يقول : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

وعن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، أنه قال : " ستر ما بين الجن وعورات بني آدم ، إذا دخل أحدهم المستحم أن يقول : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ " ؛ قال رجل : تعس الشيطان ؛ فقال النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : " لا تقل : تعس الشيطان ، فإنه يتعاظم ، ويقول : بعزتي صرعتك ، فإذا قلت : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، يتصاغر الشيطان حتى يصير مثل الذباب " .

وقال أبو جعفر محمد بن عليّ : إذا قرأ الرجل : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، ستر ما بين يديه من السماء إلى الأرض .

وقيل : أمرت عائشة خادماً لها ، أن يخيط لها خرقاً في فراشها ، فلما خاطه قالت له : أذكرت إسم الله عليه حين بدأت به ؟ قال : لا ؛ قالت : فانقضه ، ثم اذكر إسم الله عليه .

---

(١) سورة الفتح : ٢٦ .
(٢) سورة الإسراء : ٤٦ .

وقيل : دعت عائشة خياطاً ، فقالت له : سميت حين ضربت بإبرتك ؟ قال : لا ؛ قالت : ما يبقى فافتق ما خطت .

فصل

قال كعب الأحبار : إن أول ما خلق الله (عز وجل) من الحروف : الباء ، ويُقال : كانت الألف والسين والألف حرفين كاملين ، فترافعت السين ، فرفع الله عليها الألف .

ويُروى عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " إن أول ما كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ (نقطة) ، فنظرت إلى نفسها ، فتصاغرت وتواضعت لله (عز وجل) ، فصارت (همزة) ، فلما رأى تواضعها ، طولها وجعلها (ألفاً) ، ثم تلفظ بها ، فقال : (ألف) ، فصارت ثلاثة أحرف : (ألف ، ولام ، وفاء) ، ثم جعل يلفظ حرفاً بعد حرف على تسعة وعشرين حرفاً ، حتى تثبت الألسن كلها على ذلك ، فجعل (الألف) من أول أسماء الله (عز وجل) ؛ الرحمن الرحيم ، ألا ترى أنه تدور عليه أسماؤه كلها ، وجعل (اللام) في آخر أسمائه لجبريل وميكائيل ، وجعل (الميم) في أول إسم محمد (ﷺ) ومن أوسطه ، ثم أقسم بنفسه وبملائكته وبمحمد (ﷺ) ، أن هذا الكِتاب " .

وبلغنا : أن إسم الله الأعظم هو الله لا إله إلاَّ هو وحده لا شريك له ، وإسم الله (عَزَّ وَجَلَّ) قدم على الرحمن الرحيم ، لأنه إسم لا ينبغي إلاَّ لله تعالى .

وقيل : في قوله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ [1] ، أي : هل تعلم له في السهل والجبل ، والبر والبحر ، والمشرق والمغرب ، أحداً إسمه : الله ، غير الله لا إله إلاَّ هو .

وقيل : إسم الله الأعظم : يا ذا الجلال والإكرام ؛ وقيل : يا حي يا قيوم .

وقال أبي بن كعب : جميع الأسماء بمعنى ربوبية الرب (عَزَّ وَجَلَّ) ؛ قال : وإسمه الذي هو إسمه الله .

وقال جابر بن زيد : إسم الله الأعظم هو الله ، ألا ترى أنه يبتدئ به ؛ وتفسير : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، في الإعراب ، قد ذكرته في باب : التوحيد إن شاء الله .

---

(١) سورة مريم : ٦٥ .

الباب الثاني :
في العِلم

العِلم على وجوه ، فالأول : هو القرآن ، وهو قوله (عز وجل) : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ﴾ (١) ؛ والعِلم المُعجز : هو القرآن ، ولا يُسمى بهذا الإسم غيره ؛ والثاني : هو محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وهو قوله تعالى : ﴿ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ (٢) ، يقول : لم يختلف أهل الكتاب فيه (صلى الله عليه وسلم) أنه نبي مبعوث حتى جاءهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ والثالث : وهو الكيمياء ، وهو قوله تعالى في قصة قارون : ﴿ قال إنما أوتيته على علم عندي ﴾ (٣) ، أي : عِلم الكيمياء ؛ والرابع : هو الشرك والكفر ، وهو قوله (عز وجل) : ﴿ فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ (٤) ، قيل : من الشرك والكفر ، والله أعلم ؛ والخامس : العِلم المعروف وهو ضد الجهل .

وعن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، أنه قال : " العِلم عِلمان : عِلم الأديان ، وعِلم الأبدان " ؛ وفي خبر آخر ، أنه (صلى الله عليه وسلم) ، قدم عِلم الأبدان على عِلم الأديان ، وليس في تقديمه (صلى الله عليه وسلم) عِلم الأبدان دلالة على

---

(١) سورة آل عمران : ٦١ .
(٢) سورة الجاثية : ١٧ .
(٣) سورة القصص : ٧٨ .
(٤) سورة غافر : ٨٣ .

تفضيله إياه على عِلم الأديان ، إذ قد جاء في القرآن الكريم تقديم الأنقص على الأفضل في غير موضع ، فمنه تقديم الجن على الإنس ، والإنس أفضل ، وتقديم الليل على النهار ، والنهار أفضل ، وغير هذا كثير .

ويُقال : العُلوم أربعة : عِلم الأديان ، وعِلم الأبدان ، وعِلم اللسان ، وعِلم الإنسان ؛ فعِلم الأديان : عِلم الحلال والحرام ؛ وعِلم الأبدان : عِلم الطب ؛ وعِلم اللسان : الفصاحة ؛ وعِلم الإنسان : عِلم الأنساب .

ويُقال : العِلم عِلمان : فعِلم باللسان ، ليس له تحقيق بالفعال ، فذلك العِلم الضار ؛ وعِلم باللسان تحققه الفعال ، فذلك العِلم النافع .

وعن جابر بن زيد ، أن النبي (ﷺ) قال : " العِلم عِلمان : عِلم في القلب ، فذلك العِلم النافع ؛ وعِلم في اللسان ، فذلك حجة الله على ابن آدم " .

والعِلم ـ أيضاً ـ عِلمان : عِلم عقلي ، وعِلم سمعي ؛ فالعقلي : ما خطر بالقلب من التوحيد وغيره ، ومعرفة الوعد والوعيد ، وكذلك ما حسن في عقله ، وقبح مما لم يأته خبره ، ولم يسمع

بذكره ؛ والعِلم السمعي : هو ما جاء به محمد (ﷺ) ، من الشريعة والسُنة ، وبينه من أحكام القرآن ، مما طرق سمعه ، وجاءته صحته ، وقامت حجته بظواهر دلالاته ، لأن القرآن مُعجز في نظمه ومعانيه ، باين من كلام البشر ، فذلك يلزم من المُتعبد التصديق به .

ويُقال - أيضاً - : العِلم عِلمان : عِلم إعتبار ، وعِلم إضطرار ، وكلاهما عرض .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " العُلوم ثلاثة ، وما سواهن فضل : آية مُحكمة ، أو فريضة عادلة ، أو سُنة ثابتة " .

ويُقال : العِلم عِلمان : القرآن ، والفقه ، والباقي تلهي .

وقال محمد بن إسحاق : العِلم إسم أصلي ، يجمع فروعاً كثيرة ، وكل فرع من فروعه عِلم برأسه ، فمن ذلك : عُلوم أخروية ، وعُلوم دُنياوية ، فمن العُلوم الأخروية : الفقه ، وهو الشرف الباذخ الذي من عَلمه وعمل به ، ساد في الدُّنيا والآخرة ، وسبيل من أراد الفقه ، أن يبدأ بالقرآن ، واستنباط علمه ، ومعرفة خاصه ، وعامه ، وندبه ، وحضره ، وإباحته ، وناسخه ، ومنسوخه ، ومُحكمه ، ومُتشابهه ، وأحكامه ، وتفسيره ،

وإعرابه ، فإن القرآن هو الأصل ، الذي من رزق عِلمه شرف ، وعلت حاله ، ورأس في الناس وساد به ؛ ومن فروع العِلم بعد طلب الآثار والفقه : عِلم الفرائض ، وعِلم الشروط ؛ وأما العُلوم الدُّنياوية : فعِلم اللغة ، والنحو ، ورواية الشعر ، وحفظ الأخبار ، والسير ، والمغازي ، وأيام الناس ، والطب ، والنجوم ، والحساب ، وعِلم الهيئة ، وأشباه ذلك ، وقد عدها الناس في جُملة العِلم [1] ، وعِلم الشروط عِلم جليل ، وبالناس إليه الحاجة الماسة ، ولا غنية لهم عنه ، وهُوَ من عُلوم الدُّنيا والآخرة ، لأنه به تُحفظ الأمانات والأموال ، وما يعلمه أحد إلاَّ إحتاج الناس إليه .

وعن أبي حنيفة ، أنه قال : تعلموا الوثائق واكتبوها بين الناس ، فإن أردتم دُّنيا وجدتموها ، وإن أردتم آخرة وجدتموها .

وعن خالد بن يوسف ، أنه قال : تعلمت الفقه فما قامت سوقي ، فتعلمت الشروط فكانت سبب رئاستي .

وقال إبراهيم : العُلوم ثلاثة : عِلم دُّنياوي ، وعِلم دِّيناوي وأخروي ، وعِلم لا دُّنيا ولا آخرة ؛ فأما العِلم الدُّنياوي : فالطب ،

(١) في نسخة أخرى : جُملة العُلوم .

والنجوم ، وما أشبه ذلك ؛ وأما العِلم الدِّيناوي والأخروي : فهو القرآن ، والفقه ؛ وأما العِلم الذي لا للدُّنيا ولا للآخرة : فهو الشِعر .

وقال بعضهم : الفقه عِلم جليل ، قل ما سلم صاحبه (١) من العجب والرياء ؛ وعلم الحساب عِلم تيقن ، وليس من عِلم الدِّين ؛ وعِلم الإعراب لا يُستغنى عن قليله ، ولا يحتاج إلى كثيره ، والشِعر نعم العون على الدُّنيا ، وأجل العُلوم معرفة الله (عَزَّ وَجَلَّ) ، وكل فن من العُلوم فهو عِلم بنفسه ، وكل نوع من العُلوم ، يُقال له : نمط ، والعِلم ما أصلح الإنسان ، وصحح اللسان ، وأفصح البيان ، ورفع أهله في الملأ ، ونفعهم في الخلا ، وطلب مفقوداً ، ورغب فيه موجوداً ، وجاء عن المُسلمين ، ونفع في الدُّنيا والدِّين ، وكان صفواً من الكدر ، ونفعاً بلا ضرر ، لا ما كان حظلاً ، ولغواً ، ولعباً ، ولهواً ، وسفهاً ، وسهواً ، ذلك حظ الجهال ، وبضاعة أهل الضلال .

فصل

قال بعض الحُكماء : العِلم عِلمان : عِلم دِّيني ، وعِلم دُّنياوي ،

(١) في نسخة أخرى : سلم حامله .

فالعِلم الدِّيني : الذي هو قسط العُلماء والحُكماء ، الذين أرادوا به الآخرة والنجاة ؛ والعِلم الدُّنياوي : هو قسط من أراد إكتساب الأموال والمراتب في الدُّنيا ؛ والعِلم الدِّيني ينقسم على قسمين : عِلم عَام ظاهر ، وعِلم خاص باطن خفي ؛ فالعِلم العام الظاهر الجليل ، كالعِلم في الحلال والحرام ، والفرائض والسُنن والأحكام ، وحفظ الكُتب والأخبار والحديث ، وغير ذلك ، قد إشترك فيه الخاص والعام ؛ والعلم الخاص الباطن الخفي : فهو عِلم الأنبياء ، والصديقين ، والأولياء المخصوصين ، قد خص به قوم دون قوم ، فهو في كل أمة ، مثل : تأويل الكُتب ، وأسرار الأنبياء والرُّسل ، وما كان بينهم وبين أوليائهم ، فهذا هو العِلم الخاص ، الذي كان من الأنبياء وأوليائهم المخصوصين دون عوام الناس ؛ ثم ينقسم العِلم الخاص قسمين : فقسم بين الأنبياء وخواصهم ، وقسم خص الله تعالى به الأنبياء ، وهو بينهم وبين الله (عزّ وجلّ) ، أطلعهم عليه دون سائر الناس ، من عِلم الغيب ، قال الله (عزّ وجلّ) : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلاّ من ارتضى من رسول ﴾ (١) ، فأعلمنا (عزّ وجلّ) : أنه إذا إرتضى رسولاً من خلقه ، أطلعه على ما شاء ؛ ثم ينقسم - أيضاً - ذلك العِلم قسمين : عِلم بين الله تعالى وبين أنبيائه ورُسله ، وعِلم تفرد به (عزّ وجلّ) ، فلم

---

(١) سورة الجن : ٢٦ - ٢٧ .

يطلع عليه أحداً من خلقه ، فقال (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلاَّ هو ﴾ (١) ؛ ومثله : قوله (جَلَّ جَلَالُهُ) : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار ﴾ (٢) ؛ ومثله : قوله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ (٣) ؛ ومثله كثير في القرآن ، مما تفرد به هو (جَلَّ جَلَالُهُ) يعلمه دون كل أحد من خلقه .

وقسم العِلم أقساماً ، ورتب العُلماء فيه مراتب ودرجات ، قال الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) : ﴿ يرفع الله الذين أمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ (٤) ؛ وقال (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ (٥) ؛ والعلم الدُّنياوي ينقسم إلى قسمين : عِلم روحاني ، وعِلم جسداني ؛ فالعِلم الروحاني : هو عِلم لطيف ، مثل : عِلم النجوم ، والحساب ، والطب ، والهندسة ، وما أشبه ذلك ؛ والعِلم الجسداني : هو عِلم الصناعات ، مثل : البُنيان ، والدوالي ، والأرحا ، وعمل البحر ، والحديد ، وغير ذلك من الصناعات .

(١) سورة الأعراف : ١٨٧ .
(٢) سورة الرعد : ٨ .
(٣) سورة لقمان : ٣٤ .
(٤) سورة المجادلة : ١١ .
(٥) سورة يوسف : ٧٦ .

فصل

روي عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " أنا مدينة العِلم ، وعليّ بابها " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " باض العِلم بمكة ، وفرخ بالمدينة ، ونهض إلى عُمان " .

وعن أبو مُوسَى الأشعري ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : " يخرج الناس من المشرق والمغرب في طلب العِلم ، فلا يجدون عَالِماً أعلم من عَالِم المدينة ، أو عَالِم أهل المدينة " .

وعن أبي هُريرة ، قال : قال (ﷺ) : " يأتي على الناس زمان لا يجدون عَالِماً أعلم من عَالِم المدينة " .

ونقلة العِلم من البصرة إلى عُمان أربعة ، وهم : مُوسى بن أبي جابر ـ وهو رجل من بني ضبة ؛ وبشير بن المُنذر ـ وهو رجل من بني سامة بن لؤي ؛ ومحمد بن المعلا ـ وهو رجل من بني كنده ؛ ومُنير بن النير ـ وهو رجل من بني ريام ؛ وكلهم في الولاية ، إلاّ محمد بن المعلا ، فإنه قد وقف بعض عنه ، والله أعلم بأمره .

وقال أبو إبراهيم : إنه أول من قام بالتحكيم ، ودعا إلى القيام بدولة المُسلمين .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " نعم وزير الإيمان العِلم ، ونعم وزير العِلم الحِلم ، ونعم وزير الحِلم الدِّين ، ونعم وزير الدِّين البر " .

وقال بعض الحُكماء : العِلم داعية الحلم ؛ ويُقال : عِلمك من روحك ، ومالك من بدنك .

وقال بعض الحُكماء : من أحب العِلم ، أحاطت به فضائله ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

ألا من أحب العِلم حُبب في الورى ... وحاطت به في العَالَمِين فضائله
إذا كان ذاك الحُب لله خالصاً ... ولم يختلجه أمر زهو وباطله
وكل لباس يلبس المرء في الدُّنا ... سيظهر في الأخرى عليه غلائله

قال الزهري : العِلم ذكر ولا يحبه إلاَّ الذكور من بني آدم .

وقال عبد الله بن الزبير : العِلم ذكر يُحبه ذكور الرجال ، ويُبغضه إناثهم ؛ وكان في مجلسه رجل من أهل الكِتاب ، فقال : أصلحك الله ، عندي أكثر من هذا زيادة أفأقولها ؟ قال : قل ؛ قال :

قرأت في الكِتاب الأول : لا يُحب العِلم إلاّ من أحبه الله ، ولا يُبغضه إلاّ من أبغضه الله ؛ فقال عبد الله بن الزبير : هذا أكثر مما سمعنا وأحسن .

وقال بعض البُلغاء : من تفرد بالعِلم لم توحشه خلوة ، ومن تسلى بالكُتب لم تفته سلوة ، ومن أنسه قراءة القرآن لم توحشه مُفارقة الإخوان ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

من تحلى بالعِلم لم يمس خلوا   من حديث وحكمة وبيان
أو تسلى بالكُتب لم يتسلى   مثله عند مجمع الفتيان
ولخير من كل شيء عليها   للمرجي تلاوة القرآن

وقال بعض الحُكماء : لا سمير كالعِلم ، ولا ظهير كالحلم .

وقال سُفيان : أحوج الناس إلى العِلم العُلماء ، لأن الجهل بهم أقبح ، وهم أعلام ومنار يُقتدى بهم .

فصل

وقال بعض العُلماء : إذا أراد الله (عز وجل) بالناس خيراً ، جعل العِلم في ملوكهم ، والمُلك في عُلمائهم .

وقال بعض البُلغاء : العِلم عصمة الملوك ، لأنه يمنعهم من الظلم ، ويردهم إلى الحلم ، ويصدهم عن الأذية ، ويعطفهم على الرعية .

وقال بعض الأدباء : كل عز لم يوطده عِلم مذلة ، وكل عِلم لا يُؤيده عقل مضلة ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

كل عز لم يشايعه عِلم فهو خزي وشنار وذل
وكذا العِلم إذا لم يُؤيد بتقوى فهو في العُقبى ضلالٌ مُضل

ويُقال : العِلم قائد ، والعقل سائق ، والنفس حرون ، فإذا كان قائد بلا سائق تلكأت ، وإذا كان سائق بلا قائد عدلت يميناً وشمالاً ، وإذا كان قائد وسائق مرت واستوت ؛ وقال محمد بن مداد :

إنما النفس حرون وعليها العقل سائق
ولها العِلم دليل عند إدلال المضائق
فإذا قام عليها سلكت حسن الطرائق

وفي قول آخر : إذا إجتمعت أتت طوعاً أو كرهاً ، ولولا العِلم لكان الناس كالبهائم ؛ وقال محمد بن مداد :

إنمـــا النـــاس ذئـــاب ووحـــوش وبـــهائم
همـــهم أكـــل وشـــرب مثل ما ترعى النعائم
أبـغض النـاس إليـهم عـارف بالله عَـالِـم

فصـل

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " لا تقوم الساعة ، حتى يصير العِلم جهلاً " .

وعن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : " من أشراط الساعة : أن يُرفع العِلم ، ويُثبت الجهل ، وتشرب الخمور ، ويظهر الزنا " .

وقال الشعبي : ذهب العِلم ، إلاَّ غبرا في أوعية سوء [1] ، وقال محمد بن مداد :

أرى العِلم قد ولى وقد مات أهله ولم يبق إلاَّ غبر في الغوابر
وما فقده إلاَّ لفقدان أهله عشية أمسوا كلهم في المقابر

ويُقال : لم يبق من الشيء إلاَّ غبر ، أي : بقايا يسيرة ، فالغبر : جمع غابر ؛ والغابر : الباقي ، وهو قول الله (عز وجل) :

(١) في نسخة أخرى : إلاَّ بقايا يسيرة .

﴿ إلا عجوزا في الغابرين ﴾ [1] ؛ وقال حميد بن ثور :

فكلفت يوم البين من غبر الصبي   ثوي من جميع أملكتها الأباعر

وقيل : أن العِلم يفنى قبضة قبضة ، حتى يذهب كله .

فصل

والعِلم أصناف كثيرة ، وضروب مُختلفة ، وكلها شريفة ، ولكل عِلم منها فضيله ، والإحاطة بجميعها مُحال ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

العِلم شتى الضروب مُختلف   يعجز عن جمع كله الكلف
الفقه والنحو واللغات وأنساب   وطب وعِلم النجوم يا خلف
وفي الأحاديث والرواية والأشعار   عِلم وكله شرف
فخُذ من العِلم ويكُ أحسنه   فالعِلم بحر بالموج يصطدف
ما جمع العِلم كله أحد   كلا ولا ينتهيه مثتقف
من ظن للعِلم غاية فقد إستولى   على ضعف عقله الوكف

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " العِلم أكبر من أن يُدرك ، فخذوا من كل شيء أحسنه " ؛ قال الشاعر :

(١) سورة الشعراء : ١٧١ .

ما حوى العِلم جميعاً أحد لا ولو مارسه ألف سنة
إنما العِلم غزير قعره فخذوا من كل شيء أحسنه

وقال محمد بن مداد ، في مثله :

ما حوى العِلم لعمري أحد لا ولو مد له ألف سنة
يا أخي ما خاب إلاّ مُهمل حظه إن لم يدعه ديدنه
فخذ العِلم لتزداد به كل حين في طلاب حسنه
إنما العِلم كبحر سائل فانتخب من كل شيء أحسنه

وعنه (ﷺ) ، انه قال : " من ظن أن للعِلم غاية ، فقد بخسه حقه ، ووضعه في غير منزلته التي وضعه الله فيها ، حيث يقول الله (عز وجل) : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ (١) " ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

قال رسول الله ذو النور والهُدى وأصدق قولاً قاله خاتم الرُسل
فمن ظن يوماً أن للعِلم غاية فقد نقص العِلم الشريف عن الفضل
وما إن طلبناه لندرك غاية ولكن لننفي ما إستطعنا من الجهل

وقال بعض الفقهاء : لو كُنا نطلب العِلم لنبلغ غايته ، كنا قد

(١) سورة الإسراء : ٨٥ .

بدأنا العِلم بالنقيصة ، ولكن نطلب لننتقص كل يوم من الجهل ، ونزداد كل يوم من العِلم .

وحكى عن أرسطاطاليس ، أنه قال : ليس طلبي للعِلم طمعاً في بلوغ قاصيته ، ولا الإستيلاء على غايته ، ولكن لما لا يسع جهله ، ولا يحسن بالعاقل خلافه .

وقال بعض الحُكماء : ما معي من العِلم شيء ، إلاَّ أني ما عَلِمت شيئاً .

وقال بعض البُلغاء : المُتعمق في العِلم ، كالسابح في البحر ، ليس يرى أرضاً ، ولا يعرف طولاً ، ولا عرضاً ؛ وقال محمد بن مداد :

ومن يتعمق في البحر لا يرتع به البحر في الساحل
وبين البلوغ لقصوى العُلوم كما بين مصر إلى بابل

وأنشد الرشيد للمهدي :

يا نفس خُوضي بحار العِلم أو غوصي فالناس ما بين معموم ومخصوص
لا شيء في هذه الدُّنيا يحاط به إلاَّ إحاطة منقوص بمنقوص

وقال بعض العُلماء : إنا لا نطلب العِلم لنحيط به كله ، ولكن

لنستكثر من الصواب ونستقل من الخطأ .

وقال إياس بن معاوية : من تعلم طرفاً من العِلم ، لم يعرف به غور العِلم ، دعاه الجهل إلى أن يرى أنه قد عَلِم العِلم ؛ ومن تعلم طرفاً من العِلم ، فعرف به غور العِلم ، لم يزل مُتعلماً إلى أن يموت ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

أجهل الناس كلهم ... من حوى العِلم بادعاء
قد رأى العِلم أنه ... مثل شرب من السقاء
فإذا أنت بزته ... كان من أجهل الرعاء

وغور العِلم : غايته ، وغور كل شيء : قعره .

وقيل لبعض الحُكماء : من يعرف كل العِلم ؟ فقال : كل الناس ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

يقولون جالسنا ذو العِلم برهة ... ونحن من العِلم الشريف على نظر
فإن ترهم في العِلم لووا رؤوسهم ... وكانوا كأصناف الحمير أو البقر
أولاك نعاج العِلم لا تغترر بهم ... فما هم على الدُّنيا وما هم من البشر

وقال : العِلم ثلاثة أشبار ، فمن نال منه شبراً ، شمخ بأنفه وظن أنهُ أنهُ ، ومن نال الشبر الباقي ، صغرت عليه نفسه وعَلِم

أنهُ أنهْ ، وأما الشبر الثالث ، فهيهات لا يناله أحد أبداً ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

من نال في العِلم شبراً ... علت به النفس تيها
ومد في العِلم باعاً ... وقال للناس إيها
ومن ينل منه شبراً ... يصر فقيهاً نبيها
وقلّ في نفسه ما حوى ... وصار وجيها
ولم يعال عليماً ... ولم يمار سفيها
ويعد غاية عِلم ... هيهات أن ينتهيها

وقيل : العِلم على ثلاثة منازل : فمن بلغ المنزلة الأولى ، إستكثر ما عَلِمهُ ؛ وإن بلغ المنزلة الثانية ، إستقل ما عَلِمهُ ، وعَلِم أن ما عَلِمهُ قليل من كثير ، والمنزلة الثالثة لن يبلغها أحد ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

العِلم رتبه الحكيم ... على ثلاث منازل
فالرتبة الأولى يكون ... على طريق الساحل
يعني عليه أن يعُوم ... فلا يروم بطائل
والرتبة الأخرى أشد ... كوطأة المُتثاقل
والرتبة العُليا تهون ... على العميّ الجاهل

وسُئل منقريطيس [الفيلسوف] : ما فضل عِلمك على غيرك ؟ قال : معرفتي أن عِلمي قليل ؛ وفي الحِكمة : من لطيف عِلمك ، أن تعلَم أنك لا تعلَم .

وقال بعض الحُكماء : علِمنا أشياء ، وجهلنا أشياء ، فلا يبطل ما علِمنا بما جهلنا .

وقال بعض الحُكماء : من فضل عِلمك إستقلالك لعِلمك ، ومن كمال عقلك إستظهارك على عقلك ، ولا ينبغي أن تجهل من نفسك عِلمها ، ولا تجاوز بها قدر حقها ، ولا يجهل أحوالك ، فإن من جهل نفسه ، كان لغيرها أجهل .

وقالت عائشة لرسول الله (ﷺ) : يا رسول الله ، متى يعرف الإنسان ربه ؟ قال (ﷺ) : " إذا عرف نفسه " .

وقال قس بن ساعدة : أفضل العِلم ، وقوف المرء عند عِلمه ؛ وقال الشاعر :

ومن البلوى التي ليس لها في الناس كنه
إن من يحسن شيئاً يدعي أكبر منه

والبلوى : هي البلية ، وهي مقصورة (تكتب بالياء) ؛

والبلوى - أيضاً - : التجربة ، بلوته بلوى ؛ والبلية قد ذكرتها في كِتاب : " الإبانة " ؛ وكنه كل شيء : غايته ؛ وفي بعض المعاني : بلغت كنه هذا الأمر ، أي : غايته ؛ وفعلت هذا في غير كنهه ؛ قال الشاعر :

وإن كلام المرء في غير كنهه لكالنبل يهوي ليس فيها نصالها

وقال آخر :

يتعاطى كل شيء وهو لا يحسن شيئا
فهو لا يزداد رشداً إنما يزداد غيا

والغي : مصدر غوي ، والرجل يغوي غياً : إذا ضل ؛ قال الشاعر :

من يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

والغوى : الفساد ؛ غوى الرجل : إذا فسد ؛ وغوى الفصيل : إذا بشم يغوي ، فهو غو .

فصل

قيل : أن مُوسَى (عليه السلام) ، أعجبه عِلمه ، فقال في نفسه :

ما أحد في زماني أعلم مني ؟! فرفع عصفور في منقاره نقطة من ماء البحر ، فأوحى الله تعالى إليه : ما عِلمك عند عِلم غيرك من عبيدي ، إلاّ كما حمل هذا العصفور من البحر بمنقاره ؛ قال محمد بن مداد :

العجب بالعِلم يفسد العملا   فلا تكن مُعجباً ولا كسلا
واسترزق الله حكمة وتقى   فما عليهن في اللباس حُلا

وعن أبي بن كعب ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : " إن الخضر ومُوسَى - صاحب بني إسرائيل - ركبا في السفينة ، فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة ، فنقر في البحر بمنقاره ، فقال له الخضر : ما نقص من عِلمي ، وعِلمك ، وعِلم جميع المخلوقين ، من عِلم الله (عز وجل) ، إلاّ كما نقص هذا العصفور من هذا البحر " .

قال النقاش : كان مُوسَى (عليه السلام) ، حدث نفسه : أنه ليس أحد أعلم منه ، وتكلم به ، فجاء عصفور - ويُقال : خطاف - حتى وقع على حرف السفينة ، ثم نقر من البحر ، فقال الخضر : ما نقص عِلمك وعِلمي ، من علم الله (عز وجل) ، إلاّ مثل ما نقص هذا العصور من ماء البحر ؛ فلما حان للخضر ومُوسَى (عليهما السلام) أن

يفترقا ، قال له الخضر : لو صبرت لأتيت ألف عجيبة ، كل عجيبة أعجب مما رأيت .

قال : فبكى مُوسَى (عليه السلام) على فراقه ، وقال له : أوصني يا نبي الله ؟ فقال له الخضر - فيما يُقال - : إياك والإعجاب بنفسك ، والتفريط فيما بقي من عُمرك .

قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : " يرحم الله مُوسَى ، وددنا أنه كان صبر ، حتى يقص الله علينا من أخبارهما " ؛ وقال (صلى الله عليه وسلم) : " كانت الأولى من مُوسَى نسياناً " .

وقال وهب : كثير من أهل العِلم يقولون : هو مُوسَى بن مينيا ، نبي كان من بعد مُوسَى بن عمران بدهر ، والله أعلم .

وفي خبر : أن الخضر قال لمُوسَى : يا مُوسَى ، إنك على عِلم من عِلم الله ، عِلمك لا أعلمه ، وإني على عِلم من عِلم الله ، علِمته ولا تعلمه ؛ تعالى الله (عز وجل) علواً كبيراً .

فصل في المعرفة

المعرفة ضد الإنكار ، كما أن العِلم ضد الجهل ؛ يُقال : عرف الشيء وأنكره ؛ وقال الكميت :

مُنكرات بأنفس عارفاتٍ بعيون هوامل التسجام

فجعل المعرفة ضد الإنكار ؛ قال جرير :

عرفنا جعفراً وبني كلاب (١) وأنكرنا زعانف أخرينا

فجعل المعرفة ضد الإنكار ؛ والمعرفة والعِلم شكلان ؛ ومن الناس من يجعل الإنكار ضد الإقرار ، وهو خطأ ، لأن الإقرار ضد الجحد .

ويُقال : أقر فلان بحقي ، وجحدني حقي ؛ كما يُقال : إعترف به وأنكره ؛ والفرق بين الإنكار والجحد ، أن الإنكار يكون بالشيء الذي يشتبه عليه ، فلا يعرف حقه من باطله ؛ ويُقال : أنكره إذا جحده ، لإشباهه وقلة توجهه إليه ، ومعرفته به ؛ والجحود يكون دفع الشيء على بصيرة ، وعِلم عياناً ؛ قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ (٢) ، فجعل الجاحد على معرفة ويقين ؛ وقال محمد بن مداد :

إن الجحود دفاع حق أنت منه على بصيره
كجحود معرفة النبي من اليهود خلا السريره

---

(١) في نسخة أخرى : وبني عبيد .
(٢) سورة النمل : ١٤ .

ويُقال : رجل عارف بالشي ، وله معرفة بالأمر ، إذا كان يميز من ضده وخلافه ، بالمُشاهدة والمُعاينة .

ويُقال : المعرفة جبلة من الخلق ، والعِلم بالإكتساب والتعليم ، ومن أجل ذلك إشتركت البهائم وسائر الحيوان مع الناس في المعرفة ، وخص الناس بالعِلم من دون البهائم .

ويُقال : أن البهائم سُّميت بهائم ، لأنها أبهمت عن كل شيء ، إلاَّ عن معرفة الله (عَزَّوَجَلَّ) ، فالإنسان يعرف ويعلم ، والبهيمة تعرف ولا تعلم ، لأن الإنسان يكتسب العِلم ، والبهائم لا إكتساب لها ، وإنما صار الإنسان إنساناً ، مُثاباً مُعاقباً لإكتسابه وإختياره الخير والشر ، وعِلمه بذلك ؛ والبهيمة لا ثواب لها ، ولا عقاب عليها ، لأن المعرفة جبلة فيها وليست باكتساب .

قال : وسأل العَالِم رجلاً ، فقال : أتعرف أم تعلم ؟ قال : بل أعرف ؛ فقال : إن البهيمة لتعرف ، ولو علمت ما كانت بهيمة ، والبهيمة بمعرفتها تميز بين الضار والنافع لها في أمر معاشها ، وتتقي المهالك ، وتألف من ينفعها ، وتفر ممن يؤذيها ويضرها ، كالشاة تألف الكلب ، وتفر من الذئب ، وتميز بينهما ؛ وكالطير يألف اللواقط والبغاث ، ويفر من الجوارح ، وهذا من جهة المعرفة .

قال : وإنما صار الإنسان يعرف ويعلم ، لإجتماع النفس المنطقية والبهيمية فيه ، وهما جوهران قابلان للعِلم والمعرفة ، والنفس البهيمية تقبل المعرفة وتأبى العِلم ، والبهيمة تعرف الشاهد ؛ وتعجز عن الغائب ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

وما يعهد الأشياء إلاّ الإنسان وذاك منه لصفا الأذهان
وفي البهيمات حظور العرفان ليس لها عهد بماضي الأزمان

ويُقال : عرفت الشيء معرفة ، عرفاناً ؛ قال عمران بن حطان :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى عرفت لدين الله عرفانا

وقال محمد بن مداد في ذلك :

والحمد لله هادينا لملته ويرحم الله عمران بن حطانا

والعارف : الصابر ؛ ورجل عروف : صبور ؛ وفي المثل : النفس عروف ما حملتها إحتملت ؛ قال النابغة :

على عارفات للطعان عوابس بهن كلوم بين دام وخالب

والعَرْف : الريح الطيبة ؛ قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ ويدخلهم الجنة

عرفها لهم ﴾ [1] ؛ قال عُدي بن زيد :

أبصرت عيني عشاءً ضوء نــار   من سناها عَرًّف هندي وغـار

وكـأن المعرفـة أخـذت مـن الطيـب والصبر ، لأن الـذي يمـيز الشيء ويعرفه ، يطيب لـه التمـيز ، فيختـار الخـير ، ويسـتطيبه ، ويقبله ، ويصبر عليه ؛ والمعرفة بالشـيء : هـي المُشـاهدة التـي تزيل الشك والمرية ، وهي التميز بين الشيئين .

ومن أجـل ذلـك ، قـال أهـل العربيـة : المعرفـة إسـم ، إذا كـان مخلصاً لا يحتاج إلى علامة تفرق بينه وبين نظيره ، كقولك : زيد وعمرو ؛ والنكرة التي تحتاج إلى معرفة ، والعلامة تعـرف بـها ، حتى تصير معرفة ، كقولك : رجـل ، ولا تـدري أي الرجـال هـو ، وقـولك : غـلام ، ولا تـدري أي الغلمان هـو ، حتى تعرفـه بالألف واللام ، فإذا قلت : الرجل ، فقد دللت على رجل بعينـه ، فإذا قلت : غلام زيد ، فقد عرفته بالإضافة ولخصته .

ثم إشتقوا من المعرفة : المعـروف ؛ ومـن النكـرة : المُنكـر ؛ فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هو الأخذ بـالأمر فيـه ، ولا شك فيه من أمر الدِّين ، فهو المعرفة ، لا يحتاج إلى علامة يُعرف

---

(1) سورة محمـد : ٦ .

بها ؛ والنهي عن المنكر : هو النهي عن التقحم في المجهولات والشبهات ، التي لا تعرف حقها من باطلها ؛ والمعروف والعرف لغتان ؛ قال النابغة :

أبى الله إلاّ عدله ووفاءه فلا النكر معروف ولا العرف ضائع

يُقال : نُكُرٌ ، ونُكْرٌ ؛ قال (عز وجل) : ﴿ يوم يَدعُ الداعِ إلى شيء نُكُر ﴾ [1] ، ومعناه : مُنكر ؛ ويُقال : أنكرت الشيء ونكرته ؛ قال (عز وجل) : ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ﴾ [2] ؛ وقال الأعشي - وأتى باللغتين جميعاً - :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلاّ الشيب والصلعا

ويُقال : أنكرت الشيء ، فهو : مُنكر ، ونكير ، ومنه الملكان .

فصل آخر في العِلم

قيل : حد العِلم درك المعلوم ما هو به ؛ وقيل : إعتقاد الشيء على ما هو به من ثقة ؛ وقيل : العِلم إدراك الحق .

والعِلم ضربان : ضروري وحده ما لا سُلطان للشك فيه ،

(١) سورة القمر : ٦ .
(٢) سورة هود : ٧٠ .

ومُجتلب وحده ما يجوز أن يخامر المُعتقد في إعتقاده شك ، غير أنه تزيله البراهين الباصرة ، والأدلة القاهرة .

وسُميّ العِلم عِلماً : لأنه علامة يهتدي بها العَالِم إلى ما قد جهله الناس ، وهو بمنزلة العلم المنصوب على الطريق ، والمنار المنصوب على الحدود .

فالعِلم ، والعَلم ، والعَلاَمة : إشتقاقه من لفظ واحد ، فصار العِلم للإنسان بمنزلة العَلامة ، يفرق بينه وبين الجاهل ؛ والعلامة ، والعلم ، والمعلم ، الذي ما جعلته علماً للشيء ، والمعلم : موضع العلامة ، ويقرئ : ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ [1] ، تعلم به الساعة ؛ والعَلم : الراية التي إليها مُجتمع الناس والجبل ؛ والعِلم : الجبل الطويل ، وهي الأعلام ؛ قال الله تعالى : ﴿ وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام ﴾ [2] ؛ قال : الجواري : السفن ؛ والمُنشئات : شراعها ؛ والأعلام : الجبال ؛ قال الفرزدق :

قال ابن صانعة الزروب لقومه لا أستطيع رواسي الأعلام

وواحد الأعلام من الجبال : علم ؛ قالت الخنساء :

---

(١) سورة الزخرف : ٦١ .
(٢) سورة الرحمن : ٢٤ .

وإن صخراً لتأتم الهداة بـه كـأنـه علـم فـي رأسـه نـار

ويُقال : علم الرجل ، يعلم علماً ؛ ورجل عليم وعالم ؛ قال الله (عزّ وجلّ) : ﴿ إني حفيظ عليم ﴾ (١) .

وعن قسامة بن زهير ، قال : أوحى الله إلى إبراهيم (عليه السلام) : إني عليم أحب كل عليم ؛ والله العليم ، والعالم ، والعـلام ؛ ورجـل علاَّمة (أدخلوا الهاء للتأكيد) .

وقولهم : أنا قتلته علماً ، يُريد بذلك المُبالغة ؛ ومنـه قولـهم : قتل أرضاً عالمها ؛ وقتلت أرض جاهلها ، أي : بالغ في علمـها .

ويُقـال : قـتـل أرضـاً عالمهـا وخابرهـا ؛ والخابـر : المُـخـتـبر المجرب ؛ والخبير : العالم بالأمر ، والخبرة : الإختبـار ؛ قـال الله (عزّ وجلّ) : ﴿ فسأل به خبيرا ﴾ (٢) ؛ وقال مُوسَى بن ربعي الأسدي :

وقومي إن لقيـت فسائليهم كفى قومـاً بصاحبهم خبـيرا

نصب [قومـاً] بوقـوع الفعـل عليـهم ؛ ونصـب [خبـيرا] بالتفسير ، معناه : كفى قوماً صاحبهم .

(١) سورة يـوسـف : ٥٥ .
(٢) سورة الفرقـان : ٥٩ .

وقيل في قول الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ وما قتلوه يقينا ﴾ [1] ؛ يقول : ما قتلوا ظنهم يقيناً ؛ ويقول : أعلمته إعلاماً ، إذا أشعرته شيئاً يجهله .

ومنهم من يقول : شعرته ، أي : عقلته ؛ ومنه قولهم : ليت شعري ، أي : ليت عِلمي ؛ والشاعر سُميَّ شاعراً : لفطنته من قولهم : ما شعرت بهذا ، أي : ما فطنت ؛ وما يشعرك ، أي : ما يدريك ؛ قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ [2] ؛ قال أبو طالب :

ليت شعري مسافرين أبي عمرو وليت شعري يقولها المحزون

نصب [مسافرين] ، بـ [شعري] ، أي : ليتني علمت مسافرين عمرو وأين ذهب .

وجمع شاعر : شعراء ؛ قال عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

معناه : هل ترك الشعراء من متردم ، أي : شيئاً إلاّ وقد قالوا فيه ، فكفوك المؤونه ؛ وقال آخر :

---

(١) سورة النساء : ١٥٧ .
(٢) سورة الأنعام : ١٠٩ .

ليت شعري إذا القيامة قامت   ودُعيَّ للحساب أين المصيرا

أراد : ليت شعري المصيرا ، أي : ليتني علمت المصير أين هو ؟

ويُقال : فقه الرجل ، تفقه فقهاً ، فهو : فقيه ؛ وقد فقه تفقه فقهاً : إذا فهم ؛ وأفقهت له ، أي : بينت له ؛ والتفقه : تعلم الفقه ؛ والفقه : العِلم في الدِّين ؛ والفقه في كلام العرب : الفطنة .

سأل أعرابي قح ، يُونس بن حبيب النحوي ، عن مسألة ، فأجابه بجواب ، أعجب به الأعرابي ، فقال : شهدت لك بالفقه ، أي : بالفطنة ؛ وسُميّ الفقيه فقيهاً : لإحاطة فطنته بأسباب الحلال والحرام .

ويُقال : فقهت الشيء : إذا علمته ؛ وفقهت : إذا صرت فقيهاً ؛ ولا يُقال : فقهت الشيء ، لأنه فعل لا يتعدى ، ومثله : قريب منك وقريبك .

والفقه إسم مدح ، ولا يستحقه من لم يكن فقيهاً ، ويجوز أن يُسمى من علم شيئاً من الفقه فقيهاً ، بمعنى : أن كل من علم شيئاً فقد فقه ، وهو فقيه به ، أي : قد علمه ، فهو عليم به .

وعن ليث بن مجاهد ، قال : الفقيه من يخاف الله تعالى .

وعن مجاهد ، في قول الله (عز وجل) : ﴿ إن إبراهم لأواه حليم ﴾ (١) ، قال : الأواه : الفقيه .

فصل

وعن أبي هُريرة ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " العِلم خليل المُؤمن ، والحلم وزيره ، والعقل دليله ، والدِّين أخوه ، والرفق والده ، والعمل قيمه ، والصبر أمير جنوده " .

وعن بعض العُلماء ، أنه قال : العِلم ذو مفاصل كثيره : فرأسه : التواضع ؛ وعينه : البراءة من الحسد ؛ وأذنه : الفهم ؛ ولسانه : الصدق ؛ وفهمه : الفحص ؛ وقلبه : حسن النية ؛ وعقله : سعة المعرفة ؛ ويده : الرحمة ؛ ورجله : زيارة العُلماء ؛ وهمته : السلامة ؛ وحكمته : الورع ؛ ومُستقره : سعة الرأي ؛ ومحله : الإناءة ؛ وسُلطانه : العدل ؛ ومملكته : القناعة ؛ وريشه : النجاة ؛ وقائده : العافية ؛ ومركبه : الوفاء ؛ وسلاحه : لين الكلام ؛ وسيفه : الرجاء ؛ وقوسه : القناعة ؛ وسهمه : المحبة ؛ ورمحه : التقوى ؛ وفرسه : المداراة ؛ وجيشه : المشورة ؛

---

(١) سورة التوبة : ١١٤ .

وماله : الأدب ؛ وحربه : المُكايدة ؛ وذخيرته : التوبة ؛ وزاده : المعروف ؛ ومأواه : المُوادعه ؛ ودليله : الهُدى ؛ ورفيقه : مودة الأخيار .

وقال غيره : العِلم أنثى ، وما يُستفاد من العِلم ذكر ، وفي لقاحهما المعرفة ، وأبُوهما المُدارسة ، وأمهما التواضع ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

إعلم أخي إن كُنت من أهل النظر ... واسمع أخي وافهم مقالي واعتبر
العِلم أنثى والذي نلت ذكر ... والدرس أب ولقاحه الفكر
والعِلم يُؤتى بالتقى لا بالسجر ... من كان لم يتقي فعلمه هدر
قد قال هذا قائل فيما غبر

الباب الثالث :
في الحكمة

قال الله (عز وجل) : ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ﴾ [1] .

وقال ابن الأنباري : الحكمة إسم العقل ؛ وجمعها : حكم ؛ واختلف في تفسيرها .

فقال ابن عباس : الحكمة : القرآن ، والفقه ، والعِلم ؛ وقال - أيضاً - : المعرفة بالقرآن ، ناسخه ، ومنسوخه ، ومُتشابهه ، ومُحكمه ، ومُقدمه ، ومُؤخره ، وحلاله ، وحرامه ، وأمثاله ؛ وقال محمد بن مداد :

جماع الحكمة القرآن	والفقه مع العِلم
ومعرفة الحلال من الحرام	وجودة الفهم
وإتيان التقى	ومُجانبة الزيغ والإثم
فتلك الحكمة الغراء	يؤتاها أولوا الحكم

وعنه : في قصة داود (عليه السلام) : ﴿ وأتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ [2] ، قال : النبوة ؛ ﴿ وفصل الخطاب ﴾ ، يقول : القضاء

(١) سورة البقرة : ٢٦٩ .
(٢) سورة ص : ٢٠ .

بين الناس ، لا يتلبث في قضائه ، ولا يتتعتع .

وعنه : في قصة النبي (ﷺ) : ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾(١) ؛ قال : ﴿ الكِتاب ﴾ : القرآن ؛ ﴿ والحكمة ﴾ : العِلم والسُنن .

وفي قصة عيسى (عليه السلام) : ﴿ ولما جاء عيسى بالبينات ﴾(٢) ؛ يقول : بالآيات : ﴿ قال قد جئتكم بالحكمة ﴾(٢) ، يقول : بالنبوة ؛ ويُقال : الحكمة : النبوة ؛ وقيل : السُنة ؛ وقيل : الحكمة : الصواب ؛ والكتاب : يُؤتي إصابته من يشاء .

وقال النقاش : يُقال : أنها حفظ القرآن ومعانيه ؛ ويُقال : الفقه ومعرفة الأمور التي أمر الله (عز وجل) بها ، ونهى عنها ؛ وجماع [الحكمة] : الرد إلى الصواب ؛ وحكمة الدابة ـ من ذلك ـ : لأنها ترد الدابة إلى القصد .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " ما أنفق مُنفق ، ولا تصدق مُتصدق ، بأفضل من كلام الحكمة ، إذا تكلم به الحكِيم والعَالِم ، فنال كل مُستمع منه منفعة " .

---

(١) سورة البقرة : ١٢٩ ، ١٥١ ؛ سورة آل عمران : ١٦٤ ؛ سورة الجُمعة : ٢ .
(٢) سورة الزخرف : ٦٣ .

وعن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : " لا حسد إلاَّ في إثنتين : رجل آتاه الله مالاً ، فسلطه على هلكته في الحق ؛ ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضي بها ويُعلمها " ؛ وقال محمد بن مداد :

لا تغبطن سوى تقي عَالِمِ فاق الأنام بحكمة وبيان
أو ذا غنى واسى الفقير بماله ليكون جُلّ غناه في الميزان

وفي خبر آخر : " آتاه الله عِلماً ، فهو يقضي به ويُعلمه " ؛ وقيل : معنى ذلك : الحسد لا يجب أن يكون في شيء من الأشياء ، ولو كان واجباً ، لكان في هذين ، والله أعلم .

وظاهر الخبر يقتضي غير هذا التفسير ، والله أعلم .

وعن الحسن : في قول الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ [1] ؛ قال : الحسد .

وعن أنس بن مالك ، قال : قال النبي (ﷺ) : " الحكمة تزيد الشريف شرفاً ، وترفع العبد المملوك ، حتى تجلسه مجالس الملوك " .

---

(١) سورة الحشر : ٩ .

وقيل : في قول الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ ولقد أتينا لقمان الحكمة ﴾ (١) ، قال : الفقه ، والعِلم ، والإصابة ، وذلك في غير نبوة .

وعن عيسى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) ، قال : لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم .

ويُقال : من أعطى الحكمة غير أهلها ، خاصمته الحكمة إلى ربها .

وقال بعض الحُكماء : لا تحدث بالحكمة السُفهاء فيكذبوك ، ولا تحدث بالباطل عند الحُكماء فيمقتوك ؛ وقال محمد بن مداد :

لا تحدث بالحكمة سُفهاء ... ولا تمنعها العُلماء
فيظن الجهول قولك كذباً ... ويظن العليم فيك جفاء

وعن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، أنه قال : " الكلمة من الحكمة ، يسمعها الرجل فيعمل بها ، أو يُعلمها ، خير له من عبادة ألف سنة " .

وعن أبو هُريرة ، قال : قالت الحكمة : من طلبني فلم يجدني فليعمل بأحسن ما يعلم ، ويدع عنه أقبح ما يعلم ، فإذا كان كذلك ، أتيته وإن لم يعرفني ؛ وقال محمد بن مداد :

---

(١) سورة لقمان : ١٢ .

قالت الحكمة إني عند من يعمل بي
لست أوتى ذا شقاء ضاحكاً يلعب بي
ذاك ما نال سوى المقت وعظم التعب

وقيل : الحكمة ضالت المُؤمن ، يأخذها حيث وجدها ، فإن الضالة لا تترك واجدها ، كالدرة لا يضعها بعض مخرجها .

وقال معاوية : الفرصة خلسة ، والحياء يمنع الرزق ، والهيبة خيبة ، والحكمة ضالة المُؤمن ، فليطلبها ولو من عند مُشرك .

وكان أنوشروان يقول : القلوب تحتاج إلى أقواتها من الحكمة ، كما تحتاج الأبدان إلى أقواتها من الغذاء ؛ وقال لأصحابه : إجمعوا إليَّ العِلم ، فجمعوه في أربعة أوقار ، فقال : هذا كبير ، فاختصروه في أربعة كُتب ، فقال : إختصروه ، فاختصروه في خمس كلمات ؛ والكلمات هي : الملك : لا يصلحه إلاَّ الطاعة ؛ والرعية : لا يصلحها إلاَّ العدل فيها ؛ والمال : لا يُصلحه إلاَّ حُسن التدبير ؛ والطعام : لا يؤكل إلاَّ على الشهوة ؛ والمرأة : لا يصلحها أن تنظر إلى غير زوجها .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " إعلموا أن كلمة الحكمة

ضالة المُؤمن ، فعليكم بالعِلم قبل أن يُرفع ، ورفعه أن يذهب رواته " ؛ وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " إذا رأيت قلبك ينكر شيئاً ، فاعلم أن الحكمة فيه " .

وعن عليّ ، أنه قال : خُذ الحكمة أين أتتك ـ أي : كيف أتتك ـ فإن الكلمة من الحكمة ، تكون في صدر المُنافق ، فتلجلج حتى تسكن إلى صاحبها .

ويُقال : أن الحكمة قد يعلمها المُنافق ، فلا تزال تتحرك في صدره ، فلا تسكن حتى يسمعها المُؤمن ، أو العَالِم ، فتسكن في صدره إلى إخواتها من كلام الحكمة ؛ قال محمد بن مداد :

وهذه الحكمة وحشية محبُوسة في صدر أهل النفاق
حتى إذا صارت إلى مُؤمن قرت وما أقطرت لطيب الوفاق

يُقال : أقطرت الناقة إقطراراً ، إذا ضربت بذنبها على رحمها ، أقمطرت إقمطراراً .

قال غيره : نور الحكمة يتوقد في قلوب الحُكماء ، فهم يستضيئون به في أعمالهم ، كما يستضيء الناس في دُجا الليل بنور المصابيح ؛ قال محمد بن مداد في ذلك :

إنمـــا الحكمـــة نـــور | فـــي قلـــوب الحُكمـــاء
مثل ما يجعل فـي البيت | ســــــراجاً للضيــــــاء
وإذا شـــايعها الصـــبر | علـــى مـــر القضـــاء
والتقـــى لاحـــت كمـــا لاح | ضيـــاء مـــن ذكـــاء
فاقتـن الحكمـة فـي قلبـك | مـــن كـــل وعـــاء
واجعـل الصـبر دليـلاً | تنـــج مـــن كـــل بـــلاء
إنمـــا الحكمـــة تؤتـــى | مـــن صـــدور العُلمـــاء
وإذا مـــا الـــداءُ أعيـــاك | فعجـــــل بـــــالدواء
وأرى العِلـــم شـــفاءً | للفتـــى مـــن كـــل داء
وأرى الجهل على ذي الشيب | كـالـــداء العـــيـــاء

قال الخليل : الحكمة مرجعـها إلـى العقـل ، والعِلـم ، والحلـم ؛ ويُقال للرجل ، إذا كان حكيماً حليماً : قد أحكمته التجارب .

قال أفلاطون : قوة العقل الحكمة ، كما أن قوة الجسد الطعام ، فتمُوت الحكمة بموت العقل ، كمـا يمـوت الطعـام بمـوت الجسـد ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

أنت إن كُنت ذا بيـان وعقـل | وتقـى زائـن دعيـت حكيمـا
وأرى عَالِما يروم المعاصي | مثل ذي علـة يداوي سقيما

وسُميّ الحكيم حكيماً ، لأن عِلمه ، وسداد رأيه ، وفضل صوابه ، يمنعه من الخطأ ؛ ويُقال : أحكمت الشيء ، إذا منعته ورددته ؛ قال جرير :

أبني حنيفة أحكموا سُفهائكم   إني أخاف عليكم أن أغضبا

وقال الحكيم : كان يُقال : الناس في الحكمة أربعة : فسامع غير واع ، فذلك كالرأس الحليق والماء ؛ قال محمد بن مداد في ذلك :

إن من يسمع منا ثم لم   يع ما قلنا له غير خليق
يدرج العِلم على ذي قلبٍ   كاندراج الماء في الرأس الحليق

وسامع واع غير مُؤد ، فذلك كالقارورة والكرسف ، أدخلتها فيها فقبلته ، وكبيتها فلم تخرج ؛ وقال محمد بن مداد :

فلا تك كالقارور يمنع فضله   فلم يُؤت فضل العِلم من هو مانع

وسامع واع مُضيع ، فذلك كالقابض على الماء ؛ وقال محمد بن مداد :

فذا سامع للعِلم راح مُضيعاً   رويدك فاعلم إن عِلمك ضايع
فإنك والعِلم المُضاع كقابض   على الماء لم تجمع عليه الأصابع

وسـامع واعٍ مـُؤد ، فذلـك كالشـمس إكتسـت النـور وأضــاءت للعِباد ؛ وقال محمد بن مداد :

وَكُن عَالِماً كالشمس أضحت ونورها   على كل آفاق البسيطة ساطع

ويُقال : من عُرف بالحكمة ، لحظته العيون بالوقــار ؛ وسـمى الأعشى القصيدة المُحكمة : حكيمة ؛ وقال الأعشى :

وحكيمة تأتي الملوك غريبة   قد قلتها ليُقال من ذا قالها

الباب الرابع :
في مدح العِلم وتفضيله

الدليل على فضيلة العِلـم : قـول الله (عز وجل) : ﴿ يـا أدم أنبئـهم بأسمائـهم ﴾ [1] ، فأظهر فضلـه بعلمـه بالأشيـاء ؛ وقولـه (سبحانه وتعالى) : ﴿ إن الله إصطفـاه عليكـم وزاده بسـطة فـي العلـم والجسـم ﴾ [2] ، والبسطة : الفضيلـة مـن الرجـل علـى غـيره ، ﴿ فـي العِلـم والجسم ﴾ ؛ وقرئ : ﴿ بصطة ﴾ (بالصاد) .

وقـال (جل جلاله) : ﴿ هـو الـذي بعـث فـي الأميـين رسـولا منـهم يتلوا عليهم آياته ويزكيـهم ويعلمـهم الكتـاب والحكمـة وإن كـانوا من قبل لفي ضلال مبيـن * وأخريـن منـهم لمـا يلحقـوا بـهم وهـو العزيز الحكيم * ذلـك فضـل الله يؤتيـه مـن يشـاء والله ذو الفضـل العظيم ﴾ [3] ؛ وقولـه (عز وجل) : ﴿ وعلمـك مـا لـم تكـن تعلـم وكـان فضل الله عليك عظيما ﴾ [4] ؛ وقولــه (جل جلاله) : ﴿ ولقـد أتينـا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنـا علـى كثـير مـن عبـاده المـؤمنين ﴾ [5] ؛ وقولـه (عز وجل) : ﴿ ولـقـد أتـينا لقمان الحكمة أن

---

(١) سورة البقـرة : ٣٣ .
(٢) سورة البقـرة : ٢٤٧ .
(٣) سورة الجُمعـة : ٢ ـ ٤ .
(٤) سورة النسـاء : ١١٣ .
(٥) سورة النمـل : ١٥ .

اشكر لله ﴾ [1] ؛ وقوله (عز وجل) في قصة عيسى (عليه السلام) : ﴿ اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ [2] .

فهذه الآيات وغيرها ، في مواضع كثيرة ، دلالة على فضيلة العِلم .

قال عبد الله بن المُبارك : خُيرَّ سُليمان (عليه السلام) بين العِلم والمال ، فاختار العِلم ، فأعطاه [3] الله (سبحانه وتعالى) : المُلك ، والعِلم ، والمال ، باختياره (عليه السلام) العِلم .

وعن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، أنه قال : " كنوز العِلم تبقى ، وكنوز المال تفنى " ، فأخذه الشاعر ، فقال :

تفنى الكنوز على الزمان وصرفه   والعِلم يبقى بباقيات الأعصر

وقال محمد بن مداد في ذلك :

العِلم نعم ذخيرة المُستذخر   والعِلم أنفع من كنوز الجوهر
تفنى الكنوز على السنين ببذلها   والعِلم يمكث باقيات الأدهر

---

(1) سورة لقمان : ١٢ .
(2) سورة المائدة : ١١٠ .
(3) في نسخة أخرى : فآتاه .

والعِلم لا تخشى عليه سارقاً   وتضمه في القلب بعد الدفتر
والكنز تغزوه الحوائج كلـها   وعليه جُلُ حسابه في المحشر
والعِلم فيه صيانـة وديانــة   وأمانة ورزانة في المحضر
والعِلم تبذلـه ويعفوا دائمـاً   والعِلم يعلوا فوق كل مُؤمر
يكسي العليم مهابـة وجلالـة   مـن عِلمه لا مـن كنوز الأنضر

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " إذا إسترذل الله عبداً ، حظر عليه العِلم " ؛ وقال : " من حجب الله عليه العِلم ، عذبه على الجهل ، وأشد منه عذاباً ، من أقبل عليه العِلم ، فأدبر عنه " ؛ وقال محمد بن مداد :

من حجب الله عليه عِلمه   عذبه بالجهل في جهنما
ومن أراد أن يُبحه حمى جنته   قدمه بالعِلم فاستقدما
بالعِلم صار العُلماء أنجماً   والجهل يكسوا الجاهلين حمما
الجهل يُؤتي أهله تندماً   والعِلم يُؤتي أهله تفهما

ومن أهدى الله إليه عِلماً ، فلم يعمل به ، فقد إستخف بهدية الله تعالى .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : من آتاه الله عِلماً فلا يحقرنه ، فإن الله لم يحقره حين عِلمه " .

وعن الحسن : حسبك من العِلم أن تخشى الله ، وحسبك من الجهل أن تعجب بعقلك ؛ وقال محمد بن مداد :

حسبك بالفتى عِلماً إذا خشي العليما
وحسبك بالفتى جهلاً ومنقصة ولوما
وزاد بعِلمه ذلاً وإن أمسى عظيما
وإن أمسى على أعداء نعمته زعيما
إذا ما كان بعد العِلم جباراً أثيما
فبالكبر إنتهى إبليس شيطاناً رجيما
فعش في عزة العِلم ذليلاً لا ذميما
ينلك الله منزلة تبلغك النجوما

وله - أيضاً - :

الجهل مُشتق من المجاهل والعِلم يعلوا ذروة المنازل

قال أبو عبد الله (رحمه الله) : لم يُؤتِ الله العباد مثل العِلم بعد النبوة .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " ما عُبدَ الله بشيء أفضل من العِلم والفقه " ؛ وفي خبر : " أفضل من الفقه " ؛ وفي خبر آخر : " أفضل من الفقه والعِلم في الدِّين " ؛ وقال محمد بن مداد

في ذلك :

تعلم العِلم فإن الهُدى — والنور والحكمة في العِلم
فإنه يُنجيك من سورة — الجهل ويحميك من الظلم
كم جاهل صيره جهله — حيران بين الجهل والإثم
حتى تمنى أمه أنها — كانت كضراء من العُقم
أما ترى العَالِم في عِلمه — يهدي إلى الخيرات كالنجم
وما ذوو الجهل ولو خولوا — دثراً من الأموال كالدهم
إلاّ كمثل الزط في كسبهم — والغُلف والحُبشان والغتم
إحضارهم أشباه غيابهم — ووجدهم في الناس كالعدم
وإنما هم شجر نابت — كالسرو أو كالأثاب العسم
يقول من رام بهم نجدة — يا عم لا قدست من عم
أما إذا أنت فاكرتهم — فيما خلا والخضم القضم
جاوك أهتاراً يدهدأ بهم — كالسيل ذي الطم وذي الرم
فعش فريداً واحداً عنهم — وطر مع العُقبان والعصم
ما وجد الناس إلى ربهم — وسيلة أقرب من عِلم
يهديهم سُبل طريق الهُدى — حقاً وينهاهم عن الظلم

" ولفقيه واحد ، أشد على الشيطان من ألف عابد " ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

أرى فقهاء العصر نور المساجد وإن أصبحوا إتكى على كل مارد
وإن فقيهاً واحداً من قضاتنا أشد على الشيطان من ألف عابد

" ولكل شيء دعامة ، ودعامة هذا الدِّين الفقه " ؛ والدعامة : إسم للشيء الذي يدعم به ؛ والمدعُوم : الذي يميل فيُريد أن يقع ، فيدعمه ليستقيم ، أو يستمسك .

ويُقال : إرض بالقليل من الدُّنيا ، مع الكثير من العِلم ، ولا ترض بالكثير من الدُّنيا ، مع القليل من العِلم .

وقيل : قد جاء أن الله (عَزَّوَجَلَّ) يعطي الدُّنيا من يُحب ، ومن لا يُحب ، ولا يعطي الآخرة [1] إلاَّ من يُحب .

وسأل رجل النبي (ﷺ) ، فقال : يا رسول الله ، أي الأعمال أفضل ؟ قال (ﷺ) : " العِلم " ، فقال الرجل : يا رسول الله ، أسألك عن العمل ، وتقول العِلم ؟ فقال رسول الله (ﷺ) : " إن قليل العمل عند العِلم ، خير من كثير العمل بلا عِلم " .

وعن أثله بن الأسفع ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " المُتعبد بلا عِلم ، كالحمار في الطاحونة " .

وعن ابن عنبسه ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " ما وصلت

(١) في نسخة أخرى : العلم .

إلى العباد نعمه أعظم من العِلم بالله ، والعمل بأمر الله " .

وقال أبو الأسود الدؤلي : ليس شيء أعز من العِلم ، الملوك حُكام على الناس ، والعِلم حاكم على الملوك .

وقال الزهري : كل رئاسة تكون بمعنى من المعاني ، تزول بزوال ذلك المعنى ، وإذا كانت بالعِلم ، لم تزول إلاّ بزوال صاحبها .

وقال عمرو بن دينار : العِلم أشرف الأحساب ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

قد رأينا في بطن كل كِتاب عن رواة الحديث والأصحاب
أنهم أجمعوا جميعاً وقالوا حسب العِلم أرفع الأحساب

قال عليّ بن أبي طالب : قيمة كل إنسان ما يُحسن ؛ وقال الخليل :

قال عليّ بن أبي طالب وهو اللبيب الفطن المُتقن
كل إمرئٍ قيمته عندنا وعند أهل العِلم ما يُحسن

قال عليّ بن أبي طالب :

أيها الفاخر جهلاً بالنسب إنما الناس لأم ولأب

أتراهـم خلقـوا مـن فضـةٍ		أم نحاسٍ أم رصـاصٍ أم ذهب
فـترى فضلـهم فـي خلقـهم		هل سوى مُخ وعظـمٍ وعصب
إنمـا الفخـر بعقـل راجـح		وبعِلـم وبدِّيـن وأدب
قل لمن فاخر في الناس به		فـاز مـن فـاخر منهم وغلب

وقيل : قيمة كل إمرئ ، ما يبديه من العُلوم ؛ وقال محمـد بـن مداد في ذلك :

قيمـة الإنسـان مـا يُحسـنه		من صنيع فاكتسب حُسن الصنيع
وكفاك العِلم زيناً فـي المـلا		ليس قولي لك هـذا بـالبديع
فهو ممدوحٌ على كل لسان		وهو يُعلي نسبا كل وضيع
وهو نـور وهـو للفقر غنى		وهـو للغاني كـتاج بـرصيع

وقيل : النـاس أعداء لما جـهلوا ، وأبنـاء لمـا عَلِمـوا ؛ ولابـن طباطبا العلوي :

حسود مريض القلب يخفي أنينه		ويضحى كئيب البال عندي حزينـه
يلوم على أن رحت في العِلم راغباً		أجمع من عند الرواة فنونه
وأعرف أبكار الكلام وعونه		وأحفظ مما أستفيد عيونـه
ويزعم أن العِلم لا يجلب الغنى		ويُحسن بالجهل الذميم ظنونـه
فيـا لائمي دعني أغالي بقيمتي		فقيمة كل الناس ما يحسنونه

وقال عليّ بن أبي طالب : كفى بالعِلم شرفاً ، أن كل أحد يدعيه ، وإن لم يكن من أهله ، وكفى بالجهل خزياً ، أن كل أحد يتبرأ منه ، وإن كان به موسُوماً ؛ وقال محمد بن مداد :

وكفى بالعِلم عِزاً أن كُلاً يدعيه وكفى بالجهل شُؤماً أن كُلاً ينتفيه

وقال أزدشير : حسبكم دلالة على فضيلة العِلم ، أنه ممدوح بكل لسان ، يتزين به غير أهله ، ويدعونه ما خفي لهم إدعاؤه ، وحسبكم دلالة على الجهل ، أن كُلاً ينتفي منه ، ويغضب أن يُسمى به .

وقال أبو المُؤثر : بالعِلم يُطاع الله ، وبالجهل يُعصى الله ، ومن فضل العِلم على كل من أراده العباد ، أن الله (عَزَّ وَجَلَّ) ، إنما خلق الخلائق بعِلمه ، ودبر الأشياء بحُكمه ، وأنه إبتدأ الأشياء ، ومصيرها إلى حُكمه ، ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (١) .

فصل

قيل لبعض الحُكماء : لِمَ لا يجتمع المال والعِلم ؟ قال : لعز الكمال .

---

(١) سورة المُؤمنون : ١٤ .

وسُئل بعض الحُكماء : أيَّمَا أفضل ، المال أو العِلم ؟ فقال : الجواب عن هذا ، أيَّمَا أفضل ، المال أو العقل ؟ وقال صالح بن عبد القدوس :

لا خير فيمن كان خير ثنائه　　في الناس قولهم غني واجد

وقال عليّ بن أبي طالب : العِلم خير من المال ، العِلم يحرسك ، وأنت تحرس المال ؛ والعِلم حاكم ، والمال محكُوم عليه ، العِلم يُزكيه العمل ، والمال تنقصه النفقة ، وصنيع المال يزول بزواله ، وصُحبة العِلم دَّين يُدان به ، والعِلم يُكسبك الطاعة في حياتك ، وحُسن الأحدوثه بعد وفاتك ، مات خزان الأموال وهُم أحياء ، والعُلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وآثارهم في الناس موجودة ها أن ، ها هُنا عِلماً جماً - وأشار بيده إلى صدره - لو أصبت له حملة ، بل أصبت فتى غير مأمُون ، يستعمل آلة الدِّين للدُّنيا ، ويستظهر بحجج الله على كِتابه ، وبنعمة الله على عباده ، أو مُنقاد لأهل الحق ، لا بصيرة له ، عما قليل ينقدح الشك في قلبه ، لأول عارض من شبهة ، لا ذا ولا ذاك ، أو متهوم باللذات ، سلس القياد للشهوات ، أو مغرور بجمع المال والإدخار ، ليس من حُماة الدِّين ، أقرب شبههما الأنعام السائمة ، كذلك يموت العِلم بموت حامله ، اللهم لا تخلوا الأرض من حجة ،

إما ظاهرة بحق ، وإما خائف مقـهور ، لكـي لا تبطـل حجـج الله ، وبيناتـه علـى خلقـه ، أولئك الأقلـون عـدداً ، الأعظمـون عنـد الله خطراً ، بـهم يُظـهر الله بُرهانـه ، حتـى يـردوه إلـى نظرائـهم ، أو يزرعونه في قلوب أشباههم ، هجم العِلم بهم على حقيقـة الأمـر ، فاستلانوا بما إستوعر فيه المُترفون ، وأنسوا مما إستوحش منـه الجاهلون ، صحبوا الدُّنيا بأبدان ، أرواحها مُعلقة بالمحل الأعلى ، حتى باشروا رُوح اليقين ، أولئك خلفـاء الله فـي بـلاده ، والدُعـاة إلى دينه ، آه آه ، شوقاً إلى رؤيتهم ، وأستغفر الله لـي ولـك ، إذا شئت فقم .

وروى مُعاذ بن رفاعة بن جبل ، عن إبراهيم بن عبد الرحمـن العدوي ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : " يحمـل هـذا العِلـم ، مـن كـل خلـف عـدو لــه ، ينفـون عنــه تحريـف الغـالين ، وانتحـال المُبطلين ، وتـأويل الجـاهلين ، فحملـة العِلـم يحملونـه قـدوة عـن قدوة ، في طبق من الأمة بعد طبق " ؛ وقال محمـد بـن مـداد فـي ذلك :

العِلم أفضل من كنوز المال … والمـال ميلتـه إلــى الأنـذال
والعِلم لا تخشى عليه سارقاً … والمـال تتلفـه علــى أحـوال
لازال صاحبـه عليـه مُشـفقاً … وإذا يبيت يبت على أوجـال

والعِلم في إنفاقه بركاته لازال يربأ بالمكان العالي
والمال أكثره حساب إنما يربوا بحسبة ذا إليك وذا لي

وسُئل عليّ : عن العِلم أفضل أم المال ؟ فقال : العِلم أفضل ، قيل : فما بالنا نرى العُلماء على أبواب الأغنياء ، ولا نرى الأغنياء على أبواب العُلماء ؟ قال : ذلك لِعِلم العُلماء بفضل المال ، وجهل الأغنياء بفضل العِلم .

وقيل : سُئل بزرجمهر عن هذا ؟ فقال : لِعِلم العُلماء بالحاجة إلى المال ، وجهل أصحاب الأموال بفضيلة العِلم .

وقيل : ما مات من أحيا عِلماً .

وقال في منثور الحكم : كم من ذليل أعزه عِلمه ، وكم من عزيز أذله جهله .

وقال بعض الحُكماء : العِلم شرف لا قديم له ، والأدب مال لا خوف عليه ؛ وقال محمد بن مداد :

العِلم كنز لا تخاف عليه آفات السرق
والعِلم تنفقه فأكثر أن يُباح ويُنتفق
والمال يخشى أن ينوب عليه آخذ أو غرق

والمـــال إن بــذرتـــه قـل إجـتـمـاعـاً وامـتـحق

وله ـ أيضاً ـ :

إســـمع أخـــي أفــدك منــي نظمـــا
مـــا مـــات مـــن إذا أخـــاه علمـــا
لا تمنـــع العِلـــم أخـــاك ظلمـــا
ولا تعلـــــم الســـفيه القدمـــا
ودعـــه فـي الـجـهـل يُـعـانـي الـغـمـا

وله ـ أيضاً ـ :

من لـم يُعاني العِلم لـم يعلم ومـن يُـعادي العُلماء يُحرم

وقـال بعـض الأدبـاء : العِلـم أفضـل خلـف ، والعمـل بـه أكمـل شرف ، وليس يجهل فضل العِلم ، إلاَّ أهل الجهل ، لأن فضل العِلم يُعرف بالعِلم ، وهذا أبلـغ فـي فضلـه ، لأن فضلـه لا يُعلـم إلاَّ بـه ، فلمـا عدم الجُهال العِلـم ، الـذي بـه يتوصلـون إلـى فضـل العِلـم ، جهلوا فضله ، واسترذلوا أهله .

وقال ابن المُعتز : العَـالِم يعـرف الجـاهل ، لأنـه كـان جـاهلاً ، والجاهل لا يعرف العَالِم ، لأنه لم يكن عَالِماً ، وكذلك انصرفوا عن

العِلم وأهلــه ، إنصـراف الزاهديـن ، وانحرفـوا عنــه إنحــراف المُعاندين ، لأن من جهل شيئاً عاداه ؛ وقال ابن دريد :

جهلت فعاديت العُلوم وأهلها   كذاك يُعادي العِلم من هو جاهله

فصـل

المال ظل زائل وعارية مُسترجعة ؛ وقيل : سُمِيّ المال مـالاً ، لأنه ميال ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

المــال ظــل زائــل   وبذاك سُميّ المال مـالا
لــو أن فيــه فضيلــة   أو عنــد مَؤنتــه حــلالا
لوجـدت خـير الأنبيــاء   أجلــهم ذهبــاً ومــالا
ولـما وجـدت الكـافرين   تـمولـوا منـهـا خـلالا

ويُقال : رجل مائل : إذا كان ذا مـال ؛ وليس فـي كـثرة المـال فضيلة ، ولو كانت فضيلة ، لخص الله به من إصطفـاه لرسـالته ، واجتباه لنبوته ؛ وقد كان أكـثر أنبيـاء الله تعـالى (عليـهم السـلام) وأوليائه ، فقراء لا يجدون بلغة ، حتـى صاروا مثلاً فـي الفقـر ؛ وقال البُحتري :

فـقر كفـقر الأنبيـاء وغربـة   وصبابة ليس الـبلاء بواحـد

ولعدم الفضيلة في المال ، ما منحه الله تعالى الكافرين ، وحرمه المُؤمنين ؛ وقال الشاعر :

كم كافر بالله أمواله تزداد أضعافاً على كُفره
ومُؤمن ليس له درهم يزداد إيماناً على فقره
يا لائم الدهر وأفعاله مُشتغلاً يزري على دهره
الدهر مأمُور له آمر يُصرف الدهر إلى أمره

والمال لا يفرح به عاقل ، ولا ينتفع به جاهل ، لأنه ينبذه فيما ينبذه ، ولا يفيده - أيضاً - حمداً عاجلاً ، ولا ذخراً أجلاً ؛ وقال بعضهم :

لو كان يفرح بالأموال جامعها لكان أفرح خلق الله قارون

وقيل لبرزجمهر : ما أعجب الأشياء ؟ قال : نجح الجاهل ، وإكداء العاقل ، لكن الرزق بالجد والحظ ، لا بالعِلم والعقل ، حكمة منه تدل بها على قدرته ، وإجراء الأمور على مشيئته ؛ وقال محمد بن مداد :

ومن عجب الأشياء إنجاح جاهل أخي حمقٍ عيٍ وإكداءُ عاقل
ولكنها الأشياء تجري بحكمة على قدر من عَالِمٍ غير غافل

والإكداءُ : منع الإنسان ورده دون مطلبه .

وقيل : أن مُوسَى (عليه السلام) ، قال : يا رب لم رزقت الأحمق ؟ قال : ليعتبر العاقل أن الرزق ليس بالإحتيال .

وقد قالت الحُكماء : لو جرت الأقسام على قدر العقول ، لم تعش البهائم ؛ فنظمه أبو تمام ، فقال :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويكدى الفتى من دهره وهو عَالِم
ولو كانت الأرزاق تجري على الحجى هلكن إذا من جهلهن البهائم

وقال محمد بن مداد في مثله :

أرى الناس ما نالوا معاشاً بجهدهم ولكنهم نالوا بقدرة حاكم
ولو أنهم نالوا بتدبيرهم لقد هلكن من التدبير كل البهائم
ولكنها الأرزاق تأتي على الورى بقدرة جبار وحكمة حاكم

ولغيره :

والسبب المانع حظ العاقل هو الذي يسوق رزق الجاهل

وقال عليّ بن أبي طالب :

كم من حريص عليها لا تساعده وعاجزٍ نال دُنياه بتقصير

لم يرزقوها بعقل عندما قسمت لكنهم رزقوها بالمقادير
لو كان عن حيلة أو عن مُغالبة طار البزاة بأرزاق العصافير

وفي هذا من الأشعار ، وصحيح الأخبار ، ما لا يحصى ، وليس للإكثار منه ها هنا وجه ، فتركته .

والعِلم والعقل سعادة وإقبال ، وإن قل معهما المال ؛ والجهل والحُمق إدبار وحرمان ، وإن كثر معهما المال ، فكيف يسعد الجاهل والجهل يضعه ؟ أم كيف يشقى العَالِم والعِلم يرفعه ؟ وقال محمد بن مداد في ذلك :

العِلم والعقل للإنسان إقبال وإن يقل عليه الجاه والمال
والجهل والحُمق حرمان لصاحبه وفيه منغصة حقاً وإذلال
وكيف يُسعد من أشقى الإله وهل يشقى أمرئٌ عَالِم لله فعال

وقال الشاعر :

أنت [1] إن كُنت عَالِماً زادك العِلم علواً أو جاهلاً رفعك
إنما تفضل البهائم بالعِلم فإن كُنت عَالِماً نفعك
تنكّب الجهل ما إستطعت فإن الجهل إن كُنت جاهلاً وضعك

(١) في نسخة أخرى : أخي .

وقال محمد بن مداد ، في مثله :

يا أخي حاول العُلوم ما استطعت فإمـــا ودعتـــه ودعـــك
أنت عند الورى جليل بما حزت مـن جُملـة العُلـوم معـك
وبما تفضل البهائم والوحش بغير إحتمال عنها ما وسعك
كُن مع العِلم عاملاً فإذا ما كُنت عاملاً نفعك
وذر الجهل والسفاه فإن تصحب الجهل سادراً صرعك
لا تكُن طامعاً إلى أحد وعلى العِلم فاعتمد طمعك
إن في حفظه بلوغ مُنى وامتنع من جميع ما منعك
واتخذه أخاً مُشاورة فإذا ما أطعته رفعك

وقال آخر :

العِلم فيه مهابة وجلالة والعِلم أنفع من كنوز الجوهر
والعِلم من يُعرف به في مجلس يُكرم ويُعظم قدره ويُوقر

ويُقال : العِلم أشرف الأحساب ، والمودة أشبك الأنساب ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

إنما العِلم أشرف الأحساب والمودات أشبك الأنساب
وبلوغ المُنا طلابك للعِلم صغيراً من قبل ريع الشباب
والفراغ الذي يراع به العِلم له نهرة كمرِّ السحاب

وقال الشاعر :

العِلـم والحِلـم حِلتـا كـرم ... للمرء زين إذا هُمـا إجتمعـا
صنـوان لا يستتم حُسـنهما ... إلاَّ بجمـع لـذا وذاك معـا
كم مـن وضيـع سما بـه العِلـم ... والحِلم فنال العـلاءِ وارتفعـا
ومـن رفيـع البنـا أضاعهمـا ... أحملـه مـا أضـاع فـاتضعـا

وقال محمد بن مداد في مثله :

العِلـم والحِلـم والتقـى جمعـاً ... والزهد والصالحات والورعا
إلى جميل الخـلال مـع كـرم ... وحُسن سـمت وعيشـة نفعـا
زيـن على طالـب العُلوم ولا ... يـليـق بالجاهلـين أن يسـعـا

ولصالح بن عبد القدوس :

العِلم زين وتشريف لصاحبه ... فاطلب هُديت فنون العِلم والأدبـا
لا خير فيمن له أصـل بـلا أدب ... حتى يكون على ما زانــه حدبـا
كم حسيب أخي عـي وطمطمـةٍ ... فدَّم لدى القوم معروف إذا نسبا
في بيت مكرمة أباؤه نجـب ... كانوا الرؤوس فأضحى بعدهم ذنبا
وحامل مقرف الأباء ذي أدب ... نـال المعالي والأموال والنسبا

الحدب على الشـيء : الشـيء العـاطف عليـه ؛ والطمطمـة

والطمطمانية : العجمة ، وهي تكون فيمن لا يُفصح ، والفدم : العي عن الحجة في الكلام ؛ والقرفة : الهجنة في الأصل ؛ ويقول : هي كريمة الأصل ، لم يُخالطها شيء من الهجنة ؛ وقال الشاعر :

وأنكرت إنكار الكريم ولم أكن كفدم عبام سيل شيئاً فحمحما

العبام : الرجل الغليظ الخلقة ؛ يقول : عبم ، يعبم ، عبامة ؛ وقال ذو الرمة :

تريك سنة وجه غير مقرفة ملساء ليس لها حال ولا ندب

وقال صالح بن عبد القدوس :

العِلم كنز وذخر لا نفاذ له نعم القرين إذا ما عاقلاً صحبا
يا جامع العِلم نعم الذخر تجمعه لا تعدلن به دراً ولا ذهبا

وقال آخر :

العِلم نور به تحيا القلوب كما تحيا البلاد إذا ما جادها المطر
والعِلم يجلوا العما عن وجه صاحبه كما تجلى سواد الظلمة القمر
وليس ذو العِلم بالتقوى كجاهلها ولا البصير كأعمى ما له بصر

وقال محمد بن مداد في مثله :

العِلم في جنبات القلب مُزدهر ... له ضياءٌ كما يجلي الدجا القمر
والعِلم يهدي إلى الجنات صاحبه ... والجهل سيرة أعمى ما له بصر
والعِلم أكثر أن تحصى فضائله ... وهل يعد إذا ما أسهل المطر
يا جامع العِلم والتقوى هُنيت ... فقد جمعت أحسن ما يقنيه مدخر

وفضيلة العِلم ، أكثر من أن يُحصيها باب ، أو يأتي عليها كِتاب .

الباب الخامس :
في ذم الجهل وتضليله وكثرة أهل جيله

الجهل نقيض العِلم ، إذا كان مُطلقاً ، لم نقل فيه : جاهل بكذا ؛ بل نقول : جهل فلان حق فلان ؛ وجهل فلان على فلان ؛ وجهلت هذا الأمر .

والجهالة : أن تفعل فعلاً بغير عِلم ؛ والتجاهل : أن تفعل فعلاً بعِلم .

وقيل : الجاهل يتعلم ؛ والمُتجاهل لا يُريد أن يفهم ؛ والجاهل : هو الذي عليه الجهل غالب ؛ والمُتجاهل : المُتعمد للجهل ، القاصد له بالفعل ، وبيهما فرق ؛ قال الشاعر :

أجهالاً تقول بني لؤي لعمر أبيك أم مُتجاهلينا

ويُروى : قعيد أبيك ، أي : ناشدتك بأبيك ؛ وقال الفرزدق :

قعيدكما الله الذي أنتما له ألم تسمعا بالبيضتين المُناديا

أي : نشدتكما الله ؛ وقال متمم بن نويره اليربوعي :

قعيدك ألا تسمعيني ملامة ولا تنكأي قرح الفؤاد فينجعا

أي : ناشدتك الله ؛ والجهل مأخوذ من الأرضين المجاهل ، التي لا أعلام لها ، ولا يهتدي لطريقها ؛ والواحدة : مجهلة ؛ والجهل مُستقبح بإجماع ؛ وقال محمد بن مداد :

يا جاهلاً راح في جهالته   مُستحسناً جهله بتقدير
لو جمع الجهل والتصاوير   لكان في جُملة الخنازير

ويُقال : الجهل داءٌ ، والعِلم دواءٌ ؛ والجهل عورة تستر ، والعِلم زينة تظهر ؛ وقال محمد بن مداد :

كم بين زينة ذي لباس تظهر   حُسناً وعورة ذي عوار تستر

والجهل نقيصة يُستعاذ منها ؛ وفسر الجهل في قول مُوسى (عليه السلام) : ﴿ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ (١) ، يعني : السُفهاء الذي يسخرون ويهزؤون ؛ والعِلم فضيلة ، يرغب إلى الله تعالى فيها ؛ والجهل أقبح ما في الإنسان ؛ والعقل أملح ما في الإنسان .

وقيل : كان عُمر (رضي الله عنه) ، إذا قرأ قول الله (عز وجل) : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ (٢) ، قال : الجهل يا رب .

---

(١) سورة البقرة : ٦٧ .
(٢) سورة الإنفطار : ٦ .

ويُقال : نزلت هذه الآية في أبي الأسد بن أسد بن كلده ، وكان أعور ، شديد البطش ، فقال : لئن أخذت بحلقة من باب الجنة ليدخلنها مُشركين ، ثم قتل يوم فتح مكة .

ويُقال : نزلت في الوليد بن المُغيرة المخزومي ، وفيه نزلت : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيدا * وجعلت له مالا ممدودا ﴾ (١) ، وكان يُسمى : الوحيد في قومه ؛ ويُقال : وحيداً ، يعني : دعياً ؛ ويُقال : لا مال له ولا ولد .

وقال الكلبي ، في الآية الأولى : نزلت في أبي بن خلف .

ويُقال : من جهل شيئاً عاداه ؛ وكذلك قوم نوح لما جهلوه وفضله ، عادوه وكذبوه .

ويُقال : المرء عدو لما جهل ؛ ولهذا قال يحيى بن خالد لإبنه : عليك بكل نوع من العِلم فخذ منه ، فإن المرء عدو ما جهل ، وأنا أكره أن تكون عدو شيء من العِلم ، وأنشد :

تفنن وخذ من كل عِلم فإنما ... يفوق إمرء في كل فنٍ له عِلم
فأنت عدوٌ للذي أنت جاهلٌ به ... ولعِلمٍ أنت تعلمه سلم

ومن علامة الجاهل : أنك تجده للعَالِمِ مُعادياً ، وعليه رازياً ،

(١) سورة المُدثر : ١١ ـ ١٢ .

وعنه مُنحرفاً ، وعن قوله مُنصرفاً ، فهو كما قال الشاعر :

ومنزلة الفقيه من السفيه كمنزلة السفيه من الفقيه
فهذا زاهد في وصل هذا وهذا منه أزهد منه فيه
إذا غلب الشقاء على سفيه تنطع في مُخالفة [1] الفقيه

التنطع : التعمق في الكلام ؛ وقال محمد بن مداد في مثله :

وما شيء أشد على السفيه وأفظع من مُجالسة الفقيه
فهذا راغب في عِلم هذا وهذا أزهد الثقلين فيه
وهذا سامع للعِلم واع وهذا بالجهالة يدعيه
وما للجاهل الحمق المُناوي لأرباب النهى فاهاً لفيه
فتباً للجهول بغم وخزياً أما يكفيه كون الجهل فيه
فما أغراه بالورع النبيه وما أعداه للعِلم النزيه

وقال صالح بن عبد القدوس :

ودع التعمق في الكلام فإنما قرن الضلال بكل من يتعمق

وقال ابن دريد :

جهلت فعاديت العُلوم وأهلها كذاك يُعادي العِلم من هو جاهله

(١) في نسخة أخرى : مُجالسة .

وذو العِلم معني بما هو أهله　　　يلوح عليه حُسنه ومخايله

وقال محمد بن مداد في مثله :

جهلت بفضل العِلم حتى شننته　　　وشتان راعي حق علِمٍ وجاهله

وقال آخر :

فذو الجهل في فرط الجهالة هالك　　　قد إحتوشته جن أرض وجابله

وقال محمد بن مداد في مثله :

وضد كل إمرءٍ ما كان يجهله　　　والجاهلون لأهل العِلم أعداءُ
العَالِمون لأهل العِلم أدواءُ　　　والجاهلون بلا شكٍ هُم الداءُ
العَالِمون نجوم يُهتدى بهم　　　إلى منار الهُدى والجهل عمياءُ
وهُم لبعضهم بعضاً مشاناة　　　لفرط بينهم في القصد أعداءُ

وقلّ ما تكون محنة فاضل إلاّ من ناقص ، وبلوى عَالِمٍ إلاّ من جاهل ، للعداوة بينهما ، ولفرط تباينهُمَا ؛ وقد قال بعضهم :

وإني شقي باللئام ولا أرى　　　شقياً بهم إلاّ كريم الشمائل

وقال آخر :

فلا غرو أن يُمنى أديب بجاهل　　　فمن ذنب التنين تنكسف الشمس

التنين : نجم من نجوم الحساب ، وليس بكوكب ، ولكنه بياض خفي ، يكون جسده في ستة بروج من السماء ، وذنبه دقيق أسود فيه إلتواء ، يكون في البرج السابع من رأسه ، وهو يتنقل كتنقل الكواكب الجواري ، وإسمه بالفارسية في حساب النجوم : (الجوزهر) ؛ وفي نُسخة : (هشت أنتر) ؛ وقيل : (أردهاماها) ، وهو من النحوس .

وقال أبو الدرداء : علامة الجاهل ثلاث : العجب ، وكثرة المنطق فيما لا يعنيه ، وأن ينهي عن شيء ويأتيه ؛ وقال المُتوكل الكناني ، ثم الليثي :

لا تنه عن خُلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا إنتهت عنه فأنت حليم

ونصب (الياء) من : [تأتي] ، لأنه نهي ؛ والواو إذا كانت لنهي ، فهي نصب ، وكذلك (الفاء) ؛ قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ﴾ (١) ؛ وقال (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) : ﴿ لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب ﴾ (٢) .

وله زيادة شرح ، هو من الباب ، تركته .

---

(١) سورة محمد : ٣٥ .
(٢) سورة طه : ٦١ .

وقال عُمر بن عبد العزيز : لا يعدمنك من الجاهل ، كثرة الإلتفات ، وسُرعة الجواب ؛ وقال محمد بن مداد :

وقال الحكيم ابن عبد العزيز | وما عُمرٌ عندنا ذا إرتياب
لا يعدمنك من جاهل | كثير الخطأ قليل الصواب
مخايل في كثرة الإلتفات | وسرعته عند رد الجواب
وفي الجهل موت ونفس الحياة | في العِلم والكلم المُستطاب

وليس حالة أوضع للإنسان ، ولا أضر عليه ، ولا أجلب للشر إليه ، ولا أقبح لذِكره ، ولا أحط لقدره ، ولا أذم لأمره [1] ، من الجهل ، وهو الداعي للعار ، والهادي إلى النار ، والمُبعد عن السلامة ، والمُدني من الندامة ؛ والجهل سبب كل معرة ، وجالب كل مضرة ، وهو المُذهب بخير الدُّنيا والآخرة ؛ وقد شبه الجاهل بالأموات وبالدواب ، لأن الجاهل ميت وإن كان حياً ، ومعدوم وإن كان شيئاً ، وفقير وإن كان غنياً ؛ وقال :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله | فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن إمرءً لم يحيى بالعِلم ميت | فليس له حتى النشور نشور

وقال آخر :

---
(١) في نسخة أخرى : لأهله .

رواحل للأسفار لا عِلم عندهم بمودعها إلاّ كعِلم الأباعر
لعمرك ما تدري البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما في الغرائر

وقال محمد بن مداد في شكله :

أرى معشر الجُهال لا عِلم عندهم من العِلم في مستودعات الدفاتر
فهم كالجمال الرائحات عشية مُحملة لم تدر ما في الغرائر
وهم معشر الموتى عليهم ثيابهم خلا أنهم لم يدفنوا في المقابر

والموت أستر لمن لا أدب له ، ولا عِلم عنده ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

الموت أستر للجهول من التشدق في المقامة
وإذا الجهول رأى الحليم على الشناة فلا ملامة
ذو الجهل مُستغن بكثرة جهله حتى القيامة
ويرى التعلم آفة ولكل ذي جهلٍ علامة
وعلامة الجُهال بُغضهم لأهل الإستقامة
وترى الجهول بجهله يهوى السيادة والزعامة
قبحاً وترحاً للجهول فلا جناب ولا كرامة

وقال بعض الحُكماء : الجاهل ولو إنقطع فإلى التجهيل يفزع ، والجاهل يرى العِلم تكلفاً ولؤماً ، كما أن العَالِم يرى الجهل تخلفاً

ولؤماً .

وقيل لبزرجمهر : مـا لكـم لا تعـاتبون الجـاهل ؟ فقـال : إنـا لا نُكلف العُمي أن يبصروا ، ولا الصُّم أن يسمعوا ؛ وقال الخليل بـن أحمد :

لو كنت تعلم ما أقـول عذرتـنـي　　　أو كنت أجهل ما تقول عذلتكـا
لكن جهلت مقالتي فعذلتـنـي　　　فعلمت أنـك جـاهـل فعذرتكا

ولداود الأصفهاني :

عذرك عندي لك مبسـوط　　　والذنب عن مثلك محطوط
ليس بمسخوط فعال إمرئٍ　　　كـل الـذي يـفـعل مسخوط

وقال محمد بن مداد :

عذرك يـا مسكين محطـوط　　　لو أن عذر الجهل محطـوط
كـل الـذي تفعلـه واحـد　　　ما عشت مذمـوم ومسـخوط
وإنـمـا بـالعِلم يُـدعى الفتـى　　　في الـرأي إذ تبدو المشاريط

فصــل

الجهل في الابتداء من فاعله ، جـهل علـى الحقيقـة ؛ والجـهل

على الجزاء به ، ليس بجهل على الحقيقة ، وإنما هو مُجاز ؛ وقد قيل في قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

إنه ما أراد الجهل المُستقبح ، وإنما سُميَّ الجزاء على الجهل جهلاً ، لأن ذلك من كلام العرب .

قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ (١) ، الأولى : سيئة ، والأخرى : الجزاء عليها ، ليست بسيئة ، ولكنهم يسمون الجزاء على الشيء باسم الشيء .

وبهذا فسر قول عمرو بن كلثوم ، لأنه لو أراد الجهل بعينه ، لكان ذماً لا مدحاً ، لأن الجهل لا يمتدح به عاقل ، ولا يستحسنه أحد ، وإنما معناه : فيهلكه ويعاقبه بما هو أعظم من جهله ، فنسب الجهل إلى نفسه ، لتزدوج اللفظتان ، فتكون الثانية مثل لفظ الأولى ، وهي تخالفها في المعنى .

قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ فمن إعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما إعتدى عليكم ﴾ (٢) ؛ قال المُفسرون : معناه : فعاقبوه على

---

(١) سورة الشورى : ٤٠ .
(٢) سورة البقرة : ١٩٤ .

إعتدائـه ، والثـاني ليس بـإعتداء فـي الحقيقـة ، بـل هـو عـدل ، فسُميَّ : إعتداءً ، للإزدواج والتوفيق بين اللفظتين .

وجاء في الحديث : أن الله (عَزَّوَجَلَّ) لا يمل حتى تملوا ، معناه : أن الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ) لا يقطع عنكم فضله ، حتى تملوا مسألته وتزهدوا فيها ، والله (عَزَّوَجَلَّ) لا يمل في الحقيقة ، وإنما نسب الملل إليه ، لإزدواج اللفظتين ، والله أعلم .

وقال بعضهم : فنجهل فنجازيه ، فسُميَّ المُجازاة على الجهل جهلاً ؛ كما قال الله (عَزَّوَجَلَّ) : ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ (١) ، يريد ـ والله أعلم ـ مُجازتهم على مُخادعتهم .

وقرأ إبن مسعود ، قوله (عَزَّوَجَلَّ) : ﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾ (٢) ، معناه : بل جازيتهم على عجبهم ، لأنه (عَزَّوَجَلَّ) أخبر عنهم في مواضع من القرآن إنهم عجبوا ، فقال (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ) : ﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾ (٢) ، يُريد : بل جازيتهم على عجبهم ، والله أعلم .

وقال :

إذا كان الزمان زمان حُمق ... فإن العقل حرمان وشؤم

(١) سورة النساء : ١٤٢ .
(٢) سورة الصافات : ١٢ .

فكن حمقاً مع الحمقى فإني أرى الدُّنيا بدولتهم تدوم

ولمحمود الوراق :

ليس شيء مما يُدبره العاقل إلاَّ وفيه شيء يزينه
وأخو العقل مُمسك بالتوقي ويخاف الدخول فيما يعيبه
وأخو الجهل لا يفكر وإن أشكلت عليه ضروبه
راكب ردعه كخابط ليل يخطيء الأمر مرةً ويصيبه
تتأتى له الأمور على الجهل إذا ما أرادها وتجيبه

ومن كِتاب : " نزهة الأنيس وفرحة الجليس " ، لإبن الأثير ؛ رأيت على ظهر الكِتاب ، بخط أبي نصر المُبارك بن محمد ، قال : لما هدمت مأرب سبأ ، أصيب في ركن من أركانها شعراً :

سيأتي سنون هي المُعضلات تراجع مُذ هجع الأجدل
وفيها يهين الصغير الكبير وذو الحلم يسكته الأجهل
ترى الشيخ يطغى العصى دائماً ويمشي عليه الفتى الأرجل

وفي الركن الثاني :

أفٍ لدهر قد حلا عجبه دهراً تحول رأسه ذنبه
دهراً تداوله الإماء فقد حلا منه لوقع بلائه غربه

فصـل

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " خالطوا الناس في أخلاقـهم ، وخالفوهم في أفعالهم " ؛ وكذلك قال بعض البُلغاء : رب جهل وقيت به عِلماً ، وسفه حميت به حِلماً ؛ ولهذا قيل : أن الجهل يدفع بالجهل ، والشر يمنع بالشر ، والحديد يفلج بالحديد .

قال : إن الحديد بالحديد يفلج ، أي : يفرج - وفي نُسخة : يصلح - أحدهما من الآخر ، حتى يخرج من مضيق موضعه ويقطع به ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

رب جهل وقى به المرء حلماً　　وسفاهٍ أغنى عن الحلماء

وقال كعب بن سعد الغنوي :

ولن يلبث الجهال أن يتهضموا　　أخا العِلم ما لم يستعن بجهول

وقال عليّ بن أبي طالب ، ويُروى للمهدي :

لئن كُنت مُحتاجاً إلى الحلم إنني　　إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج
ولي فرس للحلم بالحلم مُلجم　　ولي فرس للجهل بالجهل مُسرج
فمن شاء تقويمي فإني مقوم　　ومن شاء تعويجي فإني أعوج
وما كنت أرض الجهل خدناً وصاحباً　　ولكنني أرضى به حين أحوج

فإن قال بعض الناس فيه سماجة　　　فقد صدقوا والذل بالحر أسمج

وقال سُقراط : ينبغي للعاقل أن يُخاطب الجاهل مُخاطبة المُتطبب للمريض ؛ وقيل : لا يعرف الجهل إلاَّ عَالِم ، ولا يعرف المعصية إلاَّ مُطيع ؛ وقيل : طبع الإنسان الجهل ، وطبع الجهل اللسان ، وطبع اللسان المعصية .

فصل

وأصل بني آدم الجهل ، والعِلم لهم حادث فيهم ؛ وكذلك أصلهم الفقر ، والغنى لهم حادث فيهم ؛ وكذلك أصلهم الحرية ، والرق حادث عليهم .

ومن ذلك ، قول عليّ بن أبي طالب ، لولده الحُسين ، في رسالته إليه : فإن أشكل عليك ، فاحمله على جهالتك ، فإنك أول ما خُلقت جاهلاً ، ثم عِلمت ، وما أكثر ما تجهل من الأمر ، وتتحير فيه رأيك ، ويصل فيه بصرك ، فإن العَالِم من عرف أن ما يعلم فيما لا يعلم قليل ، فعد نفسك لذلك جاهلاً ، والجاهل من عد نفسه بما يجهل من معرفة العِلم عَالِماً ، وبرأيه مُكتفياً ، فلم يزل للعُلماء منابراً ، وعليهم زارياً ، ولمن خالفه مُخطئاً ؛ ومن جهلك أن تعد نفسك أنك عاقلاً فاضلاً ؛ ومن عقلك أن تعد نفسك جاهلاً ،

والجهل أقوى الحالين على الإنسان ، لأنه أصله الذي خُلق عليه ، ألا ترى أنه مُفتقر إلى تعليم العِلم ، ثم ربما لم يأخذ منه شيئاً مع الجد فيه ، والحرص عليه ، وليس يحتاج إلى تعليم الجهل ، لأنه فيه موجود ؛ قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ﴾ (١) .

فصل

ويُقال لمن لا يُحسن العِلم : هو لا داصه ، وكذلك هم الذين لا يُحسنون ركوب الخيل .

سأل شاب جاهل أفلاطون : كيف قدرت على كثرة ما تعلمت ؟ قال : لأني أفنيت من الزيت أكثر مما شربت أنت من الشراب .

ويُقال : فلان صفر من العِلم ، إذا كان خالياً منه .

ومنه الحديث : " البيت الذي لا يُقرأ فيه القرآن صفر " ؛ وفي كلام لشيخنا أبي محمد (رحمه الله) : الجهل يُداوى بالتعليم ، والحُمق مُركب في الطباع ، لا يزول إلاّ بزوال صاحبه ، قد يكون الناس جُهالاً فيتعلمون ، فلا يُعابون ، إذا لم يتعرضوا إلى ما لا يعلمون .

---

(١) سورة النحل : ٧٨ .

وكان الحسن ، إذا إستجهل أحداً ، يقول له : يا لكع ، أي : يا صغيراً في العِلم ، جاهلاً به .

ويُقال : لولا جهل الجاهل ، ما عُرف عقل العاقل ؛ قال :

قد تعرف الأشياء من ضدها ويعرف العَالِم بالجاهل

مسئلة : والجهل جهلان : جهل بوجوب النفس ومعرفته ، وصاحبه معذور فيه ، لعدم الدليل عليه ؛ وجهل بمعرفة حُكمه ، مع العِلم به ، وهذا لا عُذر لصاحبه بفعله ، لأنه قاصد إليه ، مُتعمد لفعله ، جاهل بحُكمه ، وكان جائزاً أن يتحذر من فعله ، بالسؤال عنه ، وعن حُكمه ، ممن يعلمه ، والله أعلم .

هكذا وجدت عن أبي إبراهيم الأزكاني .

فصل

الحُمق معروف ؛ يُقال : حمق فلان ، يحمق ، حَماقة ، وحُمقاً ؛ والحُمق ، واستحمق : إذا فعل فعل الحَمقى ؛ فإذا صار أحمق ، قلت : حُمق ، ورجل أحمق ، وحَمق ؛ وقال الشاعر :

قد يفتر الحول التقي وقد يكثر الحمق الأثيم

ويُقال : رجل حُوَّلُ قُلَّبٌ ، وَهُوَ : الذي يقلب الأمور ، ويحول الحيل فيها ؛ قال الشاعر :

وما غرهم لا بارك الله فيهم به وهو فيه قُلَّبُ الرأي حُوَّلُ

وقولهم : فلان أحمق ، معناه : مُتغير العقل أخذ من الحَمق ؛ والحَمق عند العرب : الخمر ؛ ويُقال : قد حَمق الرجل ، إذا شرب الخمر .

قال أكثم بن صيفي ، في وصيته لأولاده : لا تجالسوا السُفهاء على الحَمق ـ يُريد : على الخمر ـ .

والأفن : الحمق ؛ والأفين : الأحمق ؛ وفي المثل : وجد أن الدفين يعفي على أفن الأفين ، أي : وجد أن المال يُغطي على حمق الأحمق ؛ ويُقال : إمرأة محمقة ، ومحمق ، وهي التي تلد الحمقى ؛ ويُقال : حمقت المرأة ؛ قال :

ولو كُنتم لكيسة لكستم وكيس الأم يُعرف في البنينا
ولكن أمكم حمقت وماقت فجئتم أجمعين لأحمقينا

ويروى : أحمقينا مُورهينا غثاثاً ما يُرى فيكم سميناً ، وقد

كاس الرجل يكيس كيساً .

قال جعفر بن محمد : الأدب عند الأحمق ، كالماء العذب في أصول الحنضل ، كل ما إزداد رياً ، إزداد مرارة .

وقال جالينوس للمأمُون : يا أمير المُؤمنين ، إياك ومُجالسة النوكي ، فإنا نجد في كُتب الطب ، أن مُجالستهم حُمى الروح .

والنوكي : الحمقى ؛ وأحدهم : أنوك ؛ والنوك : الحمق ؛ والمستنوك : المستحمق ؛ وقوم نوك ، ونوكي ؛ والنواكة : الحماقة ؛ قال الشاعر :

رمتني بنو عجل بداء أبيهم وأي عباد الله أنوك من عجل
أليس أبوهم غار عين جواده فاضحت به الأمثال تضرب في الجهل

وذلك أن إبناً لعجل بن لجيم ، أرسل فرساً له في حلبة ، فجاء سابقاً ، فقال لأبيه : يا أبتي ، بأي إسم أسميه ؟ فقال له : إفقأ إحدى عينيه ، وسمه : الأعور .

نظر ثور إلى أحمق جالس على حجر ، فقال : هذا حجر جالس على حجر .

ويُقال : في وجه فلان رواء الحمق ، إذا عرفت الحمق فيه ، قبل أن تنظره ، وتخبره .

وسمع الأحنف بن قيس رجلاً يقول : ما أبالي أمدحت أم هجيت ؟ فقال الأحنف : إسترحت إذاً من حيث تعب الكرام ؛ ومن أمثالهم : إستراح من لا عقل له ؛ وقد ذكرته بتفسيره في كِتاب : " الإبانة " .

ومن غير الكِتاب : قال أبو تمام الطائي : قلت لأعرابي : أيسرك أنك جاهل ولك مائة ألف درهم ؟ قال : لا ؛ قلت : ولم ؟ قال : لأن يُسر الجاهل شين ، وعُسر العاقل زين ، وما افتقر رجل صح عقله .

وقال وهب بن منبه : يُقال : الأحمق إذا تكلم فضحه حمقه ، وإذا سكت فضحه عيه ، وإذا عمل أفسد ، وإذا ترك أضاع ، لا علِمه يُغنيه ، ولا عِلم غيره ينفعه ، تود أمه أنها ثكلته ، وتتمنى إمرأته أنها عدمته ، ويتمنى جاره منه الوحدة ، ويأخذ جليسه منه الوحشة .

قال الأصمعي : قلت لغلام حدث السن ، من أولاد العرب ، كان

يُحادثني ، فأمتعني بفصاحته وملاحته : أيسرك أن تكون لك ألف درهم وتكون أحمق ؟ قال : لا والله ؛ قلت : لِمَ ؟ قال : أخاف أن يجني عليَّ حُمقي جناية ، فيذهب بمالي ، ويبقى حُمقي .

الباب السادس :
في العقل

العقل : أفضل ما أنعم الله (سبحانه وتعالى) به على عباده ، لأن به يعرف الحسن من القبيح ، وبه وجب الحمد والذم ، وبه يلزم التكليف ، لأن الله (جل جلاله) إنما خاطب العُقلاء بما يعقلون ، ومن لم يكن له عقل ، سقط عنه التكليف بإجماع .

قال الله (عز وجل) : ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ [1] ؛ وقال (سبحانه وتعالى) : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ [2] ، يعني : لمن كان له عقل .

والعقل : أفضل نِعم الله ، ومن حُرم العقل فقد حُرم ؛ والعقل هو العِلم ، والعِلم هو العقل ، لأن من عقل عَلِم ، ومن عَلِم عقل ، ولا يكون العاقل عاقلاً ، إلاّ بعِلم مع عقله .

والدليل على عقل العاقل : أنه إذا عَلِم ما له مما عليه ، صح أنه قد عقل ، مع صحة التمييز بين الحسن والقبيح ؛ والدليل على ذهاب عقل العاقل : هو أخذ ما عليه ، وترك ما له ، مع فساد التمييز .

---

(١) سورة الحشر : ٢ .
(٢) سورة ق : ٣٧ .

والعقل عقلان ، وكلاهما عرض : فعقل إضطرار ، وعقل إكتساب ؛ فأما عقل الإضطرار : فالمُركب فيه ؛ وأما عقل الإكتساب : فما إكتسبه من عقله .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " لكل شيء آلة وعدة ، وإن آلة المؤمن وعدته العقل " .

والعقل : مأخوذ إسمه من العِقال (عِقال البعير) ؛ يُقال : عقلت الشيء ، إذا شددته وضبطته ، فسُمي بذلك تشبيهاً بعقل الناقة ، لأن العقل يمنع الإنسان من الإقدام على شهواته إذا قبحت ، كما يمنع العِقال الناقة من الشرود .

ولذلك ، قال عامر بن عبد قيس : إذا عَقلكَ عَقلُك عما لا ينبغي ، فأنت عاقل ؛ ويؤيد ذلك ما جاءت به السُنة ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " العقل نور في القلب ، يُميز به الحق والباطل " ؛ وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " ما اكتسب الإنسان مثل مثل عقل ، يهديه إلى هُدى ، أو يرده عن ردى " ؛ وقال محمد بن مداد :

ما اكتسب الإنسان في دهره أفضل من مُكتسب العقل
لأنه يهديه سُبل الهُدى حقاً ويحويه عن الجهل

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " لكل شيء دعامة ، ودعامة عمل المؤمن عقله ، فبقدر عقله ، تكون عبادته لربه ، أما سمعتم قول الله (ﷻ) ، حكاية عن الفاجر ، حيث يقول يوم القيامة : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ (١) " .

وقال بعض الحُكماء : العقل أفضل مرجو ، والجهل أنكأ عدو ؛ وقال محمد بن مداد :

بالعقل تدبير الفتى كله والعقل من أفضل مرجو
والجهل أعدا كل من طالب ثأراً ومن أقبح مدعو

وقيل : لكل شيء آفة ، وآفة العقل الهوى ، فمن علا على هواه عقله فقد نجى ، ومن علا هواه فوق عقله فقد ثوى ؛ وقال ابن دريد :

وآفة العقل الهوى فمن علا على هواه عقله فقد نجا

وقال الشعبي : إنما سُميَّ الهوى هوىً : لأنه يهوى بصاحبه ؛ وقال عبد الملك بن مروان :

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال

(١) سورة المُلك : ١٠ .

وقال محمد بن مداد :

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى هُوةٍ تهوي إلى غير ناظر

وقيل لبعض الحُكماء : من أشجع الناس وأجرأهم بالنظر في مُجادلته ؟ قال من جاهد الهوى طاعة لربه ، واحترس من ورود خواطر الهوى على قلبه ؛ وقال بعض الحُكماء : من أمات شهوته ، أحيا مروته ؛ وقال محمد بن مداد :

إذا أمات المرءُ شهوته فلقد أحيا مروته
وإذا أحيا لشهوته رأى دون الموت حسرته

وقال بعض العُلماء : ركّب الله الملائكة من عقل بلا شهوة ، وركّب البهائم من شهوة بلا عقل ، وركّب ابن آدم من كليهما ، فمن غلب عقله شهوته ، فهو خير من الملائكة ، ومن غلب شهوته عقله ، فهو شر من البهائم .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " الشديد من غلب نفسه " .

وقال وهب : الهوى والعقل يصطرعان في القلب ، فأيهما غلب ، مال بصاحبه ؛ وقال محمد بن مداد :

رأيت الهوى والعقل في القلب دائماً على غابر الأيام يصطرعان

فأيهما غشا على القلب ماله وليس هما في الوزن يستويان
فهذا له زرع التلهي وذا له التفكر فيما يعقب الفتيان

الفتيان : الليل والنهار ، وَهُمَا : الجديدان والأجدان ؛ والتفكر للعقل ، فيما يعقب الشهوة من الحسرة ، وإنما الشهوة عرض ساعة ، والتبعات ما فيه .

فصل

وعن الضحاك ، في قول الله (عز وجل) : ﴿ لينذر من كان حيا ﴾ [1] ، أي : من كان عاقلاً ؛ والعقل : أول حجة الله تعالى على العبد .

وعن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، أنه قال : " رأس العقل بعد الإيمان بالله تعالى ، التودد إلى الناس " ؛ وقال (صلى الله عليه وسلم) : " التودد إلى الناس نصف العقل " ؛ وقال (صلى الله عليه وسلم) : " أمرني ربي بمُداراة الناس ، كما أمرني بأداء الفرائض " ؛ وعنه (صلى الله عليه وسلم) : " أمرت أن أكلم الناس على قدر عقولهم " .

وقيل : أتى جبريل آدم (عليهما السلام) ، فقال : قد أتيتك بثلاث خِصال ، فاختر منهن واحدة ؛ فقال آدم (عليه السلام) : وما هن ؟

---

(1) سورة يـس : ٧٠ .

فقال جبريل (عليه السلام) : العقل ، والحلم ، والإيمان ؛ فقال آدم (عليه السلام) : فقد إخترت العقل ؛ فقال جبريل (عليه السلام) للحلم والإيمان : إنصرفا ، فقد إختار عليكما العقل ؛ فقالا : أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان .

قال وهب : قرأت في أحد وسبعين كِتاباً ، فوجدت في جميعها ، أن الله تعالى لم يعط جميع الناس ، من بدوّ الدُّنيا إلى إنقضائها من العقل ، في جنب عقل محمد (صلى الله عليه وسلم) ، إلاّ كحبة رمل بين رمال الدُّنيا ، وأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) ، أرجح الناس عقلاً ، وأفضلهم رأياً .

وقال : لإزالت الجبال ، صخرة صخرة ، وحجراً حجراً ، أيسر على الشيطان من مُكايدة العاقل .

وقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : " العاقل هو المُسلم ، الذي يتفكر في خلق السماوات والأرض ، فيعمل بطاعة الله ، ويجتنب معاصي الله " .

وقيل : أن رجلاً قال على نصراني : ما أعقل هذا الرجل النصراني ، فزجره النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وقال له : " مه ، إنما العاقل من أمر بطاعة الله تعالى " ؛ وقوله (صلى الله عليه وسلم) : " مه " ، بمعنى : كُف ؛ بمنزلة : صه .

قال ابن مسعود : يُنهى أن يُسمى الكافر عاقلاً ؛ ويُقال : العقل دون الفهم ، وهما يتداخلان .

وقيل لبعض العجم : ما أفضل ما يُؤتى به الرجل ؟ قال : عقل يُولد معه ؛ فقال : فإن عُدم العقل ؟ قال : فأدب يعيش به ؛ فقال : فإن حُرم الأدب ؟ قال : فمال يستر عورته ؛ فقال : فإن حُرِم العقل والأدب والمال ؟ قال : فجائحة لا تبقى له نسلاً .

وقال أنوشروان لبزرجمهر : أي الأشياء خير للمرء ؟ قال : عقل يعيش به ؛ قال : فإن لم يكن ؟ قال : فإخوان يسترون عورته ؛ قال : فإن لم يكن ؟ قال : فمال يتحبب به إلى الناس ؛ قال : فإن لم يكن ؟ قال : فعي صامت ؛ قال : فإن لم يكن ؟ قال : فموت جارف .

الجارف : الذي يبيد ويذهب ؛ والطاعون الجارف الذي نزل بأهل العراق ذريعاً ، فسُميّ : جارفاً ؛ والذريع : الموت الفاشي الذي لا يتدافنون معه .

<u>ومن غير الكِتاب</u> ؛ وقيل : وقع الطاعون في سنة تسع وستين بالبصرة ، في شوال ، فمات يومئذ في ثلاثة أيام سبعون ألفاً ، ووقع بها - أيضاً - طاعون آخر ، سنة أربع وسبعين ، وهذا

الطاعون الأخير ، هو الذي يذكره أبو سفيان محبوب بن الرحيل (رضي الله عنه) ، في كِتابه ، ويُسميه : الطاعون الجارف .

قال في كِتابه : رأى رجل في منامه - في أيام الطاعون - أنه يخرج من داره إثني عشر ميتاً ، وهو وعياله إثني عشر ، فمات من عياله أحد عشر ، وبقي وحده ، فخرج وقال في نفسه : هو ثاني عشر ، فلما كان من الغد ، دخل داره ، فإذا بلص قد دخل ليسرق ، فأصابه الطاعون فمات ، وكان هو ثاني عشر ، وبقي هو .

رجع إلى الكِتاب ؛ وقال (صلى الله عليه وسلم) : " أفضل الناس أعقل الناس " .

وعنه (صلى الله عليه وسلم) : " سيد الناس أعقلهم " .

وعنه (صلى الله عليه وسلم) : " لكل شيء معدن ، ومعادن التقوى قلوب العاقلين " .

وعن ابن عُمر ، أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، قال : " أن الرجل ليكون حاجاً ، أو مُجاهداً ، حتى يذكر أنواع البر ، وما يُعطى يوم القيامة ، إلاَّ على قدر عقله " .

وعنه (صلى الله عليه وسلم) ، أنه قال : " العقل حيث كان ألوف مألوف " .

وقال (ﷺ) : " العقل عقلان : فأما عقل صاحب الدُّنيا فعقيم ، أي : لا يُنتفع به ؛ وأما عقل صاحب الآخرة فمُثمر " ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

رب ذي عقل له أدب | مُستشار في مُشاورته
عاقل في أمر عاقلته [1] | جاهل في أمر آخرته
فهو كالمصباح يحرق نفسه | من نفع حاضرته

وله - أيضاً - :

إن يكن عقل أخ الدُّنيا عقيماً | فلعقل المُتقي غير عقيم
إن شتى بين عقل مُثمر | نافع العُقبى إلى عقل ذميم
ما لذي الدُّنيا سوى بلغته | وأخ العُقبى إلى مُلك عظيم

ويُقال : المُلك عقيم ، أي : لا ينتفع به بسببٍ ، لأن الإبن يقتل أباه ، والأخ يقتل أخاه على المُلك ؛ والدُّنيا عقيم ، لا ترد على صاحبها خيراً ؛ والإعتقام في الحفر : المضي سفلاً .

ويُقال : من ضعف عقله ، تلفت نفسه ؛ وقال محمد بن مداد

إلهِ عن الدُّنيا وجانب الجُهلا | واحرص على الدُّنيا واكتسب العقلا

(١) في نسخة أخرى : عافيته .

فالعقل والعِلم تحوي بـه فضلا والجهل والظلم تـهوي به سفلا

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " من أعطي ثلاث خصال ، فقد كمل عقلـه : حُسن المعرفـة بـالله ؛ وحُسن الطاعـة لله ؛ وحُسن الصبر على بلاء الله " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " إن لله خواصاً في الجنة ، يُسكنهم رفيع الجنان ، لأنهم كانوا في الدُّنيا أعقل النـاس ، كـانت همتـهم المُسابقة والمُسارعة ، وهانت عليهم فضول الدُّنيا وزينتها " .

وعن عليّ بن أبي طالب ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قـال : " لا فقر أشد من الجهل ، ولا مـال أعوذ مـن العقـل ، ولا عبـادة كالتفكر " ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

روينـا عـن علـيّ عـن نبيـك خـاتم الرُسـل
عليـه الله صلـى مـا إستهلت ديّمُ الوبـل
بـأن لا مـال أعوذ للفتـى مـن راسـخ العقـل
وأن لا فقـر أقبـح بـالفتى مـن شـدة الجـهل
وأن لا شـيء أحسـن كـالتفكر يـا أخـا عجـل
وأن لا شـيء أدنـى للـهُدى كالفرض والنـفل

وعن أبو الدرداء ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " يا عُويمر ، إزدد عقلاً ، تزدد من ربك قرباً ، وعليه عزاً " ؛ قلت : بأبي وأمي أنت يا رسول الله ، ومن لي بالعقل ؟ قال (ﷺ) : " أجتنب محارم الله ، وأد فرائض الله ، تكن عاقلاً ، ثم تتقبل صالحات الأعمال ، تزدد في الدّنيا عقلاً ، وتزدد من ربك قرباً ، وعليه عزاً " .

ويُقال : لو صور العقل ، لاظلمت معه الشمس ، ولو صور الجهل ، لأضاء معه الليل ؛ وقال محمد بن مداد :

لو صور العقل على صورة — لأظلمت من نوره الشمس
أو صور الجهل على هيئةٍ — لضاء من صورته الدمس

الدمس : تراكم الظلمة .

ويُقال : إذا تم العقل نقص الكلام ؛ وفي الحِكمة : كل شيء كثر رخيص ، إلاّ العقل فإنه إذا كثر غلا ؛ وقيل : أعقل الناس أعذرهم للناس ؛ وقيل : عقول كل قوم على قدر زمانهم .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " ما إنتقصت جارحة من الإنسان ، إلاّ كانت ذكاء في عقله " ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

ما نـقصت جارحة من فتـى   إلاّ وكـان الـريّـم فـي عـقلـه

الريّم : الزيادة ؛ قال أبو العتاهية :

ما ينقص المرءُ من أطرافه طـرفاً   إلاّ تخونه النقصان من طرفه

وقيـل : مـن زيـد عقلـه ، نقـص مـن رزقــه ؛ ولإبراهيــم بــن هليل :

إذا جمعت بين إمرأين صناعة   فأحببت أن تدري الذي هـو أخـرق

فلا تتفقد منهما غير مـا جرت   بـه لـهما الأرزاق حيـن يفــرق

فحيث يكون النقص فالرزق واسع   وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق

فصـــل

والعقل أبين الفضائل ، وينبوع الأدب ، والعقل لا يكـون عنـده كثير نفع ، بغير عِلم وأدب ، وإنما ينتفع به ويثمر بالعِلم والأدب ، اللذين يُلقحانه .

وقيـل : العقـل عشـرة أجـزاء ، منـها : فـي الصمـت ؛ وواحـد منها : في الهرب عن الناس .

وقيل : أن عابداً كـان فـي صومعـة ، قـد إنقطـع عـن النـاس ،

فقيل له : لم فعلت هذا ؟ قال : هربت عن اللصوص سُراق العقول ، لكي لا يسرقون عقلي ؛ وعدو المرء نفسه ، وصديقه عقله .

قال المُعتصم : إذا قيل للرجل : عاقل عاقل (مرتين) ، فهو جاهل .

وقال محمد بن سعيد : قال لي أستاذي : أنت عاقل عاقل ، وعاقل (مرتين) جاهل .

والنهية : اللب والعقل ؛ يقول : أنه لذو نهية ؛ وإنهم لذو نهى ؛ وذو منهاة ؛ والنهي : العقل ؛ وكذلك الحجر .

ويُقال : رجل ذو مرةٍ ، أي : ذو شدةٍ وعقلٍ ؛ قال الله (عز وجل) : ﴿ذو مرة فاستوى﴾ [1] ، معناه : ذو عقل وشدة ؛ قال الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مرةٍ   عندي لكل مُخاصمٍ ميزانه

ويُقال : عقل المرأة في جمالها ، وجمال الرجل في عقله ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

إن جمال المرء في عقله   والبكر يُرجى عقلها في الجمال

---

(١) سورة النجم : ٦ .

فصـل

إختلف الناس في العقل وصفاته ، على مذاهب شتى ؛ فقال قوم : هو جوهر لطيف ، يُفصل به بين حقائق المعلومات ؛ واختلف من قال بهذا القول في محله .

فقال بعض : محله الدماغ ، لأن الدماغ محل الحسن .

وقال آخرون : العقل هو مُدرك الأشياء على ما هي عليه في حقائق المعنى .

وقال بعض المُتكلمين : العقل هو جُملة عُلوم ضرورية .

وقال آخرون : العقل هو العِلم بالمُدركات الضرورية ، وذلك نوعان ، أحدهما : ما وقع على درك الحواس ؛ والثاني : ما كان مُبتدأ في النفوس .

وقال قوم : العقل نور بصيرة الله في القلب ، يفرق به العبد بين الحق والباطل ، ويُميز به ما يلج به على قلبه .

وروي عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " العقل نور في القلب يُفرق به بين الحق والباطل " .

وقال آخرون : العقل خلق خلقه الله تعالى ، وأسكنه قلب ابن آدم ، ليدعوه إلى الحق ، وينهاه عن الشر ، ويُميز بدعواه ما لله تعالى فيه رضى ، فيبعث العبد على إستعماله ، وينهاه عن الشر ، وعن معاصي الله (عَزَّ وَجَلَّ) ، فينهاه عن إستعماله ؛ وأن الله تعالى لما خلق العقل ، قال له : أقبل ، فأقبل ؛ ثم قال له : أدبر ، فأدبر ؛ فقال (عَزَّ وَجَلَّ) : ما خلقت خلقا هو أحب إليَّ منك ، بك آخذ ، وبك أعطي ، ولك الثواب ، وعليك العقاب ، يعني : أني أثيب من قبل منك ، وإني أعاقب من يُخالفك ولا يقبل منك .

وقال آخرون : العقل مواهب الله (عَزَّ وَجَلَّ) ، يعطي كل عبد من عبيده منها ، ما إذا إستعمله نجا ، ووصل به إلى معرفته ورضوانه ، وأن العبد إذا أراد إستعماله ، أن يقف على قلبه عند همه ، ليعرف به الحق من الباطل ، فيستحق العبد إسم العاقل ، إذا قبل من عقله ، ولم يُخالفه فما يدعوه إليه ، فإذا عمل العبد ما دعاه إليه عقله ، سُميَّ : عاقلاً ؛ وإذا عدل عن القبول منه ، سُميَّ : جاهلاً ، وإن كان في قلبه العقل .

والعقل المُكتسب ، هو شيء نتيجة العقل الغريزي ، وهو نفاية المعرفة ، وصحة السياسة ، وإصابة الفكر ، وليس لهذا حد ، لأنه يُنمى إذا إستعمل ، وينقص إذا أهمل .

مسئلة : قال الشيخ أبو محمد (رحمه الله) : إختلف الفقهاء في العقل ، فقال بعضهم : الحِساب على كل مُكلف عاقل ، لأن القلم رُفع عن الصبي والمجنون ، ووقع التكليف على العُقلاء .

وقال بعض : العاقل هو المُطيع لله (عز وجل) ، واحتجوا بقوله (سبحانه وتعالى) : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم ﴾ (١) ؛ وقوله (عز وجل) : ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها ﴾ (٢) .

وقال بعض : العقل هو العِلم ، واحتج بقوله (جل جلاله) : ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ (٣) .

فصل

إختلف في محل العقل ؛ فقال قوم : الدماغ ؛ وقال ثعلب : العقل في الرأس عندهم ؛ والعرب تقول : ما له عقل ولا قلب بمعنى واحد .

---

(١) سورة الملك : ١٠ ـ ١١ .
(٢) سورة الأعراف : ١٧٩ .
(٣) سورة العنكبوت : ٤٣ .

ومن الناس من يذهب إلى أن العقل في القلب ، وأن القلب في الصدر في الجانب الأيسر .

وقد روي عن النبي (ﷺ) - فيه روايتان - أحدهما : " أنه في القلب " ؛ والأخرى : " أنه في الصدر " .

وعن أبي محمد عبد الله بن محمد بن محبوب (رحمه الله) ، قال : أن العقل في الرأس ، وكل من نفي أن يكون العقل جوهراً ، أثبت محله في القلب ، لأن القلب محل العُلوم كلها .

وعن أبي عليّ ، قال : أن محل العقل الدماغ ، وتدبيره في القلب .

وقال بعض : وعلى هذا دلت اللغة ، لأن الدماغ في أعلا الجسد ، وفي الرأس ؛ ويُقال : لرؤوس الجبال معاقل ، وللحصون معاقل ؛ قال أبو ذؤيب الهذلي :

عفا غير ربع الدار ما أن تبينه ... وأقطاع طغي قد عفت في المعاقل

وكل موضع عزيز ، يُقال له : معقل .

فصل في القلب

قال الخليل : القلب مضغة من الفؤاد ، مُعلقة بالنياط ؛ قال

الشاعر :

ما سُميَّ القلبُ إلاَّ من تقلبه   والرأي يصرف والإنسان أطوارا

وقال محمد بن مداد :

ما سُميَّ القلبُ قلباً غير أن لـه   تقلباً فهو في الأسباب ينقلبُ

والجميع : قلوب ؛ قال عبيد بن الأبرص ، في صفة عقاب : تخر في وكرها القلوب ، يعني : قلوب الطير .

وفي الحديث ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " أن لكل شيء قلباً ، وقلب القرآن يس " ؛ والقلب والفؤاد : إسمان لمعنى واحد ، وهو مُضغة من الإنسان ، والفؤاد ظاهرها ، والقلب باطنها ، ألا ترى أنه نُسب إلى الفؤاد ؛ فقال الله (عَزَّوَجَلَّ) : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ (١) ؛ وسُميَّ الفؤاد : لتفاوده ؛ والتفاود : التوقد ؛ وفؤد الرجل فهو مفود ، إذا أصابه داء في فؤاده ؛ رجع إلى ذكر العقل .

فصل

قال بعض الحُكماء : العقل للقلب بمنزلة الروح في الجسد ،

---

(١) سورة الحج : ٤٦ .

وكل قلب لا عقل له ، فهو ساقط ميت ، بمنزلة قلب البهائم ؛ وسُميَّ القلب قلباً : لأنه أفضل الأعضاء في الجسد ؛ والقلب الخالص في كل شيء أفضله ، والعقل يدفع التدبير إلى القلب ، لأنه أفضل الأعضاء وأشرفها .

قال الفرا : المعقول هو العقل ؛ وقال الراعي :

حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحماً ولا لفؤاده معقولا

أي : عقلاً ؛ والفؤاد : القلب .

وقال بعض الحُكماء : العقل غريزة في الإنسان ، والعِلم بالتعليم ؛ ومن أجل ذلك ، قالوا : عَالِم ، ومُتعلم ، ومُعلم ؛ ولم يقولوا : مُتعقل ، ومعقول ، لأن العقل هبة من الله تعالى ، والعِلم باكتساب .

ويُقال للعقل : حجر ؛ قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ هل في ذلك قسم لذي حجر ﴾ (١) ؛ وأنشد الأصمعي :

فأخفيت ما بي من صديقي وإنه لذو نسب دانٍ إليَّ وذوا حجر

وكذلك الحرام : حجر ؛ من قول الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ ويقولون

(١) سورة الفجر : ٥ .

حجرا محجورا ﴾[1] ، أي : حراماً مُحرماً ؛ وأنشد لأبي طالب :

ألا أصبحت إسما حجراً مُحرماً وأصبحت من أدنى حموتها حما

وقال المُتلمس :

حنت إليّ النخلة القصوى فقلت لها حجر حرام ألا تلك الدهاريس

والدهاريس : الدواهي .

قال كلثوم بن عُمر العتابي ، في كِتابه المُترجم بكِتاب : " شجرة العقل " ، بعد خُطبته ، وكلام تقدم : (هذا كثير ، وقد يجب على ذي الوصف ، في حُسن التميز ، تسهيل القول بما يُقرب من فهم العامة ، الذين ليس لهم من فضل الإستغناء عن ذلك ، ما للخاصة وكمالهم في الفِهم ، وذلك بعثني على أن مثلت العقل والأخلاق الجميلة ، التي هي للعقل ، رعية مُدبرة ؛ العقل راع مُدبر ، ومحل كل خلق منه في قربة وبُعده ، على المراتب التي تحيلهم في صورة شجرة ، زيادة في الشرح ، وتسهيل المعرفة ، وتبياناً لما قصدنا إليه ، واستدعاء لمعرفة العامة ، وحثاً لهم على معرفته ، برسم الصورة ، وحلاوة منظرها ، ثم تكلمنا بعد صفة ذلك ، باباً باباً ، واحداً واحداً ، بما وسعته الطاقة ،

(١) سورة الفرقان : ٢٢ .

وبلغته المعرفة ، وسلس فيه القول ، تنبيهاً على خط الرشد ، ودعاه إلى إستكمال فضل ، وإرشاد إلى معالم الهُدى ، والله تعالى أسأل : المعونة على ذلك ، والتأييد فيه ، بالتوفيق لما يرضى ، والعِصمة مما يكره ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العَلِي العظيم ، وصلى الله على رسوله ونبيه ، وعلى آله سرح الهُدى .

وهذه صورة العقل ، وجميع أعوانه ، والأخلاق الجميلة ، على مثال شجرة ، لها عُقدتان ، تتفرع ثمانية أغصان ، وأحد وثلاثين شعبة ، وهي شجرة مُتفرعة شعبها ، بأنواع الخير ، مُتدلية أغصانها بفنون العقل ، فجناؤها ثمار الفائدة ، من كريم العائدة ، يقتبس منها ضياء الحكمة ، ويُستضاء بها إلى معالم الهداية ، فلحقها الإستماع ، والتفهم ، والرغبة ، ترتع في ظلها ، وأنيق زهرتها .

واعلم أن حُسن الذهن يُنميها ويُزكيها ، وأن كمال ذلك كله ، بتوفيق الله (عَزَّ وَجَلَّ) ، وعونه ، وإرشاده ، وإلى الله تعالى ، نرغب في ذلك ، بقدرته ....) .

لم يتم كلامه ، لأنه طويل ، فتركته ، وقد حصلت مسئلة العقل ، في باب : ما لا يجوز من الصفات ، يأتي بعدها ، إن شاء الله تعالى .

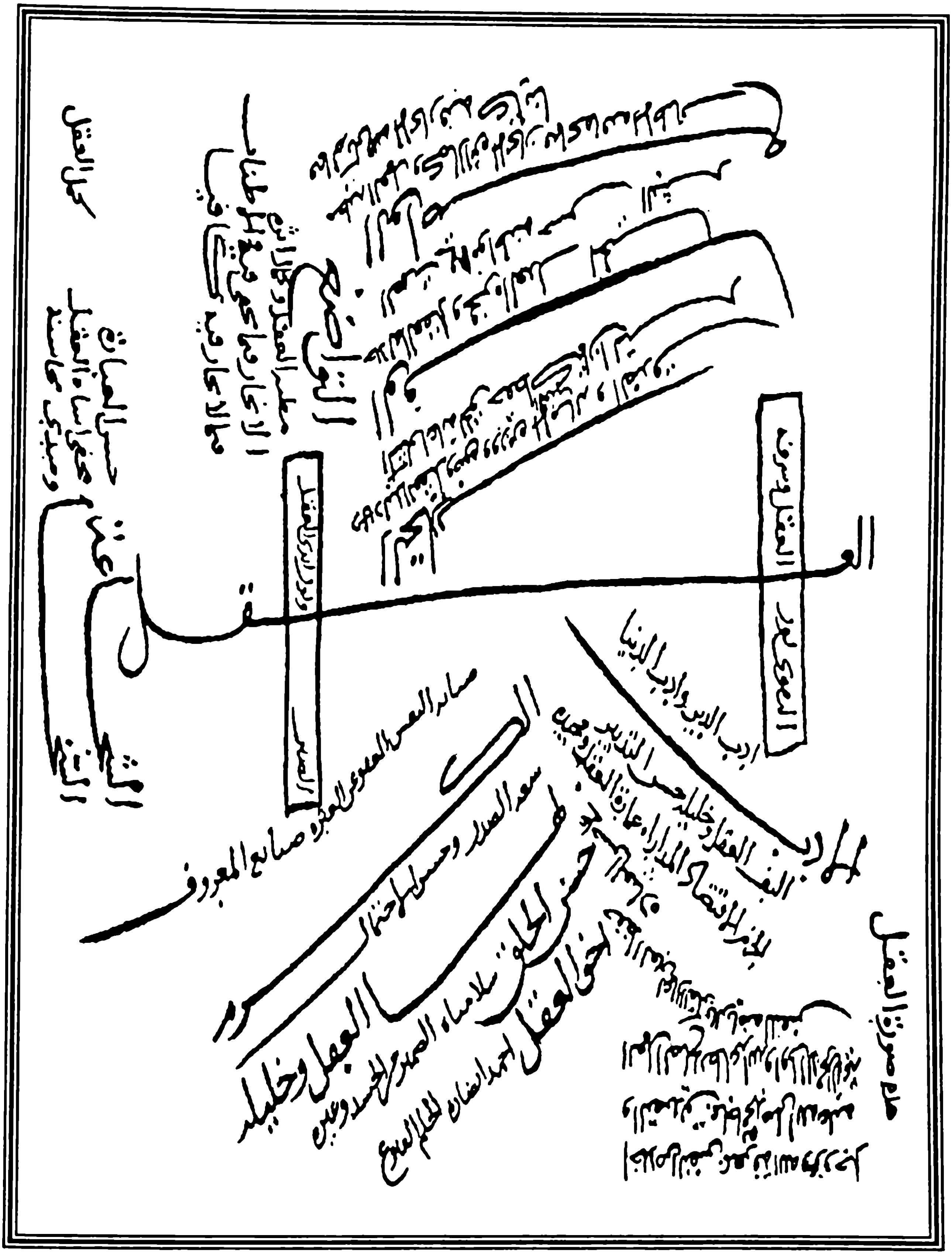

كمل العقل بجميع صفاته وخِصاله ، والحَمدُ لله رَبِّ العَالَمِين ، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العَلِي العَظِيم ؛ [صورة من المخطوط]

الباب السابع :

في تفضيل العُلماء وتعظيمهم وتجليلهم وإكرامهم

قال الله (تقدست أسماؤه) : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العُلماء ﴾ (١) ؛ وقال (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ) : ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ (٢) ؛ وقال (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ (٣) ؛ وقال (جَلَّ جَلَالُهُ) : ﴿ وما يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾ (٤) .

وقيل : الأحياء : العُلماء ؛ والأموات : الجهال ؛ وقيل : الأحياء : المؤمنون ؛ والأموات : الكفار ؛ فمنع الله (تبارك وتعالى إسمه) ، من المُساواة بين العَالِم والجاهل ، ونفي أن يكون غير العَالِم يعقل عنه أمراً ، أو يفهم عنه زجراً .

وعن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، أنه قال : " الناس موتى إلاَّ العَالِمُون ، والعَالِمُون سُكرى إلاَّ العَامِلُون ، والعَامِلُون هلكى إلاَّ المُخلصُون ، والمُخلصُون على خطر عظيم " .

وعن سُويد بن عُقبة ، عن ابن مسعود ، قال : قال لي رسول

---

(١) سورة فاطر : ٢٨ .
(٢) سورة العنكبوت : ٤٣ .
(٣) سورة الزمر : ٩ .
(٤) سورة فاطر : ٢٢ .

الله (ﷺ) : يا عبد الله بن مسعود ؛ قلت : لبيك يا رسول الله ؛ قال : أتدري أي الناس أفضل ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم ؛ قال : فإن أفضل الناس ، أفضلهم عملاً ، إذا فهموا في دينهم ؛ ثم قال : يا عبد الله بن مسعود ؛ قلت : لبيك يا رسول الله ؛ قال : أتدري أي الناس أعلم ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ؛ قال : أعلم الناس أبصرهم بالحق ، إذا إختلف الناس ، وإن كان مُقصراً في العمل ، وإن كان يزحف على إسته .

وعن أبو مُوسَى الأشعري ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : " يبعث الله تعالى العباد يوم القيامة ، فيُميز العُلماء ، فيقول : يا معاشر العُلماء ، إني لم أضع فيكم عِلمي إلاّ لعِلمي بكم ، ولم أضع فيكم عِلمي لأعذبكم ، إنطلقوا فقد غفرت لكم " .

وعن كثير بن قيس ، قال : كنت جالساً مع أبي الدرداء ، فقال : سمعت رسول الله (ﷺ) ، يقول : " أن العَالِم ليستغفر له من في السماوات ، ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العَالِم على العابد ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وأن العُلماء ورثة الأنبياء ، وأن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً ، ورثوا العِلم ، فمن أخذه ، أخذه بحظ وافر " .

وقال (ﷺ) : " فضل العَالِم على العابد ، كفضل القمر ليلة

البدر على الكواكب " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " فضل العَالِم على العابد ، كفضلي على أدناكم رجلاً " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " فضل العَالِم على العابد ، كفضل سبعين [1] درجة ، بين كل درجتين ، خطوة فرس سبعين عاماً " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " حملة العِلم هم ورثة الأنبياء ، ومصابيح الهُدى ، وأمناء الله على وحيه ، ما لم يركنوا إلى الدُنيا ، فإذا فعلوا ذلك ، فاتهموهم على دينكم " .

وعن عائشة (رحمها الله) ، عنه (ﷺ) ، أنه قال : " من وقر عَالِماً ، فقد وقر ربه (عزّ وجلّ) ، ومن فعل ، فقد إستوجب المآب على الله (عزّ وجلّ) " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " من أعظام إجلال الله إكرام ثلاثة : قارئ القرآن غير المُغالي فيه ، ولا الجافي عنه ؛ والعَالِم ؛ وذي الشيبة المُسلم " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ولم يُوقر كبيرنا ، ويعرف الفضل لِعَالِمنا [2] " ؛ وفي خبر :

(١) في نسخة أخرى : كفضل تسعين درجة .
(٢) في نسخة أخرى : ويعرف الفضل لعُلمائنا .

" ويجل كبيرنا " .

ويُقال : أن إجلال العَالِم ، من إجلال الله تعالى (جَلَّ جَلَالُهُ) .

ويُروى عن ابن عباس : أنه أخذ بركاب زيد بن ثابت ، وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بعُلمائنا ؛ وقيل : أراد زيد بن ثابت الركوب ، فأخذ ابن عباس بركابه ، وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بعُلمائنا ؛ فأخذ زيد بن ثابت ، بيد ابن عباس فقبلها ، وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا (ﷺ) .

وعن ابن عباس : أنه كان يحضر مجلسه حبشي أسود ، أو نوبي ، وكان يرفعه على القوم ، ويصدره في المجلس ، فقيل له في ذلك ، فقال : هذا رجل أكرمه الله بالعِلم ؛ وقيل : لا يزال الناس بخير ، ما عظموا الأشراف ، وفضلوا العُلماء ، وأجلوا المشايخ .

وعن ابن عباس ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " أقرب الناس درجة من درجة الأنبياء : أهل العِلم ، وأهل الجهاد ؛ وأما أهل العِلم : فقالوا بما جاءت به الأنبياء ؛ وأما أهل الجهاد : فجاهدوا في سبيل الله ، على ما جاءت عليه الأنبياء (صلى الله عليهم أجمعين) بعِلمهم " .

وعن ابن عباس ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " فقيه واحد ،

أشد على إبليس من ألف عابد " ؛ وقال عبد الله بن عُمر بن زياد في ذلك :

لقد قال النبي صلوا عليه ... فقيه واحد لا شك فيه
أشد مراسة وأشد نيلاً ... على إبليس أن يدلي إليه
بوسواس لأعمال خساس ... إذا ما رامه أن يحتويه
أشد عليه من ألفٍ مُطيع ... من العباد حتى يصطفيه

وعن أنس بن مالك ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " العَالِم للعامة ، والعابد للرجل وحده " .

وعن الحسن ، في قول الله (عز وجل) : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ﴾ (١) ، قال : العُلماء زينة الأرض .

وعن ابن عباس ، وطلحة ، وعطاء ، في قول الله (عز وجل) : ﴿ أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ (٢) ، قال : نقصان الأرض بموت العُلماء ، وذهابُ فقهائها ؛ وقوله (سبحانه وتعالى) : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ (٣) ، قال مجاهد : من عُلمائهم ، وقيل : غير ذلك .

---

(١) سورة الكهف : ٧ .
(٢) سورة الرعد : ٤١ .
(٣) سورة ق : ٤ .

وعن أنس بن مالك ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " مثل العُلماء في الأرض ، كمثل النجوم في السماء ، يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا إنطمست النجوم ، أوشك أن تضل الهُداة " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " موت العُلماء ثلمة لا تجبر ، ما إختلف الجديدان ، وهم نجوم قد طمست ، وموت قبيلة أيسر من موت عَالِم " .

وفي خبر : موت العَالِم ثلمة في الإسلام ؛ ويُقال : خير من العِلم حامله ، وخير من الذهب باذله ؛ وقال إبراهيم : الفقهاء والعُلماء ، أوصياء الأنبياء .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " العُلماء مفاتيح الجنة ، وخُلفاء الأنبياء " ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

يا أخي لم أرَ في الناس كمثل العُلماء
هُم مصابيح السماء هُم وصاة الأنبياء
هُم نجوم الأرض والأجر كأجر الشهداء
هُم ولاة الله في الأرض على فصل القضاء

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " يُشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ،

والعُلماء ، والشهداء " .

وفي الحديث : أن الله تبارك وتعالى ، يقول يوم تقوم القيامة للعابد : أدخل الجنة ؛ وللعَالِم : أشفع للناس ؛ وفي خبر : يقول للعَالِم : إتند ، حتى تشفع للناس .

وعن ابن عباس : أن الله تبارك وتعالى ، يُباهي ملائكته ، برفع أعلام أهل العِلم .

وعن مالك بن أنس ، عن الزهري ، عن ابن عباس ، عن ابن المُسيب ، عن أبي هُريرة : أن النبي (ﷺ) ، قال : " إن الله حبس على العُلماء عقولهم وأفهامهم ، فلا يسلبونها إلى الممات ، والعُلماء ورثة الأنبياء ، وملح الأرض ، ومصابيح الدُّنيا " .

وقال عوانة : تشاجر قوم في مسجد البصر ، والمسجد مشحون برجالات العرب ، فتراضوا بالحسن البصري ، وتحاكموا إليه ، فقال الأحنف : كاد العُلماء يكونون أرباباً ، وكل عز لم يُوطد بعِلم ، فإلى ذلٍ يصير ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

كل عِز لم يوطد بعِلم فإلى ذل وقل يصير
وإذا العز إستقل بعِلم فهو والرحمن ملك كبير

وقال في الأول :

العُلمــاء ولاة الأنبيــاء فقــد كادوا يكونون فوق الناس أربابا
حُبب إليهم لفضل العِلم أفئدة وهذبوا فغدوا في العِلم صبابا

الصباب : خيار الناس ؛ وقال عُمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، وذكر العُلماء ، فقال : ينعطف عليهم بالعِلم قلوب ، لا تصورها الأرحام تصور ، أي : بمثل .

فصل آخر منه

وعن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، أنه قال : " جالسوا العُلماء ، واسألوا الكُبراء ، وخالطوا الحُكماء " .

وقال بعض الحُكماء : من صاحب العُلماء وقر ، ومن صاحب السُفهاء حقر ؛ وإتباع العُلماء واجب .

قال الله (عز وجل) ، حكاية عن إبراهيم (عليه السلام) : ﴿ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا ﴾ (١) ؛ والعُلماء ودائع المُسلمين ، وعندهم ميراث النبيين ، وحكمة الله التي يستدل بها عليه ، والعُلماء جعلهم الله حجة بينه وبين عباده ، وأمرهم أن يقبلوا قولهم ، ويهتدوا بهُداهم ، فقال (عز وجل) :

(١) سورة مريم : ٤٣ .

﴿ فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ (١) .

وكان ابن مسعود ، يقول : بأبي وأمي العُلماء ، بروح الله إنقلبتم ، وكِتاب الله تلوتم ، ومساجد الله عمرتم ، ورحمة الله إنتظرتم ؛ وقيل : العُلماء منار البلاد ، منهم يُقتبس النور ، الذي يُهتدون به .

وعن بكر بن عبد الله ، قال : قال النبي (ﷺ) لأصحابه : " إن من العِلم ما يكون كهيئة الشيء المدفون ، لا يعلمه إلاّ العُلماء بالله ، فإذا نطقوا به ، لم يجهله إلاّ أهل الغُرة بالله ، أتدرون ما قال لي جبريل (عليه السلام) ، قال : يا محمد ، لا تحقرن عبداً أتاه الله عِلماً ، فإن الله لم يُحقره حين علمه ، إن الله جامع العُلماء في بقيع واحد ـ أو قال : في صعيد ـ فيقول لهم : إني ما إستودعتكم عِلمي إلاّ لخير أردته بكم ، فقد غفرت لكم على ما كان منكم " .

وعن الحسن ، قال : مداد العُلماء يُوزن بدم الشهداء يوم القيامة .

وعن سعيد بن جُبير ، قال : إذا كان يوم القيامة ، يُوزن حِبر

(١) سورة النحل : ٤٣ .

العُلماء ودم الشهداء ، فيرجح حِبر العُلماء على دم الشهداء .

وقيل : العُلماء غُرباء لكثرة الجهال .

وقيل : كلمت النبي (ﷺ) ، جارية من السبي ، فقال لها : من أنت ؟ فقالت : بنت الرجل الجواد حاتم الطائي ، فقال : " إرحموا عزيز قوم ذل ، وارحموا غنياً إفتقر ، وارحموا عَالِماً ضاع عِلمه بين جهال " ؛ وقال محمد بن مداد :

رحم النبي عليه صلى ربنا ... مثر أقلَّ وعَالِماً يستجهل
وعزيز قوم كان صاحب ثروة ... أخنى عليه دهره المُسترحل

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " رحمت عزيز قوم ذل ، وغنياً إفتقر ، وعَالِماً تلاعب بعِلمه الجُهال " ؛ وقال منصور بن إسماعيل :

أني من النفر الثلاثة حقهم ... أن يرحموا لحوادث الأزمان
مثرٍ أقل وعَالِم مُستجهلٍ ... وعزيز قومٍ ذل للحدثان

ويُقال : الغُرباء في الأرض أربعة : مُصحف مُعلق لا يُقرأ فيه ؛ وقرآن في قلب فاسق لا يعمل به ؛ ومسجد بين ظهراني قوم لا يُصلون فيه ؛ وعَالِم بين جُهال لا يسألونه يتلاعبون به .

وفي الحديث : مثـل العَـالِم كالجمـة ، يأتيـها البُعداء ، ويزهـد فيها القرباء ، فبينما هم كذلك ، إذ غار ماؤها ، فانتفع بــها قـوم ، وبقـي قــوم يتفكنــون ، يعنــي : يتندمُــون ؛ والتفكــن : التنــدم ، والتلهف علــى شــيء ، يظـن أنـه يظفـر بـه فيفوتـه ؛ والمُتفكـن : المُتندم ؛ قال روبه :

أما جزاء العارف المُستيقن عنـدك إلاّ حـاجة التـفكن

والجمة : عين فيها ماءٍ جارٍ ، يُستقى منه ؛ وقيل : هـذا مثـل للعرب ؛ وللمسّيح بن حاتم :

لا نرى عَالِماً يحـل بقـوم فيحلـوه غـير دار الـهوان
قل ما توجد السلامة والصحة مجموعتـان فــي إنســان
فـإذا حلتـا مكانــاً ســحيقاً فهُما في النفوس معشوقتان
هذه مكـة الشـريفة بيـت الله يســعى لحجــها الثقــلان
وترى أزهد البرية في الحج لهـا أهلـها لقُـرب المكان

ويُقال : أزهد النـاس في عَالِم جيرانـه ؛ ويُقال : أهله .

وقال البُلغاء : إن من الشريعة ، أن تجل أهل الشريعة ؛ ومــن الصنيعة ، أن ترب أهل الصنيعة ؛ ومعنى : ترب ، أي : تراد لئــلا

تعفوا أثرها ؛ قال الشاعر :

ترب الذي يأتي من العُرف أنه   إذا سُئل المعروف زاد وتمما

الباب الثامن :

في مراتب العُلماءِ وأحوالهم وما جاء في أقاويلهم وأفعالهم

العُلماء على رُتب ، وطبقات ، ومنازل ، ودرجات ، بعضها أرفع من بعض ، كإرتفاع السماء على الأرض ؛ فالعَالِم حقاً ، من أطاع الله في عمله ، وأخلص عِلمه ، فانتفع به مُتعلماً ، ونفع غيره مُعلِماً .

قال النبي (ﷺ) : " العُلماء ثلاثة : عَالِم عاش بعلمه ، وعاش الناس به ، فهذا الرفيع في الدرجات ، السابق بالخيرات ؛ وعَالِم عاش بعلمه ، ولم يعش الناس به ، فهذا رجل نفسه ويومه كأمسه ، الذي لا ينفعه شيء من بعده ، سُنة حسنة سنها ، ولا يجري له أجرها ؛ وعالم عاش الناس بعِلمه ، ولم يعش هو به ، فهذا هو الخاسر النادم ، والشقي المثبور ، المحروم عن كل ما أمل من السرور ، الواقع في كل ما كره من المحذور " .

وقال أبو المُؤثر (رحمه الله) : روي عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " ويل للجاهل مرة ، وويل للعَالِم سبع مرات ؛ الجاهل : لا يُعذر بجهله ؛ والعَالِم : ملعون ، إذا عَلِم وترك عِلمه ؛ والعَالِم

غير العـامل ، مدحـوض الحجـة ، مخسـوس النقيـب [١] " ؛ وقـال محمد بن مداد في ذلك :

كل من لم ينهه العِلم عن الجهل — فـهـو الجـاهـل المُسـتـجـهل

وعن علـيّ ، قـال : قـال رسـول الله (ﷺ) : " إنـي لا أخـاف على أمتي مُؤمناً ولا مُشركاً ، إن كـان مُؤمنـاً منعـه إيمانـه ، وإن كان مُشركاً قمعه شركه ، ولكن أخاف عليها مُنافقاً ، عَالِم اللسان ، يقول ما يعرفون ، ويعمل ما ينكرون " .

وقال أبو الدرداء : إني أخوف ما أخاف ، أن يُقال لي : علِمت فما عملت فيما علِمت ؛ وقال محمد بن صالح :

وكأنني بك قـد وقفت مُحاسباً — وسُئلت عما قـد عَمِلت سُؤالا
في زُمرة الفقهاء يوم تغابن — يوماً تكون على العُصاة طـوالا
عبدي علِمت فما الذي قدمت — من خمسون وافية كملن كمالا
أأطعت عِلمك إذ نهاك عـن الـهوى — وجعلته لك في الأمور مثالا
أم كيف تتبع الهوى وتطيعه — فتمـاطل المُسـتعتبين مطـالا
فـأعد ويحـك للسـؤال إجابـة — قبل السؤال وجانب الإغفالا
العِلم يهدي من أراد به الهُدى — ولقد يزيد ذوي الضلال ضلالا

(١) في نسخة أخرى : منحوس النصيب .

كم عَالِم كانت عليه عُلومه ... يوم القيامة حسرة ووبالا

وعن عيسى (عليه السلام) : يا صاحب العِلم ، إنه لا يجتمع الماء والنار في إناءٍ واحد ، كذلك لا يجتمع الفقه والغنى في قلبٍ واحد بحق ، أقول لكم : ما تريدون ، الدُّنيا ، أو الآخرة ، لو كُنتم تريدون الآخرة ، لأكرمتم العِلم ، الذي لا تدرك الآخرة إلاَّ به ، ولو كُنتم تريدون الدُّنيا ، لأكرمتم العِلم الذي به تدرك الدُّنيا ، فلا عبيد أتقياء ، ولا أحرار كِرام ؛ وقال محمد بن مداد :

أكرم العِلم تكرم ... واتبع الحق تسلم
أنت لا تدرك العُلوم ... بغير التعلم
لا تكن ما حييت ... عبد الفلس والدرهم
كُن مع العِلم عَامِلاً ... إن تزغ عنه تندم
من كراماته أن ... تتقي كل مأثم
فلا تكُن فيه لاعباً ... لعب الصبي بالدم
واطلب الله بالعُلوم ... طلاب المهتم
تنل العِلم باقتباسك ... من كل مرزم

وقال عليّ بن أبي طالب : الناس ثلاثة : عَالِم رباني ؛ ومُتعلم على سبيل نجاه ؛ وهمج رعاع أتباع كل ناعق ؛ والرباني : العالي

الدرجة في العِلم ؛ قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ ولكن كونوا ربانيين ﴾ (١) .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " من مات عَالِماً ، مات مُباركاً " .

ولما مات ابن عباس ، قال محمد بن الحنفية : اليوم مات رباني هذه الأمة ؛ وقيل : أن جابر بن زيد ، وقف على قبر ابن عباس ، في اليوم الذي مات فيه ، فقال : اليوم مات رباني هذه الأمة ، أي : عَالِمهم ؛ ولما دُفن جابر بن زيد ، وقف الحسن البصري على قبره ، وقال : اليوم دُفن رباني هذه الأمة .

قال النحويون : الربانيون : منسوبون إلى الرب (تبارك وتعالى علواً كبيراً) ؛ وقالوا : زيدت (الألف والنون) للمُبالغة في النسب ، كما تقول : لحياني ، وجماني ، فتصفه : بعظم اللحية والجمة ؛ والربيون : الألوف ؛ قال ابن عباس : هم الجموع الكبيرة ؛ وأنشد :

وإذا معشر تجافوا عن الحق   حملنا عليهم ربينا

وقال الحسن : الرُبيون (بضم الراء) ، وقرأ بها غيره ؛ وقال :

---

(١) سورة آل عمران : ٧٩ .

الرُبيون نسبوا إلى الربة ، والربة : عشرة آلاف ؛ وقرأ ابن عباس : رَبيون (بفتح الراء) ؛ والهمج : أصله في كلامهم البعوض ؛ ثم قيل للرذال من الناس : همج ؛ قال الشاعر :

يترك ما رمج من عيشه ... يعيث فيه همج الهامج

رمج : أصلح ؛ والمرمج : المُصلح ؛ والعيث : الفساد ؛ والناعق : الصائح في الحرب ؛ يُقال : قد نعق الراعي بالغنم ، ينعق بها إذا صاح ؛ قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ﴾ (١) ؛ قال الأخطل :

فانعق بضأنك يا جريرُ فإنما ... منَّتك نفسُك في الخلاءِ ضلالا

فصل

والعُلماء شهود الله في الأرض ، لهم أعلام في السماء ، كأعلام السماء في الأرض ، يعني : النجوم يعلو بعضها بعضاً في الدرجات ، أبعد ما بين السماء إلى الأرض ، إلاّ أن العَالِم من يعمل بعِلمه ، وليس العَالِم من يُعلم الجاهل ، ويجهل عِلم نفسه ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

---

(١) سورة البقرة : ١٧١ .

ليس العليم بمن يُعلم غيره علِماً ويجهل عِلم ذاك لنفسه
أولى بذي عِلمٍ غدا مُتعاشياً عن عِلمه إيداعه في رمسه
فالكلب أعلا منه منزلة وإن أمسى يتيه على الملا من جنسيه

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " خيار أمتي عُلماؤها ، وخيار عُلماؤها فقهاؤها " .

وعن أبو هُريرة ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " للأنبياء على العُلماء فضل درجتين ، وللعُلماء على الشهداء فضل درجة " .

وعن واثلة بن الأسقع ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : " إذا كان يوم القيامة ، جمع الله تعالى العُلماء ، فقال لهم : إني لم أستودعكم عِلمي لأعذبكم ، أدخلوا الجنة برحمتي " .

والعُلماء ثلاثة : عَالِم بالله ، وليس عَالِم بأمر الله ؛ وعَالِم بأمر الله ، وليس عَالِم بالله ؛ فإذا كان عَالِماً بالله ، وعَالِماً بأمر الله ، فقد تم أمره ؛ وقيل : حملة العِلم ثلاثة : عَالِم ، وجاهل ، وعُويلم ؛ فالعَالِم : الذي يُصيب كثيراً ، ويُخطيء قليلاً ؛ والجاهل : الذي يُصيب قليلاً ، ويُخطيء كثيراً ؛ والعُويلم : الذي يقوم خطأه بصوابه ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

ما الناس إلاّ جاهل أو عَالِم   وعويلم من بينهم يتردد
مراً يُصيب ومرة يُخطيء   ويُصلح تارة مُتفقهاً أو يُفسد

والمُؤمن العَالِم ، أفضل من المُؤمن الذي ليس بعَالِم ؛ وقال الأعمش : إذا رأيت الفقيه يأتي باب السُلطان ، فاعلم أنه لص .

وقال أبو الدرداء : من لم يزدد عِلماً ، يزدد جهلاً .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " أهلك أمتي رَجُلان : عَالِم فاجر ، وجاهل مُتعبد " ؛ وقيل : يا رسول الله ، أي الناس أشر ؟ فقال (ﷺ) : " العُلماء إذا أفسدوا " ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

سألت أي الناس شر فقالوا   شر قوم عَالِم مُفسدُ
فقلت يا قوم فمن مثله قالوا   جهُول في الرخا يعبدُ

وقيل لعيسى (عليه السلام) : من أشد الناس فتنة ؟ فقال (عليه السلام) : زلة العَالِم إذا زل ، أزل بزلته عَالَم كثير ؛ وقال مالك بن دينار : من لم يؤتِ من العِلم ما يقمعه ، فما أوتي من العِلم ما ينفعه ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

من لم يكُن في عِلمه نافعاً   لنفسه نُصحاً فمن ينصحه
لا خير فيمن لم يكن عِلمه   يُكسبه التقوى ولا يردعه

ويُقال : أن زلة العَالِم لا تستقال ، فإن العَالِم يزل ، فيزل بزلته عَالَم كثير ، إتباعاً له وتقليداً ؛ وقيل : إنما صار خطأ العَالِم وزلته أعظم ، لأنه يُخطيء من إتبعه ؛ وقيل في الحكمة : زلة العَالِم كالسفينة تغرق ، ويغرق فيها خلق كثير .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " من إزداد عِلماً ، فلم يزدد هُدىً ، لم يزدد من الله إلاّ بُعداً " .

وقال عبد الله بن عُمر : من إزداد عِلماً ، ولم يزدد هُدىً ، زاده الله في ذاك بُعداً ، ولم ينتفع بالذي إزداده من الله ، إلاّ ضلالاً وصداً .

وعن رسول الله (ﷺ) ، أنه قال : " أشد الناس عذاباً يوم القيامة ، عَالِم لم ينفعه الله بعِلمه " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " حق على الله ، لمن عَمِل بما يعلَم ، علِم ما لم يَعلَم " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " من عَمِل بما يعلم ، كان حقاً على الله ، أن يُعلمه ما جهل " .

وعن الهمداني ، في قول الله (سبحانه وتعالى) : ﴿ والذين جاهدوا فينا

لنهدينهم سبلنا ﴾ (١) ، قال : الذين يعملون بما يعلمون ﴿ لنهدينهم سبلنا ﴾ ، إلى ما لا يعلمون .

وعن قتادة ، في قول الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾ (٢) ، يعني : أنه لعامل بما عَلِم .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " ويل لأقماع القول ، ويل للمُصرين ، الذين يستمعون القول ، ولا يعملون به " ؛ وقال الشاعر :

إذا العِلم لم تعمل به كان حجة عليك ولم تعذر بما أنت جاهله

وعن عُمر ، قال : خير العِلم ما دخل معك قبرك ، وشر العِلم ما خلفته مِيراثاً ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

خير عِلم ما كان عندك في القبر وشر العُلوم ما كان إرثا
وإذا العِلم لم يُلازمك في المضجع فاعلم بأنه كان غثا

رجع ، قيل له : وما ذلك يا أمير المُؤمنين ؟ قال : ما عملت به ، وجعل معك في قبرك ثوابه ، وما لم تعمل به ، خلفته في البيت ميراثاً ، عليك لا لك .

---

(١) سورة العنكبوت : ٦٩ .
(٢) سورة يُوسف : ٦٨ .

فصل

قال الله (عز وجل) : ﴿ نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴾ [1] ؛ قال النقاش : يقول الله تعالى : فوق عِلم كل عَالِمٍ ؛ وقال غيره : يُريد عِلم يعقوب وولده ، فوق عِلم العُلماء ؛ وقيل : ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ ، هو : فوق كل عَالِم من هو أعلم منه ، حتى ينتهي ذلك إلى عِلم الله (جل جلاله) ؛ والعُلماء مُختلفون في الدرجات ، والعِلم ، والتفاضل ؛ فمنهم : البصير ، والمُبصر ؛ ومنهم دون ذلك .

وروي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، أنه قال : " أعلمكم بالحلال والحرام ، مُعاذ بن جبل " ؛ فنسبه إلى ذلك ، ولم ينسبه إلى جميع العُلوم .

وقال (صلى الله عليه وسلم) : " أفرضكم زيد بن ثابت " ، ولم ينسبه إلى غير ذلك .

وعن عُمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، أنه قال : من أراد أن يسأل عن الحلال والحرام ، فليسأل مُعاذاً ؛ ومن أراد أن يسأل عن الفرائض ، فليسأل زيداً ؛ ومن أراد أن يسأل عن الأموال ،

(١) سورة يوسف : ٧٦ .

فليسألني ، فإن الله قد جعلني لها خازناً وإماماً .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " العُلماء قد جعلوا أمناء الله على عباده ، وعلى دينه ، ما لم يدخلوا في الدُّنيا ، ويخالطوا السُلطان ، فإذا فعلوا ذلك ، فقد خانوا الله ورسوله ، فاحذروهم واتهموهم على دينكم ، فليحذر العَالِم مُجانبة الدين ، لرغبة أو لرهبة ، فربما زلت أقدام العُلماء في ذلك ، فضلوا وأضلوا " .

وروي عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " لا تزال أمتي (١) تحت يدي الله ، وفي كنفه ، ما لم يمتال قراؤها أمراؤها ، ولم يذل صلحاؤها لفجارها ، وما لم يُمار أخيارها أشرارها ، فإذا فعلوا ذلك ، رفع الله يده عنهم ، ثم سلط عليهم جبابرتهم ، فساموهم سُوء العذاب ، وضربهم بالفاقة والفقر ، وملأ قلوبهم رُعباً " .

وقيل : إذا ترك العَالِم العِلم ، نُودي : يا هذا تركت الطريق ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

إذا إنتحى العَالِم عن عِلمه   نُودي يا هذا تركت الطريق

وقال بعض الحُكماء : خير العُلماء من لا يقل ولا يمل ، ويجب للعَالِم أن ينظر إلى من هو فوقه في العِلم ، ولا ينظر إلى من هو

(١) في نسخة أخرى : هذه الأمة .

دونه في الجهل ، فإن ذلك مما ينفي عنه العجب والإستكبار ، ويُقلل عنده ما يحب فيه من الإستكثار ، إذ ليس مُنتهاه في العِلم ، إلاّ وسيجد من هو أعلم منه بشيء ، إذ العِلم أكثر من أن يُحيط به بشر ؛ قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ [1] ، يعني : العِلم .

وقال بعض السلف : من تكبر بعِلمه وترفع ، وضعه الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) ؛ ومن تواضع بعِلمه رفعه الله (عَزَّ وَجَلَّ) .

وفي منثور الحِكم : إذا علِمت فلا تفكر في كثرة من هو دُونك من الجهال ، ولكن انظر إلى من هو فوقك من العُلماء ؛ ولإبن العميد :

من شاء عيشاً هنيئاً يستلذ به ... فواضل العيش إدباراً وإقبالا
فلينظرن إلى من فوقه أدباً ... ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال : من تعجب بالعِلم ، إلاّ كان فيه مُقصراً ومُقللاً ، لأنه يجهل قدره ، ويحسب أنه قد نال بدخوله فيه أكثره ؛ وأما من كان فيه مُستكثراً ، وهو يعلم من بعد غايته ، والعجز عن إدراك نهايته ، ما يُصده عن العجب به ، ويحطه على الجهل في طلبه ؛

(١) سورة يوسف : ٧٦ .

وقال محمد بن مداد :

من كان يعجبه غزارة عِلمه ويظن أن قد نال منه كثيرا
فهو الجهول بغاية العِلم الذي لو عاش ألفاً كان فيه يسيرا

فصل

وعن جابر بن زيد ، في قول الله (عز وجل) : ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴾ [1] ، قال : هُم عُلماء السوء ؛ وفسر قوله تعالى : ﴿ عتيا ﴾ ، قال : المُبالغة في الكُفر والفساد ؛ ويُقال : عتا ، يعتو ، عتواً ، وعتياً ؛ ويعسوا ، عسوا ، وهو : العتو ، أو العتي : لغتان ؛ وهي مُجاوزة الحد ، إذ إستكثر فقد عتا عتواً ؛ وقال الراجز : والناس يعتوا على التسليط ؛ ويُقال : تعتى فلان تعتياً ، وهو : التعتي ؛ قال روبه :

وطامح النخوة مستكت طأطأ من شيطانه التعتي
صكى عرانين العدا وصتي

وتعتت فلانه : إذا لم تطع ؛ قال العجاج :

الحمد لله الذي إستقلت بأمره السماء واطمأنت

(١) سورة مريم : ٦٩ .

بأمره الأرض فما تعتت   وحي لها القرار فاستقرت

قوله : [فما تعتت] ، أي : فما عصت ؛ والعاتي : الجبار ؛ وجبابرةٌ : عُتاة .

قال : سمعت الفضل يقول : أوحى الله إلى داود (عليه السلام) : لا تجعل بيني وبينك عَالِماً مفتوناً بالدُّنيا ، فيصدك عن طريق محبتي ، أولئك قطاع الطريق على عِبادي ، أدني ما أنا صانع بهم ، أن أنزع مُناجاتي من قلوبهم .

قال عُمر بن محمد : العَالِم يدخل بين الله وبين خلقه .

وعن مُعاذ بن جبل ، قال : كنت أطوف مع النبي (صلى الله عليه وسلم) بالبيت ، فقلت : يا رسول الله ، من أشد الناس عذاباً ؟ فأعرض عني ، ثم سألته ، فأعرض عني ، ثم سألته ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " من يرى الناس أن فيه خيراً ولا خير فيه " ؛ وفي خبر آخر عنه (صلى الله عليه وسلم) ، أنه قال : " شرار العُلماء " .

وعن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، أنه قال : " لا يفقه الإنسان كل التفقه حتى يرى للقرآن وجُوهاً " .

وقال كعب : أرباب العِلم الذين يعملون به ؛ وقال : ويُذهب

العِلم من قلوب العُلمـاء بعد إذ وعوه ، الطمع ، وشرة النفس ، وطلب الحوائج إلى الناس .

وعن ابن منبه ، قال : كان أهل العِلم - فيما مضى - يضنون على أهل الدُنيا بعِلمهم ، فيبذل أهل الدُنيا دُنياهم ، وأن أهل العِلم قد بذلوا عِلمهم لأهل الدُينا ، فضن عليهم أهل الدُنيا بدُيناهم .

قال بعض الحُكماء : ثمرة العِلم العمل به ، وثمرة العمل به أن يؤجر عليه ؛ وفي الحكمة : لم ينتفع بعِملِه ، من ترك العمل به .

وعن ابي سُفيان ، قال : أن الخضر (عليه السلام) قال لمُوسَى (عليه السلام) : يا ابن عمران ، تعلم العِلم لتعمل به ، ولا تتعلمه لتحدث به ، فيكون عليك حسرته ، ولغيرك نوره .

وقال بعض الحُكماء : العِلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه وإلاّ إرتحل .

وقال بعض العُلماء : خير العِلم ما نفع ، وخير القول ما ردع .

وقال بعض العُلماء : ثمرة العِلم العمل به ؛ وقال الخليل :

خليلي إن العِلم يهتف بالعمل فإن لم تُجبه بالتقى سار وارتحل

وقال محمد بن مداد

إني أقول وخير القول أصدقه ... لا ينفع العِلم حتى ينفع العمل
من لم يصنه طلاب العِلم عن سفه ... فذاك ثور على المسناة أو جمل
والعَالِم العامل المرضي سيرته ... نجم يضيء بنور العِلم مُشتعل

فصل في تسمية العُلماء وصفاتهم

العُلماء : جمع عليم ؛ وقيل : جمع عَالِم ؛ ونظيره : شاعر ، وشعراء ؛ والإختيار الأول ؛ ويُقال : عَلِم الرجل الشيء : إذا فهمه وعَلِم : إذا ساد أهل زمانه ، أي : يتقدمهم في العِلم وصحة المعرفة ؛ وهذا قول يدل على أن العِلم مأخوذ من عَلِم ؛ وإنما سُميَّ عَالِماً للإشتهار والوضوح ؛ ومنه : المُتعلم : وهو الذي تعلم منه مضان الشيء ، وإليه يرجع العلامة ؛ ولذلك سُميَّ الجبل عِلماً ؛ وقالت الخنساء :

وإن صخراً لتأتم الهُدَاة به ... كأنه علم في رأسه نار

والعَالِم يُسمى عَالِما ، لا من جهة الإشتقاق ، وإنما هو لمعنى آخر يدل عليه ، وهو أنه توجد فيه الأفعال المُحكمة .

ويُقال : رجل عَالِم ، وليس العِلم في كله ، وإنما هو في بعضه ؛ وعَالِم كل زمان أمة ؛ والأمة تنصرف على وجوه في

اللغة ؛ والأمة : إتباع كل شيء ؛ والأمة : الحين ، ومنه قول الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) : ﴿ وادكر بعد أمة ﴾ (١) ؛ والأمة : الإمام ، قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ (٢) ؛ والأمة : المُطيع ؛ قال النابغة :

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

وقيل : الأمة - ها هنا - : الدِّين ؛ والربانيون ، هُم : العُلماء ، والفقهاء ؛ والأحبار : عُلماء دون الأنبياء في العِلم ؛ وكل رباني حبر ، وليس كل حبر رباني ؛ والأحبار - أيضاً - : كتبة العِلم ؛ وأحدهم : حَبرٌ ، وحِبرٌ ؛ والحبر : الهيبة والحُسن ؛ ومنه الحديث : " غيرت النار حبره وستره " ، أي : حُسنه وأثره .

ويُقال : ما أحسن حبار بلدكم ؛ وكان العَالِم يُسمى : حبراً ، إذا تناهى في العِلم ، فأورد على المُتعلم أحسن العُلوم ، أو يُحسن العِلم في غير المُتعلم ، حتى يفرح المُتعلم حُسن ثيابه ، حتى يفرح به قلبه ، فيكون محبوراً به مسروراً ، فسُميّ بذلك : حبراً .

وقال ثعلب : حبر بالشيء حبراً ، إذا شربه ؛ ومنه قول الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ فهم في روضة يُحبَرُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة يُوسف : ٤٥ .
(٢) سورة النحل : ١٢٠ .
(٣) سورة الروم : ١٥ .

وقال أبو عمرو : يُقال : رجل عليه حبر الشباب ، أي : حُسنه ؛ والحبر الذي يُكتب به سُميَّ بذلك ، لأنه أخذ من الحُسن ؛ وقيل : لثياب اليمن : حبر ؛ وإحدها : حبرة ، سُميت بذلك لحُسنها ؛ وليست الحبرة موضعاً أو شيئاً معلوماً ، إنما هو وشيٌّ ، كقولك : قرمن ؛ والقرمن : صبغ .

قال أبو مُوسَى الأشعري ، وسلمان الفارسي ، لرجل : لا تسألونا وهذا الحبر بين أظهركم ، يُريد بذلك : ابن مسعود ؛ والحَبْرُ ، والحُبُرُ : العَالِم من عُلماء الدِّين ؛ والجميع : الأحبار ، مُسلماً كان أو ذمياً ، بعد أن يكون من أهل الكِتاب ؛ قال روبه :

من كُتب الأحبار خطت سطرا

والحبر الذي يُكتب به سُميَّ حِبراً ، لأنه يُؤثر ؛ قال الشاعر :

لقد أشمتت بي أهل فند وغادرت　　　بجسمي حبراً نبت مضان باديا

ويُقال للإثار : حبر ، وحبار ، وعلوب ، وإحدها : علب ؛ وبلد : والجميع أبلاد ؛ قال طرفة :

كأن علوب النسع في داياتها　　　موارد من خلقاء في ظهر قردد

العلوب : الإثار ؛ والنسع : سيور مُضفره ؛ يُقال : نسعة ،

ونسع ، وإنساع ، ونسوع ؛ والدايات : مُلتقى الأضلاع ؛ والموارد : السيول ، وهي طرق الوارد ؛ والخلقاء : الملساء ، يعني : الصخرة ، وكل ما يُملس فقد أخلق ؛ وقردد : مستوية ؛ وظهر القردد : أعلاه ؛ قال ابن الرقاع ، في الأبلاد :

ذكروا الديار توهماً فاعتادها — من بعد ما شمل البلى أبلادها

والحبر : عطر الأحبار ؛ وقال محمد بن مداد :

إسمع أنبيك ببعض الأخبار — من حكمة أودعتها في الطومار
المسك والعنبر عطر العطار — والحبر في الآثار عطر الأحبار
والكُتب كالبُستان وسط الدار — تأكل من ثمارها ما تختار
من الثمار وصنوف الأزهار — الفل والجل وجلنار
يا نُزهة الرأي وروض الأفكار — يا صاح لا يلهيك كسب الدينار
وجمع حبات حواها البذار — ولا حساب بدر ولا قنطار
عن كُتب يقرأوها في أضبار

وقال أبو عُبيدة : العرب لا تعرف الرباني ؛ ويُقال : هي عبرانية أو سريانية ، والرباني لا يُسمى به إلاَّ من كان عَالِماً عَامِلاً أو مُعلِماً ؛ قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ والراسخون في العلم ﴾ (١) ؛

(١) سورة آل عمران : ٧ .

قيل : هُم الذين رسخ عِلمهم وإيمانهم ، كما رسخ الحبل في مكانه ؛ ويُقال : هم المدرسون ، بقول : رسخ الشيء رسوخاً ، إذا أثبت في موضعه ، وأرسخته إرساخاً ، كالحبر يرسخ في الصحيفة ؛ وكالعِلم يرسخ في قلب الإنسان ؛ ويُقال : رجل راسخ في العِلم ، قد دخل فيه قلبه مدخلاً ثابتاً .

وقال الخليل : ﴿ والراسخون ﴾ ، في كِتاب الله (عَزَّ وَجَلَّ) ، هم : المدرسون ؛ وقال غيره : الراسخون ، هم : عُلماء العُلماء ، وليس هم المدرسون ؛ والنقاب : العَالِم من الرجال ؛ يقول : نقاب ، أي : عَالِم ينقب عن الأشياء .

ويروى عن الشعبي : أنه دخل على الحجاج ، فسأله عن فريضة من الحد ؛ فقال باختلاف الصحابة فيها ، حتى ذكر ابن عباس ، فقال الحجاج : إن كان ابن عباس لنقاباً ، فما قال فيها النقاب ؟ فأخبره بقوله ؛ والمسألة قد ذكرتها في باب المواريث - إن شاء الله ؛ وقال أوس بن حجر :

مليح نجيح أخو ماقط نقاب يخبر بالغائب

وقال أبو العباس ، في معنى قوله : [مليح] ، أي : مملح ، وهو الذي يفحم خصمه ، مأخوذ من الملاح ، وهو عود يُوضع

في فم الجدي ، لكي لا يرضع فيسنق ، والسنق إسم : سوْ الشبع ؛ قال : فكأنه لما نطقت مملح بملاح ، ولكن الأول أقام فعيلاً مكان مفعل ؛ كما قال عمرو بن معد كرب :

أمن ريحانة الداعي السميع   يؤرقني وأصحابي هجوع

يُريد : المسمع ؛ ويُقال في نحو منه : أنه لعض ؛ والعض : هو المُنكر الداهية ؛ قال القطامي :

أحاديث من عاد وجرهم ضلةً   يثورها العضان زيدٌ ودغفلُ

قوله : [زيدٌ ودغفلُ] ؛ يُريد : زيد بن الكيس النمري ، ودغفل الباهلي ، وكانا عَالِمي العرب بالأنساب الغامضة ، والأنباء الخفية ؛ والعض - أيضاً - : الرجل السيء الخُلق ؛ قال :

ولم أك عضاً في النداما ملوماً   والسر سور العَالِم الفطن

قوله : [العَالِم الفطن] ، أي : الدخال في الأمور ؛ والطب : العَالِم بالأمور ؛ قال عنترة :

إن تعد في عني القناع فإنني   طبٌ بأخذ الفارس المُستئلم

المُستئلم : اللابس اللامة ؛ واللامة : الدرع .

فصل منه

يُقال : فلان قِدْوةٌ ، وقُدْوةٌ ، وقَدْوَة ، وجمع القدوة : قدى (مقصور بالياء) ؛ والقدو : الأصل الذي يتشعب منه تصريف الإقتداء ؛ قال :

والجود في راحتيك قدوته ‏ ‏ ‏ ‏ وكان قدواً في الشعر والخطب

وبعضهم يكسر ، فيقول : قِدوته ، أي : بك نقتدي ؛ يُقال : إقتدى فلان بفلان ، إذا فعل مثل فعله ؛ وفي القرآن الكريم ، قوله (عزّ وجلّ) : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ (١) .

ويُقال : رجل ندس ، إذا كان عَالِماً بالأخبار ، وندوس ؛ ورجل نطس ؛ ونطس : المُبالغ في الشيء .

ويُقال : أفلق فلان في العِلم وغيره ، إذا برع فيه ؛ ورجل مفلق ؛ وأمر مفلق ، أي : عجب .

ويُقال : بصر الرجل ، إذا جادت فطنته ؛ وبصر بالأمر ، أي : فهمه ؛ وبصُرها (بضم الصاد) بالقلب ، أي : عِلم وشعر ؛ وأبصر ، أي : نظر بعينه ، إذا وقع بصره على شيء فأتقنه ؛ وقد

---

(١) سورة الأنعام : ٩٠ .

قريء قول الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ بصُرت بما لم يبصروا به ﴾ [١] ؛ وبصِرت (بكسر الصاد) .

ويقول : درى ، يدري ، دريـة ، ودريـاً ، أي : عَلِم عِلماً ؛ والعرب ربما حذفت (الياء) ، فتقول : لا أدر ، في معنى : لا أدري ؛ ويُقال : شرب فلان من العِلم فانتقع ، أي : أكثر منه .

وقال ابن جريح : أن مُعمراً قال : شرب فلان من العِلم فانتقع ؛ ومن أمثالهم : قد بلغ فلان في العِلم أطورته ، أي : بلغ أقصاه ؛ قاله أبو زيد : (بكسر الراء) ؛ وقال غيره من العُلماء : (يفتح الراء) ؛ ويُقال : إنه لشراب ناقع ؛ قال محمد بن مداد في ذلك :

أفي العِلم تستحي فتشرب نغبة	ألا در شراب العُلوم فأنقعا
ودع عنك جلباب الحياء فإنما	ينال المُنى من كان في العِلم مُشجعا
سعى سعيه من كان في العِلم ساعياً	وأكدى إمرؤ لم يحو للعِلم مُودعا
يقول متى هذا وأنى لنا بذا دراكاً	فسل عن ذا وذا كل أروعا

ويُقال : إنك لعَالِم ولا تباغ ؛ وتباغ : (رفع ونصب) ؛ ولا تباغا ؛ ولا تباغوا ، وفي الإثنين : لا تباغيا ؛ وقال بعضهم : معناه : لا تباغيك أحد ؛ وقال آخر : لا يصبك عين على الدعاء له

---

(١) سورة طـه : ٩٦ .

فيُحرم ؛ يقول : لا تبغ ، وتفسيره : من التبغ ؛ يقول : لا تبيغت بك العيون ؛ ويُقال : تبيغ بك الدم ، إذا ثار وظهر في العروق .

ويُقال : لفلان على غيره بسطة ، وهي : الفضيلة في العِلم ، والجسم ، والمال ؛ قال الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) : ﴿ وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾ [1] ؛ وقريء : ﴿ بصطة ﴾ (بالصاد) ؛ وبعض العرب يحولون (السين) التي تجيء قبل (الطاء) موصولة ، أو مصورة إلى (الصاد) ؛ وبعض ذلك أحسن ؛ وبهذه اللغة قرأ القراء ، قوله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ والله يقبض ويبصط ﴾ [2] ؛ وقوله (جَلَّ جَلَالُهُ) : ﴿ وزاده بصطة ﴾ [1] ؛ وقوله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) : ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ [3] .

فصل منه

سئل النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن : الراسخين في العِلم ؟ فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : " من برت يمينه ، وصدق لسانه ، واستقامت نيته ، وعف بطنه وفرجه ، فذلك الراسخ في العِلم " .

وعنه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، أنه قال : " من فقه الرجل ، قلة كلامه فيما لا يعنيه " .

---

(١) سورة البقرة : ٢٤٧ .
(٢) سورة البقرة : ٢٤٥ .
(٣) سورة الغاشية : ٢٢ .

وعنه (ﷺ) أنه قال : " ألا أنبئكم بالفقيه ، كل الفقيه " ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال (ﷺ) : " من لم يُقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤيسهم من روح الله ، ولا يدع القرآن رغبة إلى ما سواه ، ألا لا خير في عِبادة ليس فيها تفقه ، ولا عِلم ليس فيه تفهم ، ولا قراءه ليس فيها تدبُر " .

وقال عليّ : ألا أخبركم عن الفقيه ، فإنه هو الذي لا يقنط ، إذا أقنط الناس من رحمة الله ، ولا يبخل بعِلم يكون عنده .

وقال عليّ : الفقيه كل الفقيه ، من لم يؤيس الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم في معاصي الله .

وعن محمد بن عيسى الزبيري ، قال : سمعت هشام بن عبدالله يقول : من لم يعرف إختلاف القراءات فليس بقار ، ومن لم يعرف إختلاف الفقهاء فليس بفقيه .

وقال بعض الفقهاء : الفقيه بلا ورع ، كالسراج في البيت ، يضيء ويحرق نفسه ؛ وقال عباس في هذا المعنى :

صرت كأني ذبالة نصبت تضيء للناس وهي تحترق

وقال الخليل : الرجال أربعة : فرجل يعلم ، ويعلم أنه يعلم ،

فذلك عَالِم فاسألوه ؛ ورجل يعلم ، ولا يعلم أنه يعلم ، فذلك نائم غافل فنبهوه ؛ ورجل لا يعلم ، ويعلم أنه يعلم ، فذلك جاهل فعلموه [1] ؛ ورجل لا يعلم ، ولا يعلم أنه لا يعلم ، فذلك أحمق فاجتنبوه .

وعنه في موضع آخر : أن الرجال أربعة : عَالِم فتعلم منه ؛ وجاهل فعلمه تؤجر فيه ؛ ورجل يريك أنه يعلم ، وهو لا يعلم ، فلا تناظره ؛ ورجل كان عَالِماً ، فنقلت منه عِلمه ، فذاكره تنفعه وتنتفع به .

وقال الفضل بن عياض : من فقه الرجل ، أن يكون الكلام أحب إليه من الصمت .

وقال بزرجمهر : مثل العَالِم مثل الريحانة ، الحسن منظرها ، الطيبة رائحتها ، المُزدادة طيباً بتقليبك لها ؛ وكذلك العَالِم ، إن قاربته زانك ، وإن سألته أقبسك عِلماً ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

مثل العَالِمِ إن جالسته مثل الريحان في وسط اليدِ
وهو كالعطار يُؤتي ريحه من أتاه عادياً فادي يدِ

(١) وفي نسخة أخرى : فذلك ناس فذكروه .

وكذا العَالِم إن سائلته كان فيه رشدة المُسترشدِ

وقال عبد الله بن عُمر بن زياد ، زيادة بيتين :

وإذا ما سُئل عن مسئلة أقبس السائل عِلماً يهتدي
لسبيل الحق لا يبخسه من عُلوم الدين حتى يقتدي

والعَالِم أكبر من الفقيه ؛ والفقيه : إسم مدح ، ولا يستحقه إلاَّ من كان به عَالِماً عَامِلاً ؛ وقد تقدم شيء من هذا في باب العِلم .

وعن ليث ، عن مجاهد ، قال : الفقيه من يخاف الله (عَزَّ وَجَلَّ) ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

ليس الفقيه من إذا شاورته قال أجل
إن الفقيه من يخاف ربه عز وجل
ومن يبيت ليله من ذنبه على وجل

وقال عبد الله بن عُمر :

بل يبذل النُصح ولا يخشى العلل

الباب التاسع :
في الحث على طلب العِلم وتعليمه

حث رسول الله (ﷺ) ذوي العِلم بعده ، على التعليم ، وإصلاح الألسن ، وحُسن العبادة ؛ وقال (ﷺ) : " رحم الله إمرئ أصلح من لسانه " .

وقيل : أوحى الله (عزّ وجلّ) إلى مُوسَى (عليه السلام) : يا مُوسَى بن عمران ، تعلم الخير وعلمه ، وإن مُعلم الخير ومُتعلمه ، لا يستوحشون في قبورهم .

وعن أنس بن مالك ، قال : قال النبي (ﷺ) : " إطلبوا العِلم ولو بالصين " ؛ وفي خبر آخر : " تعلموا العِلم ولو من الصين أو فلسطين " .

وعن أبي هُريرة قال : قال رسول الله (ﷺ) : " تعلموا العِلم قبل أن يُرفع ، ورفعه ذهاب أهله " .

وقال زياد بن لبيد : ذكر النبي (ﷺ) ، حديثاً ، فقال : " ذلك عند ذهاب العِلم " ؛ قال : فقلنا : يا رسول الله ، وكيف يذهب العِلم ، ونحن نقرأ القرآن ، ونُقريه أبناءنا ، ويُقريه أبناؤنا

أبناءهم ، إلى يوم القيامة ؟ فقال (ﷺ) : " ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد ، إن كنت لأراك أفقه أهل المدينة ، أوليس هؤلاء اليهود والنصارى ، يقرؤون التوراة والإنجيل ، لا ينتفعون مما فيهما بشيء " .

وعن أبو أمامة الباهلي ، بإسناد ، أن النبي (ﷺ) ، قال : " خذوا العِلم قبل أن ينفد (قالها ثلاث مرات) " ؛ قالوا : يا رسول الله ، كيف ينفد وفينا كِتاب الله ؟ فغضب (ﷺ) ، ثم قال : " ثكلتكم أمهاتكم ، أو لم تكن التوراة والإنجيل في بني إسرائيل ، ثم لم تُغن عنهم شيئاً ، ذهاب العِلم ذهاب حملته (قالها ثلاث مرات) " .

وعن مُعاذ بن جبل ، قال : سمعت من رسول الله (ﷺ) ، حديثاً ، هو عندي مخزون ، ثم بكى ، فقلنا : ما يُبكيك ؟ حدثنا به يرحمك الله ، فجثا على رُكبتيه ، فقال : أوصاني حبيبي ، وقرة عيني ، رسول الله (ﷺ) ، بطلب العِلم وتعليمه ، وقال (ﷺ) : يا مُعاذ ، طلب العِلم عِبادة ، والتفهم فيه خشية ، وذِكره تسبيح ، وتعليمك العِلم لمن لا يعلمه صدقة ، وبذلك العِلم لمن يعمل به قُربة إلى الله ؛ يا مُعاذ ، عليك بالعِلم ، فإنه الأنيس في الوحشة ، والصاحب في الغُربة ، والمُحدث في الخلوة ؛ يا مُعاذ ، تزين

بالعِلم عند الأخلاء ، وتسلح بالعِلم عند الأعداء ؛ يا مُعاذ ، رفع الله بالعِلم أقواماً ، فجعلهم للخير قادة وأئمة ، يُقتبس من نورهم ، وتُتبع آثارهم ، ويُقتدى بأفعالهم ، ويُنتهى إلى آرائهم ، والملائكة لهم أخلاء ، وبأجنحتها تمسحهم ، وتستغفر لهم الملائكة ، وحيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، وكل رطب ويابس ، من خلق رب العَالَمِين ؛ يا مُعاذ ، عليك بالعِلم ، فإنه حياة القلب من الجهل ، ونور البصر من الظلمة ، وقوة البدن من الضعف ؛ يا مُعاذ ، العِلم يبلغ بالعباد منازل الأخيار ، والدرجات العُلا ، في الدُّنيا والآخرة ؛ يا مُعاذ ، تفكر في العِلم ، فإن الفكر فيه يعدل قيام الليل ، وصيام النهار ، وأكثر مُدارسة العِلم ، فبه توصل الأرحام ، ويُعرف الحلال والحرام ، وهو إمام الخلق وقائدهم ، وهو إمام العمل ، والعمل تابعة ، ويلهمه الله عباده السُعداء ، ويحرمه عباده الأشقياء " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العِلم ، رضاً لما يطلب " .

وعن عليّ ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : " ما انتعل عبد ، ولا تخفف ، ولا لبس ثوباً ، ليغدوا في طلب العِلم ، إلاّ غفر الله له حيث يخطو عتبة باب بيته " .

وعن ابن عباس ، في قول الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ يا أيُّهَ الساحر ادع لنا ربك ﴾ [1] ، قال : أرادوا بذلك : يا أيها العَالِم ، يعظمُونه بذلك .

وقال غيره : كان السحرة عندهم عُلماء يعظمونهم ؛ والكاهن بالعبرانية : العَالِم ؛ واليهود تسمي العَالِم : كاهناً ؛ وكانو يُسمون هارون بن عمران : كاهناً رباً ، معناه : عَالِم الرب ؛ والأسقف عَالِم النصارى ؛ والمجوس يُسمون العَالِم : هرندا ، وهو مُعرب ، وهو بالفارسية : هارون .

وعن الضحكاك ، قال : طلب العِلم فريضة ، على كل حُر وعبد ، لأن الله (عَزَّ وَجَلَّ) ، قال : ﴿ كونوا ربانيين ﴾ [2] ، أي : عُلماء فقهاء .

وجاء في الآثار : أن طلب العِلم فريضة على كل مُسلم ، وعمل قليل في عِلم ، خير من عمل كثير في جهل .

وعن عكرمة ، قال : السائحون في طلب العِلم .

وعن أبو هارون العبدي ، قال : كُنا إذا أتينا أبا سعيد الخدري ، يقول : مرحباً بوصية [3] رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، إن الناس لكم تبع ، وسيأتيكم قوم يتفقهون ، فاستوصوا بهم خيراً .

---

(١) سورة الزخرف : ٤٩ .
(٢) سورة آل عمران : ٧٩ .
(٣) في نسخة أخرى : بغُصبة .

ومن كِتاب آخر : وعنه - أيضاً - : قال : كُنا إذا أتينا أبا سعيد الخدري ، قال : مرحباً بوصية رسول الله (ﷺ) ، وسمعته منه يقوله مِراراً ، فسألته عن ما أوصى ؟ فقال : قال رسول الله (ﷺ) : " سيأتي من أقطار الأرض أناسٌ ، يلتمسون العِلم ، فاستوصوا بهم خيراً " .

وعن أبو مُوسَى ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : " سيأتيكم قوم من بعدي ، يسألونكم عن حديثي ، فلا تحدثونهم إلاّ بما تحفظون ، من كذب عليَّ مُتعمداً فليتبأ مقعده من النار " .

وعن ابن جريح ، قال : إن أحب العباد إلى الله تعالى ، الغرباء في طلب العِلم .

وكان ابن مسعود ، إذا رأى الشباب يطلبون العِلم ، قال : مرحباً بكم ينابيع الحكمة ، ومصابيح الظلم ، خلقان الثياب ، جدد القلوب ، حرس البيوت ، ريحان كل قبيلة .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " عليكم بالعِلم ، فإن أحدكم لا يدري متى يختل إليه ، وعليكم بالعِلم ، وإياكم والتنطع ، والتبدع ، والتعمق " .

قال الأصمعي : يقول : متى يحتاج إليه ؛ والخلة : الحاجة ؛

قال كُثير :

فما أصبحت نفسي تنبيك مـا بها ولا الأرض لا تشكوا إليك إختلالها

يعني : حاجتها .

وعن عُمر ، قـال : تفقـهوا قبـل أن تسـودوا ؛ يقـول : تعلمـوا العِلم ما دُمتم صِغـاراً ، قبـل أن تصيروا سـادة رؤسـاء ، منظـوراً إليكم ، فإن لم تتعلمـوا قبـل ذلـك ، إسـتحييتم أن تتعلمـوه بـالكبر ، وبقيتم جُهالاً ، لا تأخذونه من الأصغار ، فيزري ذلـك بكـم ؛ وقـال محمد بن مداد في ذلك :

تعلموا العِلم أوان الصغـر فإنه كالوحي وسط الحجر
لا تطلبوا العِلـم إذا شِبتم فتستحوا أن تعلموا في الكِبر
والعِلم في الشيب على حالة أحسن من جهل قبيح مُضـر
ما من غدا في العِلم ذا مطلب كمن حوى جهلاً كثور البقر
فإنـمـا الـعِلـم بـتـطـلابــه والكدّ في تعليمه والنظر

وقـال الخليـل : مـن ضـم عِلمـه إلـى عِلـم غـيره ، كـان مـن الموصُوفين بنعت : الربانيين ؛ وقال عبد الله بن عُمر في ذلك :

من ضم عِلم الناس مع عِلمـه يكُـون موصُوفـاً بربانـــه

وحافظاً في عِلمه جامعاً ما قد حوى عِلماً بتبيانه

وقال : تكثر من العِلم لتعرف ، وتقلل منه لتحفظ ؛ ولابن بشير :

أما لو أعي كُل ما أسمع وأحفظ من ذلك ما أجمع
ولم أستفد غير ما قد جمعت لقيل هُو العَالِم المُصقع
ولكن نفسي إلى كل نوع من العِلم تسمعه تترع
ومن يكُ في عِلمه هكذا يكن دهره القهقري يرجع
وأجلس بالجهل في مجلس وكُتبي في البيت تستودع
فلا أنا أحفظ ما قد جمعت ولا أنا من جمعه أشبع
إذا لم تكن حافظاً واعياً فجمعك للكُتب لا ينفع

ولمحمد بن مداد ، في مثله ، وعلى وزنه :

وددت بأني إذا ما جمعت كِتاباً حفظت لما أجمع
وإن خصني مُسلم عَالِم بعِلم وعيت الذي أسمع
أو أنَّ الذي كان في جدتي من العِلم شايعني أجمع
إذاً لإغتديت به عَالِماً له أنتهي وبه أنفع
ولكن ما غاب عن خاطري إذا شئت لُقياه لا يرجع
وما يجمع العِلم إلاَّ إمرؤ إلى قلبه عِلمه مُودع

إذا قيل هات أنبري مُسمعاً بفاضلة الحق إذ يصدع
يُشايعه لِسنٌ مُصقع ويحضره ثابتٌ ألمع
ولكن جمعي له عدة عسى إذ أعاوده يرجع
وكي يستفيد به عَالِم نبيهٌ يفيد به مُصقع

وقال غيره :

إستودع العِلم قرطاساً فضيعه فبئس مستودع العِلم القراطيس

ولمحمد بن مداد في مثله :

وذو القياس إذا لم يحو مآثره للعِلم في القلب أعيته المقاييس
قد قاس قبلي فلم تنفعه عدته من القياس عدو الله إبليس

رجع إلى الكِتاب ؛ يُسميه : أبو حنيفة ؛ والملعون : إبليس .

وعن قيس بن كُثير ، قال : قدم رجل إلى أبي الدرداء ، وهو بدمشق ، فقال : ما أقدمك يا أخي ؟ قال : حديث بلغني أنك تحدثت به عن النبي (ﷺ) ، قال : أما لحاجة قدمت إلاّ في طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم ؛ قال : فإني سمعت رسول الله (ﷺ) ، يقول : " من سلك طريقاً ، وطلب فيه عِلماً ، سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، وأن الملائكة لتضع أجنحتها ، رضىً لطالب العِلم ، وأنه

ليستغفر للعُلماء من في السموات ومن في الأرض ، حتى الحيتان في الماء ، وفضل العَالِم على العابد ، كفضل القمر ليلة البدر ، على سائر الكواكب ، إن العُلماء هُم ورثة الأنبياء ، لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العِلم ، ومن أخذ به ، أخذ بحظ وافر " .

وقال بعض العُلماء : من رق وجهه عن طلب العِلم ، رق عِلمه ؛ وقال عبد الله بن عُمر بن زياد :

ومن في طلاب العِلم قد رق وجهه يرق به العِلم الذي هو طالبه
ولا يسأمن عند السؤال لنيله ليدرك ما قد شاءه ويغالبه

قال روبة بن العجاج : أتيت النسابة البكري ، فقال لي : من أنت ؟ فقلت : أنا ابن العجاج ؛ قال : ما أتى بك إلينا ؟ قال : قلت : العِلم ؛ قال : لعلك من قوم يأتوننا ، إن سكتنا لم يسألونا ، وإن حدثنا ، لم يعوا عنا ؟ قلت : أرجوا أن لا أكون منهم ؛ قال : فما أعداء المروءة ؟ قلت : للعِلم أتيت ؛ قال : بنو عمّ السوْ ، إن رأوا حسنة دفنوها ، وإن رأوا سيئة أذاعوها ؛ ثم قال : يا روبة ، إن للعِلم آفة ، وهجنة ، ونكداً ؛ فأما الآفة : فنسيانه ؛ وأما الهجنة : فنشره في غير أهله ؛ وأما نكده : فالكذب فيه .

وعن أرطأه بن المُنذر ، قال : لا يزال المـرء مُتعلمـاً ، مـا دام في الدُّنيا ، فإذا قال : قد إكتفيت ، فـهو أجـهل مـا يكـون بـأمر الله تعالى ؛ وقال محمد بن مداد :

ما أجمل المرء ما دام الحياة بـه ... بـأن يكـون لفضـل العِلـم طلابا
فإن رأيت الفتى إستغنى بحكمته ... فاعلم بأن إليه الجــهل قد ثابا
لا تترك العِلـم إهمـالاً بحفظكـه ... ما دُمت حياً ولـو قطعت أرابا
إن المكارم كلا في الطلاب لـه ... مـا خاب حامل نور العِلم ما خابا

قال إسماعيل : العجب كل العجب ، لمن لا يطلب العِلـم ، كيف تدعوه نفسه إلى مكرمه .

ويُقال : العِلم أوسع من العُمر ، فمهما عَمرَ المـرء ، فواجب عليه طلب العِلم .

وعن عون بن عبد الله ، قال : أن رجلاً أتى أبـا ذر الغفـاري ، فقال : يا أبا ذر ، إني أريـد أن أتعلـم العِلـم ، وأخـاف أن أضيعه ، فقال له : تعلم العِلم ، فإنك أن توسد العِلم ، خير لك مـن أن توسد الجهل ؛ ثم جاء إلى أبي الدرداء ، فقال له مثل ذلك ، فقال لـه أبو الدرداء : تعلم العِلم ، فإنك إن تمت عَالِماً ، خير لك مـن أن تموت جاهلاً .

وعن ابن مسعود ، قال : منهُومان لا يشبعان : طالب عِلم ، وطالب دُنيا ؛ أما طالب العِلم : فإنه يزداد للرحمن رضىً ، ثم قرأ قوله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ إنما يخشى الله من عِباده العلماء ﴾ (١) ؛ وأما طالب الدُّنيا : فيزداد طغياناً ، ثم قرأ قوله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى ﴾ (٢) ؛ وخير أيام المرء ، أيام أفناها في طلب العِلم ودرسه ؛ وقال عبد الله بن عُمر بن زياد :

خير أيام إمرء فيما فناها — في طلاب لعُلوم قد وعاها
درك المأمول فيها جهده — وعصى النفس لمطلوب هواها

رجع ؛ قال عبد الله - لعله : إبن عباس - : والذي لا إله غيره ، لو أعلم أحداً ، أعلم بكِتاب الله (عَزَّ وَجَلَّ) ، متى تبلغنه الإبل لرحلت إليه ؛ وفي خبر : لأتيته .

قال أفلاطون : مُحب الشرف : هو الذي يتعب نفسه بالنظر في العِلم .

وقال بعض الحُكماء : عليك بالعِلم والإكثار منه ، فإن قليله أشبه شيء بقليل الخير ، وكثيره أشبه شيء بكثير الخير ، ولن يغيب الخير إلاّ القلة ، فأما كثرته فإنها الأمنية .

---

(١) سورة فاطر : ٢٨ .
(٢) سورة العلق : ٦ ـ ٧ .

وقال عليّ بن أبي طالب : إنما زهد الناس في طلب العِلم ، لما يرون من قلة إنتفاع من عمل بما عَلِم .

وقال بعض الحُكماء : لا تتعلموا العِلم لثلاث ، ولا تتركوه لثلاث ؛ لا تتعلموه للتداري ، ولا للتماري ، ولا للتباهي ، ولا تدعوه رغبة عنه ، ولا رضىً بالجهل منه ، ولا إستحياء من التعلم ؛ فالتداري : هو التنازع والتدافع ، والأصل فيه : التدارأ ، فترك (الهمزة) ، ونقل الحرف إلى التشبيه بالتقاضي والتداعي ، تدارأ القوم تدارأوا ؛ وادارؤوا : إذا إختلفوا وتنازعوا ، قال الله (سبحانه وتعالى) : ﴿ وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ﴾ (١) .

وقال أبو عبد الله (رحمه الله) : من تعلم العِلم ليُباهي العُلماء ، ويُماري به السُفهاء ، فهو في النار ؛ وفي خبر : من طلب العِلم لغير الله ، وأراد به غير الله ، فليتبوأ مقعده من النار ؛ وفي خبر : من طلب العِلم ليُصيب به عرضاً من الدُنيا ، لم يجد عُرف الجنة يوم القيامة ؛ وفي خبر : لا تتعلموا العِلم لتباهوا به العُلماء ، ولا تماروا به السُفهاء ، ولا تخيروا به المجالس ، فمن فعل ذلك فالنار النار .

وعن أم سلمة ، قالت : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " من تعلم

(١) سورة البقرة : ٧٢ .

عِلماً ليُرائي به الناس ، فهو في النار " .

ويُقال : إن الرجل ليطلب العِلم لغير الله ، فيأبى أن يكون إلاّ لله (عَزَّ وَجَلَّ) .

وعن شقيق ، أنه قال : تعلمنا العِلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلاّ لله (عَزَّ وَجَلَّ) .

وقال عبد الله بن المُبارك : طلبنا العِلم للدُّنيا ، فدلنا على ترك الدُّنيا .

وعن جابر بن زيد ، قال : أن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، قال : " من تعلم العِلم ليُباهي به العُلماء ، أو يُماري به السُفهاء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه ، فهو في جهنم " .

وكان عبد السلام بن ربيع ، يقول : لا تطلب العِلم رياء ، ولا تتركه حياء .

وقال الخليل : يرتع الجهل بين الحياء والكبر في العِلم ، والعِلم بالتعليم ، بدليل قول الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) : ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾ (١) ؛ ألا ترى الملائكة ، على قربهم من الله تعالى ، ومنازلهم منه (عَزَّ وَجَلَّ) ، قالوا ذلك ؛ وقوله (جَلَّ جَلَالُهُ) لنبيه :

---

(١) سورة البقرة : ٣٢ .

﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ [1] .

فصل منه

وعن ابن عباس ، في قول الله (عز وجل) : ﴿ فهل من مدكر ﴾ [2] ، قال : فهل من طالب عِلم فيعان عليه ؛ وقيل : هل من مُزدجر عن معاصي الله .

وعن مكحول ، في قول الله (عز وجل) : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ [3] ، يعني به : طلب العِلم .

ويُقال : أن الحسن بن إدريس ، عطش في بعض أسفاره ، في طلب العِلم ، فاستسقى ، فأتى بكوز فيه ضفدع فاكله ، فأخذه وشربه ، ثم قال :

ألا إن هذا العِلم ليس بمدرك   براحة نفس قد تصان وتودع
وطالب هذا العِلم يستحمل الأذى   ويشرب بالكوز الذي فيه ضفدع

وعن ابن عباس ، قال : سمعت النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول : " اللهم

(١) سورة النساء : ١١٣ .
(٢) سورة القمر : ١٥ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٥١ .
(٣) سورة الجمعة : ١٠ .

إرحم خلفاءنا " ؛ قلنا : يا رسول الله ، من خلفاؤكم ؟ قال (ﷺ) : " الذين يأتون بعدي ، يروون أحاديثي وسُنتي ، ويُعلمونها الناس " ؛ وفي خبر آخر : " الذين يُحِبُون سُنتي ، ويُعلموها عِباد الله " .

وفي الحديث : " ما من عاشية أدوم وأنقى ولا أبعد ، إلاّ من عاشية عِلم " ؛ والعشو : إتيانك النار ترجوا عندها خيراً وهُدى ؛ وقال الحُطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره   تجد خير نار عندها خير موقد

وفي الحديث : " أغد عَالِماً أو مُتعلماً ، ولا تكن إمعة " ؛ والإمعة : الذي يقول لكل أحد : أنا معك ؛ ويُقال : هو الأحمق ؛ وقال عليّ بن أبي طالب :

ولست بإمعةٍ في الرجال   أسائل ماذا وذا في الخبر

وعن ابن عباس ، قال : العِلم أكثر من أن يُؤتى على آخره ، فخذوا من كل شيء أحسنه .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " العِلم أكثر من أن يُدرك ، فخذوا من كل شيء أحسنه " ؛ وقال عبد الله بن عُمر بن زياد في ذلك :

العِلم بحـر ليـس يُـؤتـى جُـمـلـةً لكن خذوا من كل شيءٍ أحسنه

وعن أنس بن مالك ، قـال : قـال رسـول الله (ﷺ) : " الفقـه في الدِّين حق على كل مُسلم ، ألا فتعلمـوا ، وعَلِمُـوا ، وتفقـهوا ، ولا تموتوا جُهالاً " .

وعـن أنـس ، أنـه سـمع رسـول الله (ﷺ) ، يقـول : " ألا أن طلب العِلم فريضة " .

قيل لأنوشروان : ما بالكم لا تستفيدون مـن العِلـم ، إلاّ زادكم ذلك عليه حِرصاً ؟ قال : لأنا لا نستفيد منه شيئاً ، إلاّ إزددنا بعظم معرفته عِلماً ؛ قيل : فما بالكم لا تأنفون من التعليم من كـل أحد ؟ قال : لعِلمنا بأن العِلم ينفع من حيث أخذ .

وقيل لبزرجمهر : بم أدركت ما أدركت من العِلم ؟ قال : بتبكير كتبكير الغراب ، وصبر كصبر الحِمار ، وحرص كحرص الخنزير .

وقيل لآخر : بم أدركت ما أدركت من العِلم ؟ قال : بقلب ذكي ، ولب غني .

وقيل لابن الكلبي : بم بلغت ما بلغت ؟ قـال : بلسـان سؤول ، وقلب عقول .

وروي ذلك ـ أيضاً ـ عن ابـن عبـاس ، وكـان يُقـال : مـا إزداد أحد عِلماً إلاَّ إزداد عليه حرصاً ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

مـا إزداد عِلمـاً عَـالِم ... إلاَّ وزاد بـذاك حرصـا
وكذاك يستشـفى المريـض ... علـى الطبيـب إذا تقصـا
وأخـو الجـهالـة إن أعب ... للحفـظ عنـه قـال حـرصـا

وقف بعض المُتعلمين بباب عَالِم ، ثـم نـادى : تصدقـوا علينـا بما لا يتعب ضرسـاً ، ولا يسـقم نفسـاً ، فـأخرج لـه طعـام ؛ قـال : حاجتي إلى كلامكم ، أحوج من حاجتي إلـى طعـامكم ، إنـي طـالب هُدى ، لا طالب ندى ، فأذن له العَالِم ، وأفاده عن كل ما سأل عنه ، فخرج جذلان فرحاً ، وهو يقول : عِلم أوضح لِبساً ، خير من مـال أغنـى نفسـاً ، والأكبر أولـى بـالتعليم مـن الأصغـر ، لأن الأولـى بالكبير أن يكون شيخاً مُتعلماً ، ولا يكون شيخاً جاهلاً .

وحكي : أن بعض الحُكماء ، رأى شيخاً يحب النظر في العِلم ، فقال : يا هذا أتستحي أن تكون في آخر عُمرك ، أفضـل ممـا كُنـت في أوله ، لأن الصغير أعذر ، وإن لم يكن في الجهل عذر .

وقيل في الحكمة : جهل الشباب معذور عليـه محقـور ، فأمـا الكبير فالجهل به أقبح ، ونقصه عليه أفضح ، وليكن طـالب العِلـم

راغباً راهباً ؛ أما الرغبة : ففي ثواب الله ؛ وأما الرهبة : فمن عِقاب الله .

وقالت الحُكماء : أصل العِلم الرغبة ، وثمرته السعادة .

وقال بعض الحُكماء : العُلوم مطالعها من ثلاثة أوجه : قلب مُفكر ، ولسان مُعبر ، وبيان مُصور .

وقال الإسكندر : يحتاج طالب العِلم إلى أربع : مُدة ، وحدة ، وقريحة ، وشهو ؛ وتمامها في الخامسة : مُعلم ناصح ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

إن إحتياج العِلم في أربع ... معلومةٍ أولها المُدة
وجدة في العِلم مبسُوطة ... وشهوة في طلب الرشدة
ورابع الأشياء أن تحتوي ... قريحة تبرأها عدة
وعَالِم ذا مقة ناصح ... مُوافق في اللين والشدة

قال : وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " منهُومَان لا يشبعان : طالب عِلم ، وطالب المال " .

وعن أنس ، قال : بلغني أن النبي (ﷺ) ، قال : " أيها الناس ، إنما هو منهومان ، فمنهوم في المال لا يشبع ؛ ومنهوم

في العِلم لا يشبع " ؛ المنهوم : المُولع بالشيء لا يشبع منه .

فصل منه

روي هشام : أن مُعاذ بن جبل ، قام خطيباً ، فقال : يا أيها الناس ، تعلموا العِلم قبل أن يُرفع ، ألا وأن رفعه ذهاب أهله ، ألا وإياكم والبدع ، وعليكم بأمركم العتيق ، والبدعة بدعتان : بدعة حسنة ، وبدعة لا تجوز ؛ ومعنى البدعة : أنه يفعل شيئاً ما لم يكن قبل ؛ والله تعالى بديع السماوات والأرض ، إبتدعهما وما بينهما ، ولم يكونا شيئاً ؛ والبدع : الشيء يكون أولاً في كل أمر ، كما أنزل في هذه الآية : ﴿ قل ما كنت بدعا من الرسل ﴾ (١) ، أي : لست بأول مُرسل ؛ وقال الشاعر :

فلست ببدع من النائبات ونقض الأمور وإبرامها

ويُقال : الأمر الأول الذي لا يتقدمه مثله : بدع ، وبديع ؛ قال الشاعر :

لا تلوموا فلست في الحب بدعاً لم ألاق الهوى من الناس وحدي

وقال الأحوص :

(١) سورة الأحقاف : ٩ .

فخرت وانتمت فقلت انظريني ليس جهلاً أتيته ببديعي

وأصل البدع : ما قد ذكرته ، ثم كثر في كلامهم ، حتى قالوا للجديد : بديع ؛ والبدعة : إسم ما قل إبتدع من الدين ، وغيره ؛ تقول : جئت بأمر بديع عجيب ؛ والتنطع : التعمق في الكلام ؛ وقال :

إذا غلب الشقاء على سفيه تنطع في مُخالفة الفقيه

وجمع البدعة : بدع .

ويُروى عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " إذا ظهرت البدع ، فليُظهر العَالِم علمه ، فإن لم يفعل ، فعليه لعنة الله ، ولعنة اللاعنين ، إلاّ أن يكون له عذر ، لا يُقبل منه صرف ولا عدل " ؛ الصرف : الفريضة ؛ والعدل : النافلة .

وقيل : حفظ مسألة ، خير من عبادة ستين سنة ، وذلك في الأصول ؛ وأقل ما قيل : حفظ مسألة من سائر العُلوم ، خير من عبادة سنة .

وقيل : من لم يتعلم لم يتق ، ومن لم يتق هلك .

وقال عبد الله : تعلموا ، فإذا تعلمتم ، فعلموا واعلموا ؛ وقال :

إذا تعلمتم عِلما فـاكضموا عليـه ، لا تخلطـوه بضحـك ولا ببـاطل ، فتمحقه [1] القلوب ؛ وقال : سيجيء قوم يشربون العِلم شـرباً ، لا يجاوز حناجرهم .

فصل منه

وتعليم العِلم فريضة في كِتاب الله (عَزَّوَجَلَّ) ، قوله تعالى : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفـر مـن كـل فرقـة منـهم طائفـة ليتفقهوا في الدين ﴾ [2] ؛ وذلك أنه كان الناس في عهد رسول الله (ﷺ) ، يخرجون جميعاً في الجهاد ، فنزلت هذه الآيـة ، ترغيبـاً منـه (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) لهـم فـي العِلم ، أن يُـقيم بعضهم ، ويغزوا بعضهم ، فيقدم الغازون ، فيخبرهم القاعدون بما أحدث الله (عَزَّوَجَلَّ) إلى نبيه (ﷺ) ، وهو قوله تعالى : ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ [3] .

وبلغنـا : أن أعمـال الـبر كلـها ، عنـد الجـهاد فـي سـبيل الله ، كتفلة في بحر ؛ وأعمال البر كلها ، والجهاد فــي سبيل الله ، عنـد الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر ، كتفلة فـي بحـر ؛ وكـل ذلـك عند طلب العِلم ، كتفلة في بحر .

---

(١) في نسخة أخرى : فـتمجـه .
(٢) سورة التـوبـــة : ١٢٢ .
(٣) سورة التـوبـــة : ١٢٢ .

مسئلة : وعلم الناس بفرض تعلم العِلم هو وقت له ، وتعليم باب من العِلم ، أفضل من مائة [1] ركعة ؛ وتعليم الرجل الرجل باباً من العِلم ، أفضل من ألف ركعة ؛ وحفظ مسألة ، خير من عبادة ستين سنة ؛ وقيل : أكثر من ذلك .

قال أبو محمد (رحمه الله) : هي المسألة التي على الإنسان فرض ، مثل : التوحيد ، وما لا يسعه جهله ، مما لا يعذره الله ، مما يكون به خلاصه من النار .

وعن الوضاح ، قال : حفظ مسألة ، خير من عبادة مائة سنة .

وعن أبو أيوب الأنصاري ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : " مسألة واحدة يتعلمها المؤمن ، خير له من عِبادة سنة ، وخير له من عتق رقبة من ولد إسماعيل ، وأن طالب العِلم ، والمرأة المُطيعة لزوجها ، والولد البار لوالديه ، يدخلون الجنة مع الأنبياء بغير حساب " .

وأفضل الأشياء بعد الفرائض : طلب العِلم ، وهو - أيضاً - من الفرائض ، إذا لم يطلبه طالبه لمُباهاة ، ولا لمُماراة ، ولا لذِكر في الناس ، ولا لعظم قدر وجاه ، فمن طلبه لذلك ، فهو خاسر وهالك ؛ وقد قال بعضهم :

---

(١) في نسخة اخرى : ألف .

إني رأيت الناس في دهرنا   لا يطلبون العِلم للعِلم
إلاّ مُباهاة لإخوانهم   وحجة للخصم والظلم

وكان بعض العُلماء ، يقول : تعلموا العِلم ، فإن كُنتم ملوكاً فقتم ، وإن كُنتم وسطاً سدتم ، وإن كُنتم سُوقة عِشتم .

وقال هارون بن المأمُون لأبيه : ما حد التعليم ؟ قال : الحياة ؛ وقال بعض الحُكماء لبنيه : يا بُني ، تعلموا العِلم ، فإن لم تنالوا به من الدُنيا حظاً ، فلأن يذم الزمان لكم ، أحب إليَّ من أن يذم الزمان بكم ، وخير التعليم ما كان في الصغر .

وسمع الأحنف بن قيس رجلاً يقول : التعليم في الصغر كالنقش على الحجر ، فقال الأحنف : الكبير أكبر عقلاً ، ولكنه أشغل قلباً .

وروي عن أبي الدرداء ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " مثل الذي يتعلم في صغره ، كالوشي على الحجر ، والذي يتعلم في الكبر ، كالذي يكتب على الماء " .

وقال عليّ : قلب الحدث كالأراضي الخالية ، ما ألقى من الشيء فيها قبلته .

وقال يحيى : الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ، ويحدثون

بأحسن ما يحفظون ، ويحفظون أحسن ما يكتبون .

قال الأصمعي : رآني أعرابي وأنا أطلب العِلم ، فقال لي : يا أخا الحضر ، عليك بلزوم ما أنت فيه ، فإن العِلم زين للمجلس ، وصلة للإخوان ، وصاحب في الغربة ، ودليل على المروءة ، ثم أنشأ يقول :

تعلم فليس المرء يُولَدُ عَالِماً وليس أخو عِلم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا عِلم عنده صغير إذا إلتفت عليه المحافل

وقال - أيضاً - رآني أعرابي وأنا أكتب كل ما أسمع ، فقال :

ما أنت إلاَّ الحفظة تكتب لفظ اللفظة

وقال - أيضاً - رآني أعرابي وأنا أكتب كل ما أسمع ، فقال لي : أنت حتف الكلمة الشاذة .

وقال بعضهم : كنت عند بعض العُلماء ، فكنت أكتب بعضاً وأدع بعضاً ، فقال : أكتب ما تسمع ، فإن أحسن ما تسمع ، خير من مكانه أبيض .

وقال عُمر (رحمه الله) : تعلموا العِلم ، وتعلموا للعِلم السكينة والحلم ، ولا تكونوا من جبابرة العُلماء ، فلا يقوم عِلمكم بجهلكم .

وعن أبي الدرداء ، أنه قال : أغدُ عَالِماً أو مُتعلماً ، ولا تكن الثالث فتهلك .

وعن الحسن ، قال : يا ابن آدم ، لا عَالِم ولا مُتعلم ، طغيت والله .

وقال سفيان : أول العِلم الإنصات ، ثم الإستماع ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر .

وقال قتادة : لو إكتفى أحد من العِلم ، لإكتفى نبي الله مُوسَى (عليه السلام) ، حيث قال : ﴿ هل أتبعك على أن تعلمن مما عُلمت رشدا ﴾ (١) .

وقيل : لما خرج مُوسَى (عليه السلام) إلى الخضر ، إنتهى إلى البحر ، فإذا هو به قائم فوق الماء ، فلما رأى مُوسَى ، قال : مُوسَى نبي بني إسرائيل ؟ قال : نعم ؛ قال : لقد كان لك في التوراة عِلم ، وفي بني إسرائيل شغل ؛ وقيل : وجده قائماً يُصلي وعليه جبة من صوف ؛ وزعم مُقاتل : أن إسمه : اليسع ، وسُميً اليسع : لأن عِلمه وسع سبع سماوات وسبع أراضين ؛ قال له مُوسَى : ﴿ هل أتبعك على أن تعلمن مما عُلمت رشدا ﴾ (١) ،

(١) سورة الكهف : ٦٦ .

يعني : عِلمـاً ؛ قـال مُقـاتل : قـال الخضـر : كفـى بـالتوراة عِلماً ، وببنـي إسرائيل شغلاً ،فأعاد عليه مُوسَـى (عليه السلام) الكـلام ؛ فقـال الخضر : ﴿ إنك لن تستطيع معي صبرا ﴾ [1] .

فصل منه

إختلف النـاس في تعليـم القـرآن والعِلـم ، أيـهما أفضـل ؛ فقـال بعضهم : تعليم القرآن أولى ، لأنـه الأصل ، ومنـهم أبو مـعاوية .

وقال مُوسَى : تعليم العِلم أولى ، لأن القرآن يُوجد من الثقـات وغير الثقات ، والعِلم لا يوجد إلاّ من الثقات ، ومنـهم سُـليمان بـن عُثمان .

وقد روي : أن رجلاً جاء إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقـال : يـا رسـول الله ، علمنـي العِلم ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " إذهـب فتعلـم القـرآن " ؛ ثـم عاد فقال له في الثانية مثل ذلك ، فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم) مثل ذلـك ، ثم عاد فقال له في الثالثة مثل ذلك ، ثم عـاد فقـال لـه فـي الرابعـة مثل ذلك ؛ فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم) : " إقبل الحـق ممـن جـاءك بـه ، أجنبياً كان أو قريباً ، واردد الباطل على من جاءك به ، حبيباً كان أو بغيضاً ، وتعلم القرآن ، ومل معه حيث ما مال " .

(١) سورة الكـهف : ٦٧ .

وتعليم القرآن فرض على الكفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الباقين الفرض ، إلاَّ ما تُقام به الصلاة .

وقال النبي (ﷺ) : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه ، وتعليم القرآن فرض على كل ذي حلم " .

وقال سُفيان بن عُيينه : أحوج الناس إلى العِلم وطلبه العُلماء ، لأنهم أعلام يُقتدى بهم .

قيل : أوحى الله إلى داود (عليه السلام) : إتخذ نعلين من حديد ، وعصى من حديد ، واطلب العِلم حتى تنكسر العصى ، وينخرق النعل ؛ وقال محمد بن مداد :

لقد أوحى الإله إلى ابن إيشا	عليه صلاة خالقه المجيد
أيا داود خذ نعلي حديد	وَجُدَّ وخذ عصي لك من حديد
بجهدك في طلاب العِلم حتى	تبيدهما على الأبد الأبيد
بصين الصين أو بجبال نوس	أو السدين أو هند الهنود

وفي مُناجاة مُوسَى (عليه السلام) ، أنه قال : يا رب ، أي من عبادك أعلم ؟ قال : من يزداد عِلم الناس إلى عِلم نفسه ؛ ويُقال : لا يكون عَالِماً حتى يكون مُتعلماً .

وقال ابن محبُوب : لايزال العَالِم عَالِماً ما دام يتعلم ، فإذا رأى أنه قد إستغنى ، فهو جاهل ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

يقول ابن محبُوب تعلم ولا تدع ... وكيف ينال العِلم إن لم تعلم
وكل من إستغنى عن العِلم جاهل ... غبي ونيل العِلم بعد التفهم

وعن سُفيان بن المُسيب ، قال : كنت أسير الأيام والليالي ، في طلب العِلم والحديث الواحد ، حتى أسمعه .

وعن عكرمة ، في قول الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ﴾ (١) ، قال : إن إسمه : ضمرة بن العيص ؛ قال : طلبت إسمه أربع عشرة سنة ، حتى وقفت عليه .

ويُقال : اطلب العِلم من مضانها إلى مواضعها ، التي تظن بها ، وتعرف وتطلب ؛ ويُقال : موضع كذا وكذا ، مظنة من فلان ، أي : معلم ومعدن ؛ وقال النابغة :

وإن مظنة الجهل الشباب

والمظنة : المنزل ؛ وقال آخر :

موسُومة بالحُسن ذات حواسد ... إن الحسان مظنة للحسد

(١) سورة النساء : ١٠٠ .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه جاءه رجل من مُراد ، يُقال له : صفوان بن غسان المُرادي ، وهو مُتكيء على بُرد له أحمر في المسجد ؛ فقال : يا رسول الله (صلى الله عليك) ، إني جئت أطلب العلم ، فقال (ﷺ) : " مرحباً بطالب العِلم ، إن طالب العِلم ، لتحف به الملائكة (صلوات الله عليهم) ، وتكنه بأجنحتها ، فيركب بعضها على بعض ، حتى تبلغ إلى قوائم العرش ، ويستغفرون له ، ويُصلون عليه ، ويترحمون عليه ، لفرحهم بما يطلب " .

وعن أبو أمامة الباهلي ، عن رسول الله (ﷺ) ، أنه قال : " يا أيها الناس تعلموا ، يا أيها الناس تعلموا ، يا أيها الناس ، عليكم بالعِلم قبل أن يُرفع ، وقبل أن يُقبض ، والعَالِم والمُتعلم كهذه من هذه - وجمع بين أصبعيه : الوسطى والتي تليها - شريكان في الخير ، ولا خير في سائر الناس " .

وقال بعض الحُكماء : الناس ثلاثة : قدوة ، ومُقتد ، والثالث لا أفلح ؛ وقال آخر : العَالِم من ذهب ، والمُتعلم من فضه ، والثالث من نحاس ، لا خير فيه .

وقال الأزدي : الناس ثلاثة : عَالِم مُرتفع ، ومُتعلم مُتبع ، وما خلاهما مُتنفع ، فقده أحسن به وبأهله من وجدانه ؛ وقال محمد بن مداد :

الناس عندي ثلاثة رجل علاّمة بالعُلوم مُرتفع
ودونه عَالِم يُسائل عن ما لم يعيه فذاك مُنتفع
وثالث غرة بطالته فذاك مثل الحمار مُنتقع
وجدانه مثل فقده وهو من عماية الجهل خده صرع

وعن عليّ ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " ما إنتعل عبد قط ، ولا تخفف ، ولا لبس ثوباً ، ليغدوا في طلب العِلم ، إلاّ غُفر له حيث يخطوا عتبة باب بيته " .

وقال (ﷺ) : " من خرج من باب بيته ، يُريد مسجدي ، لا يُريد إلاّ لتعليم خبر ، أو يعلمه ، كان بمنزلة المُجاهد في سبيل الله (عَزَّ وَجَلَّ) " .

وقال أبو الدرداء ، وأبو ذر ، وأبو هُريرة : باب من العِلم نتعلمه ، أحب إلينا من مائة ركعة تطوعاً ؛ وسمعنا رسول الله (ﷺ) ، يقول : " إن الموت إذا جاء طالب العِلم ، وهو على هذه الحال ، مات شهيدا " .

وعن ابن عباس ، قال : سمعت رسول الله (ﷺ) ، يقول : " من تعلم عِلماً ليعمل به ، أو يُعلمه غيره ، كان له أجر سبعين شهيدا " .

وقال (ﷺ) : " إذا جلس العَالِم على فراشه ، فنظر في عِلمه ساعة ، كان أفضل من عبادة المُؤمن عاماً واحداً " .

وبلغنا : أن رجلاً جاء إلى النبي (ﷺ) ، فقال : يا رسول الله (صلى الله عليك) ، علِمني من غرائب العِلم ؛ قال (ﷺ) : " فما صنعت في رأس العِلم ؟ " ؛ قال : يا رسول الله ، وما رأس العِلم ؟ قال : عرفت الله ؟ قال : نعم ؛ قال : فما صنعت في حقه ؟ قال : ما شاء الله ؛ قال : هل عرفت الموت ؟ قال : نعم ؛ قال : فما أعددت له ؟ قال : ما شاء الله ؛ قال : " فانطلق فتعلم رأس العِلم ، ثم تعال فتعلم غرائبه " .

فصل في تعليم الأدب

وعن قتادة ، في قول الله (عز وجل) : ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ [1] ، قال : خلق السماوات فزينها بالكواكب ، وخلق الأرض فزينها بالنبات ، وخلق ابن آدم فزينه بالأدب .

قال رسول الله (ﷺ) : " ما نحل والد ولداً نحلاً ، خير من الأدب " .

(١) سورة السجدة : ٧ .

قال عبد الله بن الزبير : تعلموا الأدب ، فإن كنتم أغنياء ، كان لكم جمالاً ، وإن كنتم فقراء ، كان لكم مالاً ؛ وقال محمد بن مداد :

وتعلم الأدب الشريف فإنه مال لمن أمسى فقيراً عائلا
وإذا الغني به تحلا زانه وهو الجمال لمن يعلم سائلا

ونظر صالح بن عليّ العباسي ببغداد ، إلى العباسيين وما صنعوا من أنفسهم ، قال :

سوء التأدب أرداهم وأنزلهم وقد يشين صحيح المنصب الأدب

قيل لبعض الأدباء : متى يكون الأدب أضر ؟ قال : إذا كان العقل أنقص .

وقال ابن المُبارك : أربعة يسود بهن المرء : العِلم ، والأدب ، والفقه ، والأمانه .

وقال رجل لبعض الأنبياء : من أدبك ؟ فقال : أدبني رب هذه وهذه - وأومئ بيده إلى السماء والأرض - فقال الرجل : أمنت بخالقهما .

ورأى أعرابي رجلاً من قريش يطلب الأدب ، فقال له : يا أخا قريش ، أطلب الأدب ، فإنه دليل على المروة ، وزيادة في العقل ،

وصلة في المجلس ، وأنشد :

من كان للدهر حدثاً في تصرفه أهدت له صفوة الأيام تجريبا
من كان خلواً من الأداب سربله كر الليالي والأيام تأديبا

ومثله قول آخر :

من لم يُؤدبه والداه أدبه الليل والنهار

وقيل : الشرف شرفان : شرف الحسب : وهو محتاج إلى شرف الأدب ؛ وشرف الأدب : وهو مستغن عن شرف الحسب ، ومصدقه قول الشاعر :

كن ابن من شئت واصطنع أدباً يُغنيك محموده عن سائر النسب

والأدب أدبان : أدب درس ، وأدب نفس ؛ فأدب النفس أفضل من أدب الدرس ؛ وقال الشاعر :

أدب المرء كلحم ودم ما حواه جسد إلاَّ صلح
لو وزنتم بأديب واحد ألف ألف من ذوي الجهل رجح

وقال محمد بن مداد في ذلك :

لا أقل الله من أهل الأدب فإليهم مُنتهى كل الحسب

لو وزنا بأديب واحد ألف ألف من رعاع لغلب
إنما الناس تراب وحصى وهم كالدر حسنا والذهب

وقال آخر :

كأنه من سوء تأديبه عُلمَ [1] في كِتاب سُوء الأدب

حكي : أن فتىً من بني هاشم ، تخطى رقاب الناس ، عند ابن أبي داود ، فقال له : يا بُني ، إن الأدب ميراث الأشراف ، ولست أرى عندك من سلفك إرثا ؛ وقال أبو الفتح البستي :

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته لتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

فصل منه

والأدب هو رياضة النفس على طاعة الله (عَزَّوَجَلَّ) ؛ والأدب : هو حلا اللسان ، وجلالة الإنسان ، وبه يصح البيان ، وإتضح البُرهان ، وهو مادة العقل ، وكمال الفضل ، وفيه قوة العِلم ، وبه يُقرب الفهم ، ويجب أن يبتديء به الإنسان ، ليُقيم به اللسان .

وقد روي عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " من تعلم العِلم قبل

(١) في نسخة اخرى : ادّب .

الأدب ، فقد إستعد أن يكذب على الله (عَزَّ وَجَلَّ) ، وعلى رسوله (ﷺ) " ؛ وذلك أن من لم يكن للأدب عارفاً ، كان للعُلوم مُصحفاً ، وللكلام مُحرفاً ، فلا يخلوا من تحريم حلال ، وتحليل حرام ، إذ الصواب مضبوط بحركات الإعراب ، وباللحن ، والتصحيف ، والتبديل ، والتحريف ، تكون الضيعة والكُفر معاً .

وقال زهير لرجل : تعلم النحو ؛ قال : وأي شيء أصنع بالنحو ؟ قال : إن بني إسرائيل كفرت في كلمة ، أنزلها الله تعالى في الإنجيل ، وهي قوله : أنا وَلّدّتُ عِيسَى ، فقروٰها مُخففة : أنا وَلَدتُ عِيسَى ، فكفروا ؛ وقال الله تعالى لِعيسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) : أنت نبي وأنا وَلّدّتُكَ ، فحرفته النصارى ، فقرأوا : أنت بني وأنا وَلَدتُكَ .

وكذلك ما روي عن ابن عباس ، حين بلغه أن معاوية أوتر بركعة ، فقال : ويحه من أين له هذا الجماز ، أي : هذا النُقصان ، فقرأه بعض المُتعلمين : هذا الحمار ؛ فصُحف أقبح تصحيف ، فأثار بذلك فتنة عظيمة .

وعن أبو عمرو الشيباني ، عن أبيه ، عن جده ، قال : أن غلاماً وقف بين يدي الحجاج ، وعليه خمار أمه ، فقال : أصلح

الله الأمير ، مات أبي ، وأنا أحمل ، وماتت أمي وأنا في نفاسها ، فنحن على المُسلمين إلى أن قمت مقامي هذا ، وكانت لي ضيعة ، فغلبنا عليها ناس ، وفي الأمير ما أخذ المظلوم من المظالم ، وليس على حق أمرء تواء وإن نأى ؛ فقال الحجاج : يا غلام ، أصرف المؤدبين عن محمد بن الحجاج ، فإن الأدب أدب الله (عز وجل) ، إلتواء ممدود ذهاب مال لا يُرجى ، والفعل : توى ، يتوي : إذا ذهب ماله ؛ ويقول : توى الرجل ، أي : ذهب ماله ؛ ويقول : أتوى الرجل ، هذا عن الخليل ؛ قال أبو العباس أحمد بن محمد بن الوليد : إلتوي (مقصور يُكتب بالياء) ؛ وكذا وجدت - أيضاً - عن غيره : أنه مقصور ؛ قال ابن دريد :

إذا ذوي الغصن الرطيب فاعلمن　　　أن قصاره نفادُ وتوى

فصل منه

روى أبو عُبيدة ، بإسناد له ، عن عبد الله ، قال : أن كل مُؤدب يجب أن يُؤتى أدبه ، وأن أدب الله القرآن ؛ والأدب مأخوذ من المأدبة ، والمأدبة : الطعام ، يُتخذ فيُدعى الناس إليه ؛ وكأن الله (عز وجل) ، جعل القرآن أدباً للناس يتأدبُون به ؛ ويُقال : أدب فلان القوم بأدبهم ، إذا دعاهم إلى طعامه وجعلهم عليه ، والداعي

إليه أدب ؛ قال طرفة :

نحن في المشتاة ندعُوا الجفلى   لا ترى الأدب فينا ينتقر

النقرى : دعوة الخاصة ؛ والجفلى : دعوة العامة .

وفي حديث لكعب ، أنه قال : إن لله مأدبة من لحوم الروم بمروج عك ؛ يقول : إن الله تعالى جده ، يقتل الروم ، فتنتاب الطير والسباع لحومهم ، فكأنها مأدبة الله .

والأدب : إسم من تأدب أدباً ، كما تقول : جلب ، يجلب ، جلباً ، والإسم : الجلب ؛ وتقول : أدب الرجل فلان أدبه ؛ وأدبه المُؤدب ، معناه : أعاد عليه القول بالدُعاء إلى الرياضة ، والتعليم ، والتشريف ، ووقع فيه للتكرير ؛ والولد مُوَدّبٌ ، أي : مدعُو للرياضة مرةً بعد مرة .

فصل منه

قال رجل لِعِيسَى (عليه السلام) : يا روح الله ، أيُحسن بالشيخ الكبير أن يطلب الأدب ؟ فقال عيسى (عليه السلام) : ما حسنت الحياة فالأدب يحسن .

وقيل لأرسطاطاليس : ما أحسن الحيوان ؟ قال : الإنسان

المُزيـن بـالأدب ، ففـي الأدب الجمـال ، والنبالـة ، والمهابـة ، والجلالة ، وبه يسموا الرجل أعلى الرتب ، وربما سلم بـه من العطب .

كما روي : أن عبد الملك بن مروان ، جلس ذات يوم للناس ، فقام إليه رجل ، فقال : يا أمير المُؤمنين ، إنـي تزوجت إمرأة ، وزوجت إبني أمها ، فـإن رأيت أن تـأمر لنـا بعطائنـا ، حتـى نـرم شأننا ، ونضم أهلينا ؛ فأطرق عبد الملـك ساعة ثـم رفـع رأسـه ، فقال لـه : إن وُلِدَ لكمـا غلامـان ، مـا القرابـة بينـهما ؟ إن قلتـه ، أمرت لك بعطائك ، وأضعفتهما لك ؛ ففكر ساعة ، ثم قال : يا أمير المُؤمنين : هذا صاحب شرطك ، وليته سيفك ، ومـا وراء ذلـك ، فسأله عنها ، فإن أصابها فعطائي له ، وإن لم يصبها فأنا أعـذر ؛ قـال : صدقـت ، وسـأل صـاحب الشـرطة عن المسـألة ، فأخطـأ ؛ وسأل جميع من حضره ، فلـم يصـب أحـد منـهم ، فقـام رجـل مـن أخريات الناس ، من أهل العراق ، يتظلم من عامل له ، فقـال : يـا أمير المُؤمنين ، إن أنا أخبرتك بذلك ، تأمر بقضاء حاجتي ؟ قال : نعم ؛ قال : إبن الأب عَم إبن الإبن ، وإبـن الإبـن خـال إبـن الأب ، فقـال عبـد الملـك : لله أبـوك ، ثـم أمـر لــه بعشـرة آلاف درهـم ، وكسوة ، وكتب له بعزل العامل ، ثم إلتفت إلى جُلسائه (١) ، فقال :

---

(١) في نسخة أخرى : أصحابه .

لله در الأدب ، أي ميراث .

ومثله : ما روي العريان : أنه أتى برجل سكران ، فقال لـــه : من أنت ؟ فقال :

أنا ابن الـذي لا ينزلُ الدهر قدره وإن نزلت يومـاً فسوف تعـود
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء نـاره فمنهم قيام حولها وقعود

فأمر بتخلية سبيله ، ثم قال لبعض الشرط : سل عن هذا ، ابن من هو ؟ فسأل عنه ، فقال : هو ابن باقلاء ، فضحك العريان ، ثم قال : لله در الأدب .

ومثله : مـا روي عن رجل ، وجده صاحب العسس - وهو الذي يطوف للسلطان بالليل - فأخذه ليُعاقبه ، ثم سأله : من أنت ؟ فقال :

أنا ابن من تخضع الرقاب لـه برحمـة الله أيمـا رجـل
يأخذ من مالهم ومن دمهم وليس من ثأرهم على وجل

فخلى سبيله ، ثم سأل عنه ، فإذا هو ابن حجام ، فاستحسن ما سمع من أدبه ، ولطف ما خلص نفسه به .

والأدب أفضل حلية يتحلاها الرجل ؛ ومن لا أدب له ، فخرسه

أجمل به من نطقه ، وموته أستر له من حياتـه ؛ وقـال محمد بن مداد :

المـرء يعلـوا صعـداً بمالـــه وأدبـــه
فـإن خـلا مـن أدبـه ومالـــه ونســـبه
ففقـده أغـنى لـــه ومـوتـه أجمـل بـه

وقال عبد الله بن عُمر بن زياد :

يحظى إمرءٌ عند الورى بمالـه وأدب قـد زاد فـي جمالـه
فإن خلا من ماله مغترباً [1] وأدب قد صـار فـي خلالـه
فـعدمـه ومـوتـه أولـى بـه من أن يعيش الذل في سربـاله

وجدت هذا الفصل مما يُشاكل ما نحن فيه ، في هذا الموضع ، وهو من غير الكِتاب .

قال : قدم عبد الملك بن مروان الكوفـة ، بعد مقتل مُصعب ، فجلس يعرض أحياء العرب للبيعة ، فقام إليه معبد بن خالد البجلي ، وكان قصيراً ذميماً ، وتقدم إليه رجل حسن الهيئة ، فقال معبد : وكان الرجل أمامي ، فنظر عبد الملك إلى الرجل ، فقال : ممن أنت ؟ فسكت الرجل ، فقلت أنا من خلفه : يا أمير المُؤمنين ،

(١) في نسخه أخرى : مُتعربـا .

نحن من جديلة ، فأقبل عليه وتركني ؛ فقال : من أيكم كان ذو الأصبع ؟ فقال الرجل : لا أدري ، فقلت : يا أمير المؤمنين : كان من عدوان ؛ فأقبل على الرجل وتركني ، فقال : ولم سُميّ ذا الأصبع ؟ فقال الرجل : لا أدري ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، نهشته حية في أصبعه ، فمن ثم سُميّ ذا الأصبع ؛ فأقبل على الرجل وتركني ، وقال : ما كان يُسمى قبل ذلك ؟ فقال الرجل : لا أدري ، فقلت أنا : كان يُسمى : حرثان ؛ فأقبل على الرجل وتركني ، وقال : أنشدني له :

عذيري الحي من عدوان كانوا حية الأرض

فقال الرجل : لست أرويه ، فقلت : إن شئت أنشدتك ؛ قال : أدن مني ، وإني أراك بقومك عَالِماً ، وأراك أديباً لَسِناً ؛ فدنوت منه ، فقال : أنشدني ؛ فأنشدته قول ذي الأصبع :

عذيري الحي من عدوان كانوا حية الأرض
بغا بعضهم بعضاً فلم يرعوا على بعض
ومنهم كانت السادات والمُوفُون بالفرض
ومنهم حكم عدل فلا ينقض ما يقضي
وما للمرء من شيء من الإبرام والنقض

يقول اليوم أمضيه ولا يملك ما يمض

فقال عبد الملك لصاحبي : كم عطاؤك ؟ قال : سبعمائة ؛ ثم قال لي : كم عطاؤك ؟ قلت : أربعمائة ؛ قال : أنت أحق بسبعمائة ، وقال : خذوا من عطاء هذا ثلاثمائة ، فزيدوها في عطاء هذا ، وانصرفت وعطائي سبعمائة ، وعطاء صاحبي أربعمائة ؛ قال : فرغب الناس يومئذ في الأدب ؛ قال الشاعر :

ما وهب الله لمرء هبة أفضل من عقله ومن أدبه
هُما جمال الفتى فإن فقدا ففقده للحياة أجمل به

وهو أكثر من أن يأتي عليه باب ، وقد ذكرت منه صدراً في باب الأدب ، فاختصرته ها هنا .

الباب العاشر :
في أداب العُلماء

ومن أدب العُلماء : أن يُؤدبُوا أقوالهم ، ويهذبُوا أفعالهم ، وأن يأتوا في كل مقام بمقالة ، وفي كل أوان بمُقتضى حاله ، لأنهم الضياء من الغمة ، والمصباح في الظلمة ، والصلاح للأمة ، بأقوالهم يُهتدي ، وبأفعالهم يُقتدى ، وهم ورثة الأنبياء ، وملح الأرض ، ومصابيح الدُنيا ، وقادة الأتقياء ، والأدلاء عند العمى ، والمشهورون في الأرض والسماء ، والأئمة الأخيار ، والربانيون والأحبار ، والعُلماء بالله والسُنة ، ودُعاة الناس إلى الجنة ، فعليهم أن يتأدبُوا قبل أن يُأدبُوا ، ويتهذبُوا قبل أن يُهذبُوا ، وإلاّ فما فضيلة العُلماء إن لم يكونوا كذلك .

وقد حكي : أن عبد الملك بن مروان ، أنه قال للشعبي : كم عطاءك ؟ فقال : ألفين ؛ قال : لحنت ؟ قال : لما ترك أمير المُؤمنين الإعراب ، كرهت أن أعرب كلامي عليه ؛ فانظر إلى لطيف جوابه ، وطريف ما أتي به .

<u>ومن غير هذا الكِتاب :</u> دخل الشعبي على الحجاج ، فقال : كم عطاك ؟ قال : ألفين ؛ فقال : ويحك ، كم عطاؤك ؟ قال : ألفان ؛

قال : فلم لحنت فيما لا يُلحن فيه مثلك ؟ فقال : لحن الأمير فلحنت ، وأعرب الأمير فأعربت ، ولم يكن ليُلحن الأمير فأعرب عليه ، فأكون كالمفرع له بلحنه ، والمستطيل عليه بفضل القول قبله ، فأعجبه ذلك ، ووهب له مالاً .

رجع إلى الكِتاب ؛ حكي عن الأصمعي ، أنه دخل على الرشيد ، بعد غيبة كانت منه ، فقال : يا أصمعي ، كيف كنت بعدي ؟ قال : ما لاقتني بعدك الأرض ، فتبسم الرشيد ؛ فلما خرج الناس ، قال له : ما لاقتني الأرض بعدك ؟ قال : ما إستقرت بي الأرض ، كما يُقال : فلان لا يليق شيئاً ، أي : ما يستقر معه شيء ؛ فقال : هذا حسن ، ولكن ما ينبغي أن تكلمنا بين أيدي الناس بما لا أفهمه ، فإذا خلوت بك فعلمني ، فإنه يُقبح بالسُلطان أن لا يكون عَالِماً ، إما أن أسكت ، فيعلم الناس أني لا أفهم إذا لم أجب ، وأما إن أجبت بغير الجواب ، فيُعلم من جوابي أني لا أفهم ما قلت ؛ قال الأصمعي : فعلمني أكثر مما علمته .

وحكي عنه ـ أيضاً ـ قال : قال لي الرشيد : يا عبد الملك ، أنت أعلم منا ، ونحن أعقل منك ، لا تعلمنا في ملأ ، ولا تسرع إلى تذكيرنا في خلاء ، فاذكرنا حتى نبتديك بالسؤال ، فإذا بلغت من السؤال حسب الإستحقاق ، فلا ترد إلى أن نستدعى ذلك منك .

ومن أداب العُلماء : نزاهة النفس ، والقناعة ، وصون النفس عن الطمع والشناعة ؛ وقال محمد بن مداد :

لا يســــودن عَـــــالِم ... قــرن العِلــــم بــــالطمع
قــارن العِلـــم بالإيـــاس ... مـــن النـــاس والـــورع
إن مــن لــم يــكــن كــذا ... قــاده الــحــرص فـاتـضــع

وقال عليّ بن عبد العزيز :

يقولن لي فيـك إنقبـاض وإنمـا ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفـس أكرمـا
ولم أقض حق العِلـم إن كنـت كلمـا ... بدا طمعٌ صيرتـه لـيَّ سلما
وما كل برقٍ لاح لـي يسـتفزنـي ... ولا كل من في الأرض أرضاه مُنعما
إذا قيل هذا منـهل قلت قـد أرى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظمـا
إلى أن أرى من لا يغص بذكرة ... إذا قلت قد أسـدى إلـيَّ وأنعمـا
ولم أبتذل في خدمة العِلـم مُـهجتي ... لأخدم مـن لاقيـت لكـن لأخدمـا
أأشقى بـه غرسـاً وأجنيـه ذلـة ... إذاً فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العِلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفـوس لعظمـا
ولكن أذلوه فهان ودنسوا محياه ... بـالأطـمـاع حـتـى تـجـهـمـا

والهدية للعُلماء جائزة ، على وجه الإكرام لهم ، لا على وجـه

التقية منهم ، ولا لعوض العِلم الذي يعلمونه ، فإن هذا على هذه الجهة لا يحل لهم ، وقد كان العُلماء تأتيهم الهدايا والصلات ، من إخوانهم من الأفاق إلى مكة ، فيقبلونها ، فإذا كان ذلك من وجه الكرامة لهم ، أو الصدقة عليهم ، فلا بأس ؛ غير أن العُلماء لهم تنزه عن هذا ، إجلالاً للعِلم ، وإن كان حلالاً .

ومن أدب العَالِم : التواضع ، فإنه سيما العُلماء ، وسمة الحُكماء ؛ ويجب للعَالِم أن يتأدب بآداب الله ، قولاً وفعلاً ، وأن تكون أقواله مُضاهية أفعاله .

فقد قال مالك بن دينار : إن العَالِم إذا لم يعمل بعلمه ، زلت موعظته عن القلوب ، كما يزل القطر عن الصفا ؛ وقال محمد بن مداد :

إذا المرء لم يعمل بموجب علمه تبدى عليه الجهل وانتزع العِلم
وكيف يداوي الناس من خان نفسه لبئس الخليلان الخيانة والإثم

ونحوه ، قال زياد : إذا خرج الكلام من القلب وقع في القلب ، وإذا خرج من اللسان لم يجاوز الأذان .

ومن أداب العُلماء : أن يقصدوا بتعليمهم وجه الله (عَزَّ وَجَلَّ) ، من غير عوض ؛ قال الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) : ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمنا

قليلا ﴾ (١) ؛ قال أبو العالية : لا تأخذوا عليه أجراً ، وهو مكتوب عندهم في الكِتاب الأول : يا ابن آدم ، عَلِم مجاناً كما عَلِمت مجاناً .

وعن الربيع بن أنس ، قال : مكتوب في التوراة : يا ابن آدم ، عَلِم مجاناً كما عَلِمت مجاناً ؛ والمجان : عطية شيء بلا منةٍ ولا ثمن ؛ قال الشاعر :

للهدايا من القلوب مكان　　وهي مما يحبه الإنسان
سيما إن أمنت منها المكافأة　　وأيقنت أنها مجان

ومن أدابهم : النصح لمن علموا ، والرفق بهم ، وأن لا يعنفوا مُتعلماً ، ولا يحقروا ناسياً ، ولا يستصغروا مُبتدئاً .

فقد روي عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " علموا ولا تعنفوا ، فإن المُعلم خير من المُعنف " .

ومن أدابهم : أن لا يمنعوا طالباً ، ولا ينفروا راغباً ، ولا يؤيسوا مُتعلماً ، ولا يلبسوا مُتفهماً .

فقد روي عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " ألا أنبئكم بالفقيه ، كل الفقيه ؟ " ؛ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : " من لم يُقنط

(١) سورة البقرة : ٤١ .

الناس من رحمة الله ، ولم يؤيسهم من روح الله ، ولا يدع القرآن رغبة إلى ما سواه ، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه ، ولا لعِلم ليس فيه تفهم ، ولا قراءة ليس فيها تدبر " .

فصل منه

عن الأخطل بن المُغيرة ، قال : إن العُلماء يستودعوا العُلماء حلال الدُّنيا وحرامها ، وليس كل يُؤتمن على ذلك ، وقد تكلمت العُلماء بإتفاق ، وإختلاف ، وإفتراق ؛ فما جاء عنهم بإتفاق ، فهو الحق لا ريب فيه ؛ وما جاء عنهم بإفتراق ، فإن بيان الحق من الباطل في ذلك ، بمُقابلته وعرضه على حُكم القرآن والسُنة وآثار أئمة الهُدى ؛ وما جاء عنهم بإختلاف ، فمن عرف الحق من إختلافهم أخذ به ، وإلاّ أخذ لنفسه بالوثيقة في إختلافهم ، فوقف على ما تبين منه للحق وسؤال منه ، ويلقى الله تعالى على ذلك ، ما لم يُضيع في إختلافهم فريضة ، أو ينتهك مُحرماً ، وينبغي للعُلماء أن يحقوا أديانهم ، إما صيانة لها ، أو تقية فيها ، فهو أعظم لقدرهم ، وأسلم لأمرهم .

وقد روي عن المُعتمر بن عمارة ، وكان من خيار من أدركته من المُسلمين ، أنه قال : حق على كل ذي دين ، أن يدين لله تعالى

بكتمانه ، ما لم يحتج إليه ، وينبغي لهم أن لا يعطوا العِلم من لا يتولونه ، ولا يمنعوه من يتولونه ، فكذلك ينبغي أن لا يعطوا حياء ، وذلك أن يكون الرجل لا يتولى ، فيستحي منه فيُعطى العِلم ، ويبتغي لهم أن يعظوا أنفسهم قبل أن يعظوا سواهم ، ولا يكونوا ممن يعظ غيره ، ويدع نفسه ، فيكونوا كما قال الشاعر :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عارٌ عليك إذا فعلت عظيم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا إنتهت عنه فأنت حليم

وكما قال أحمد بن يُوسف :

وعامل بالفجور يأمر الناس بالبر كهاد يخوض في الظلم
أو كطبيب قد شفه سقم وهو يداوي من ذلك السقم
يا واعظ الناس غير مُتعظٍ ثوبك طهر أو لا فلا تلم

وقال آخر :

عود لسانك قلة اللفظ واحفظ لسانك أيما حفظ
إياك أن تعظ الرجال وقد أصبحت محتاجاً إلى الوعظ

<u>مسئلة :</u> وجائز للعَالِم أن يقول للجاهل : إعلم مثل علمي ، مما تعبدك الله به ، فيما لا يسعك جهله ، ولا ينقطع عذر العَالِم بذلك ؛

فإن قال : إعلم ما يسعك جهله ، على وجه الندب فجائز أيضاً ؛ وقد رعت المُسلمون في تعليم ما يسع جهله ؛ وقول من قال : أن عذر العَالِم ينقطع بقوله هذا للجاهل خطأ من قائله ؛ وأما الجاهل فلا يجوز له أن يقول للعَالِم : إرجع إلى جهلي ؛ قال محمد بن مداد في ذلك :

قد وسع العَالِم في قوله   لجاهل إرجع إلى العدل
لا وسع للجاهل في قوله   لعَالِم أرجع إلى الجهل
وذا لأن العِلم يقضي على   الجهل بتدبير ذوي العقل

الباب الحادي عشر :
ما يجب على العُلماء في التعليم

قال الحكيم بن عيينه ، في قول الله (عز وجل) : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ (١) ، قال : ما آتى الله تعالى عِلماً عَالِماً ، إلاَّ أخذ عليه ميثاقاً ألا يكتمه .

وقال عليّ : ما أخذ الله تعالى ميثاقاً من أهل الجهل بطلب العِلم ، حتى أخذ ميثاقاً من أهل العِلم ببيان العِلم ، لأن الجهل كان قبل العلم .

وعن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : " تناصحوا في العِلم ، ولا يكتم بعضكم بعضاً ، فإن خيانة الرجل في عِلمه ، أشد من خيانته في ماله ، والله تعالى يسأله عنه " .

وقال الله (عز وجل) : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ (٢) .

وعن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، أنه قال : " لا تمنعوا العِلم أهله ، فإن في

---

(١) سورة آل عمران : ١٨٧ .
(٢) سورة البقرة : ١٥٩ .

ذلك فساد دينكم ، وفساد بصائركم " ؛ ثم قرأ هذه الآية : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا ﴾ (١) ؛ وقال عبد الله بن عُمر في ذلك :

لقد لعن المُهيمن ذو الجلال   كتوم العِلم من بعد السؤال
إذا ما سُئل عنه عليه فرض   يُجيب لسائليه بكل حال
لأن الله قد أتاه عِلماً   لتبين الحرام من الحلال
وقد أخذ الإله عليه عهداً   وميثاقاً ليأذن بالمقال

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " من كتم عِلماً يحسنه ، ألجمه الله بلجام من نار " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " أن الله يسأل عبده يوم القيامة عن فضل عِلمه ، كما يسأله عن فضل ماله " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " من كان له عِلم ، فليتصدق من عِلمه ؛ ومن كان له مال ، فليتصدق من ماله ؛ ومن كان له قوة ، فليتصدق من قوته ؛ ومثل عَالِم لا يتكلم ، كمثل صنم قائم ، أو كنز لا يُؤدي زكاته " .

وقال ابن الأزرق ، لإبن عباس ، وقد جلس بفناء الكعبة ، وقد أسدل رجليه في حوض زمزم ، والناس قد إكتنفوه من كل ناحيةٍ ،

(١) سورة البقرة : ١٥٩ .

يسألونه عن تفسير القرآن ، وعن الحلال والحرام ، وهو لا يتعايا بشيء يسألونه عنه ، قال : يا ابن عباس ، ما دلك على تفسير القرآن والفتيا ، هذه والله الجرأة على الله ؟ فقالِ ابن عباس مُجيباً لنافع بن الأزرق : يا ابن أم الأزرق ، ثكلتك أمك ، أولا أدلك على من هو أجرأ مني ؟ فقال : دلني ؛ قال : رجل تكلم بما لا عِلم له به ، أو رجل كتم الناس عِلما عَلمه الله ، فذلك أجرأ مني يا ابن أم الأزرق .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " من سُئل عن عِلم فكتمه ، جاء يوم القيامة مغلولاً ، مُلجما بلجام من نار " .

ومن طريق أنس ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " من كتم عِلماً عنده ، أو أخذ عليه أجراً ، لقي الله يوم القيامة مُلجما بلجام من نار " .

ونهى النبي (ﷺ) عن كتمان العِلم ، إذا طلب ، وأن يعلم العِلم غير أهله ، ممن لا يعمل به ؛ وقال (ﷺ) : " من تعلم علماً ، فليعلم الناس ، ولا يقول ما لا يعلم ، ولا علم له به " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " من باع العِلم ، وأخذ عليه ثمناً ، أو كتمه أهله ، أو أعطاه غير أهله ، أو منعه أهله ، لايزال في

سخط الله ، حتى يتوب من ذلك ، وحاجة العِلم يوم القيامة مخصوماً ، ألا وأن مُتعلم الخير ومُعلمه ، يُصلي عليهم إلله ، وملائكته ، ورسله ، وطير السماء ، ودواب الأرض ، وحيتان البحر ، وصالح عباد الله ، في السماوات والأرض " .

وعنه (ﷺ) : ، أنه قال : " ويل للعَالِم من الجاهل ، حيث لا يعلمه ، فلولا أن تعليم الجاهل واجب على العَالِم لازم له ، ما كان له الويل في السكوت ، فتعليم الجاهل وأجب على العَالِم لازم له فريضة ، وليس بتطوع " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " تعلموا العِلم ، وعلموا من لا يعلم ، فإن من عَلم مُسلماً شيئاً من أمر دينه ، قلد يوم القيامة قلادة من نور ، يتعجب منه الأولون والآخرون " .

وقيل في الحكمة : من كتم عِلماً ، فكأنما هو جاهل ؛ وقال محمد بن مداد :

من علم الناس عِلماً كان يعلمه   جاء القيامة في طوق من النور
يضيء للناس من بُعدٍ ويرشدهم   يزهى بوجهٍ كمثل البدر منضور
والجاهلون تراهم في القيامة   كالعميان يمشون حبوا في سمادير [١]

(١) السمادير : الظلمة .

وقال أبو مُوسَى : من علمه الله عِلماً ، فليعلمه الناس ، ولا يقولن لا أعلم ، فيمرق من الدين .

وقال خالد بن صفوان : إني لأفرح بإفادتي للتعليم ، أكثر مما أفرح باستفادتي من العِلم ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

إن صون العِلم بذله في مكان هو أهله
من أفاد الناس عِلماً فهو العَالِم كله

وقال النبي (ﷺ) ، " تصدقوا على أخيكم بعِلمٍ يرشده ، ورأي يسدده " .

وقال ابن مسعود : تعلموا وعلموا ، فإن أجر المُتعلم والمُعلم سواءٌ ؛ وقيل : وما أجرهما ؛ قال : مائة مغفرةٍ ومائة درجة في الجنة .

وقال ابن عباس : عَلِم عِلمك ، وتعلم عِلم غيرك ، فإذا أنت قد عَلِمت ما جهلت ، وحفظت ما عَلِمت ، ولن يُصان العِلم بمثل بذله ، ولن يستبقى النعمة فيه بمثل نشره .

وعن عطاء الخراساني ، أنه قال : أوثق عِلمي في نفسي ، نشر العِلم .

وعن ابن عباس ، في قول الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ وجعلني مباركا أين ما كنت ﴾ [1] ، قال : إنه سأل ربه أن يجعله مُعلماً مُؤدباً ، حيث ما توجه .

وعن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، أنه قال : " يا أبا هُريرة ، عَلِم الناس ما ينفعهم من أمر دينهم ، يكن فضلك عليهم ، كفضل الأصبع الوسطى على سائر الأصابع " .

وكان أبو الدرداء ، لا يُصبح يوماً بدمشق ، إلاّ قال : يا أهل دمشق ، لقد أصبحتم شِباعاً من الطعام ، جياعاً من العِلم ، ما لي أراكم تطلبوا ما قد تكفل لكم به ، وتذرون ما خلقتم له ، ألا فاعلموا وتعلموا ، وإن العَالِم والمُتعلم في الأجر سواء ، ولا خير في الناس بعدهما ، إقتصاد في السُنة ، خير من إجتهاد في البدعة ، وترك الخطيئة ، خير من طلب التوبة ، والصمت عن الباطل ، خير من تكلم فيه ، وتكلم في الحق ، خير من الصمت عنه ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

إن إقتصاد المرء في سُنته   خير من المكث على البدعة
وترك أسباب الخطايا له   خير له من طلب الرجعة

(١) سورة مريم : ٣١ .

والصمت للإنسان عن باطل　　خير من الجريان والوقعة
والنشر للحق وإيذاعه　　خير من الصمت بلا شرعة
والصمت في الجهال خيرٍ　　لذي عِلم من الضحكة والسمعة
لا تودعن العِلم هلباجة　　فحفاحة هيابة قلعة
يا عجباً من ساخرٍ ضاحكٍ　　فيما يُرجى عَالِماً نفعه

وقال أكثم بن صيفي : شكر العَالِم على عِلمه ، أن يبذله لمن يستحقه .

فصل منه

فيجب على العَالِم مُجانبة العجب ، فإنه بكل قبيح ، وبالعُلماء أقبح ، وهو مُناف للفضل .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " إن العجب يأكل الحسنات ، كما تأكل النار الحطب " ؛ وقال محمد بن مداد :

العجبُ في الناس قبيح　　ولكن بثقات العُلماء أقبح
كم عَالِم أعجبه عِلمهُ　　فظل في إعجابه يجمح
زل به العِلم إلى هوة　　شنعاء في ظلمتها يطرح

ويجب أن يكون حسن الخلق ، متواضعاً ، رفيقاً بالمُتعلمين ،

مُحتملاً لتكرار المُتفقهين ، واسع الصدر ، وكثير الصبر ، عديم الضجر ، حليماً ، رفيقاً ، كريماً ، شفيقاً ، رحيماً ، لطيفاً ، حبيباً ، عفيفاً ، لأنه بمنزلة المُتطبب الذي يُعالج الأمراض ، فينبغي أن يرفق في مُعالجته ، ويعطف بحلمه ، ليحيى بمعرفته ، ويجب أن يكون كثير الصمت ، والوقار ، والسكينة .

فقد قيل عن ملك الروم ، أنه قال : أفضل العِلم الصمت .

وقيل : العِلم عشرة أجزاء ، تسعة منها في الصمت ؛ وقال عبد الله بن عُمر بن زياد :

أجزاء عِلم الفقه قيل عشرة فتسعة في الصمت غير مُنكرة
يحوي عُلوماً جمة في ضمنه لعبرة في كُتبٍ مُفسرة

وقال عبد الله : إذا تعلمتم عِلما ، فاكضموا عليه ، ولا تخلطوه بضحك ، ولا بباطل ، فتمجه القلوب .

ويُقال : من ضحك ضحكة فقد مج من العِلم مجة ؛ والمج : تحرك وإضطراب ؛ وقال محمد بن مداد :

إذا تعلمت عِلماً فاعضض عليه بأزم
فإن رأس الخطايا تخليط ضحك بعِلم

وقال كسرى : إمتحنوا الإنسان بعد أن تمج من عقله مجتين أو ثلاثاً ، يعني : بعد أن يشرب رطلين أو ثلاثة من الشراب ؛ والمجمجة : تخليط الكُتب وإفسادها بالقلم والضرب عليه ؛ ومج الرجل الشراب من فيه : رمى به ؛ والأذن تمج الكلام : لا تقبله ؛ وقال محمد بن مداد :

لا ترجعن إلى كلام قلته ... مُترجعاً فتمله الأذان

فالقطر يسال بالأكف إذا أتى ... وإذا تواتر مله الإنسان

ويُقال : مُتمجمج ، ومترجرج ، سواء ؛ والماج : الأحمق الكثير ماء القلب ؛ وقيل : سُميًّ ماجاً : لأنه مج في عقله .

فصل منه

ويجب على العَالِم أن يتوسم المُتعلم بفراسته ، ليعلم بها إستحقاق حالته ، ومبلغ طاقته ، فيعطيه ما يحتمله ، ولا يزيده فيذهله ، وفي ذلك راحة للعَالِم ، واستراحة للمُتعلم .

وقد روي عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم " ؛ والتوسم : النظر ؛ والمُتوسم : الناظر المُتثبت ؛ قال الله (عز وجل) : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ (١) ،

(١) سورة الحجر : ٧٥ .

أي : الناظرين المُبصرين ؛ وتقول : توسمت في فلان الخير : إذا رأيت عليه أثراً من الخير ؛ وقال الشاعر :

توسمته لما رأيت مهابة عليه   وقلت المرء من آل هاشم

وقال زهير :

وفيهن ملهى للحديث ومنظر   أنيق لعين الناظر المتوسم

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " إتقوا فراسة المُؤمن ، فإنه ينظر بنور الله " .

وقال عُمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : إذا أنا لم أعلم ما لم أرى ، فلا علمت ما رأيت .

وقال عبد الله بن الزبير : لا عاش بخير ، من لم يَرَّ برأيه ، ما لم يَرَّ بعينه .

وقال أبو عمرو بن العلاء : كان ابن عباس ألمعياً .

وقال أبو عُبيدة : الألمعي : الذي يهجم بظنه على اليقين ؛ وقال أوس بن حجر شِعراً :

الألمعي الذي يظن بك الظن   كأن قد رأى وقد سمعا

قال أبو العينا : فسألت الأصمعي عن الألمعي ، قال : الذي يلمع له الحق في ظنه ، فهجم عليه ؛ قال : وسألت أبا زيد عن الألمعي ، فقال : الذكي المُتوقد ، الذي يكون بظنه ، أوثق من يقين غيرة ؛ وأنشد الأصمعي :

رأيت أبا الوليد غداة جمع ... به شيب وما فقد الشبابا
ولكن تحت ذاك الشيب حزم ... إذا ما ظن أمرض أو أصابا

فأنشدتهما أبا عُبيدة ، فقال : أعرض أو أصابا ؛ وقال خلف الأحمر لكيسان : ويلك ، إلزم الأصمعي ، ودع أبا عُبيدة ، فإنه أفرس الرجلين بالشعر ؛ وقال ابن الرومي :

ألمعي يرى بأول رأي ... آخر الأمر من وراء المغيب
لوذعيٌ له فؤاد ذكيُ ... ماله في ذكائه من ضريب
لا يروي ولا يُقلب طرفاً ... وأكف الرجال في تقليب

ويجب على العَالِم أن لا يبخس الذكي ، ولا يزيد البليد ، فيحرم من يستحق الزيادة منهم ، على ذي البلادة ؛ ويجب على العَالِم أن يصون العِلم ، بوضعه في أهله ، ومنعه غير أهله .

فقد روي عن أنس بن مالك ، أن النبي (ﷺ) ، قال :

" واضع العِلم في غير أهله ، كمقلد الخنازير اللؤلؤ ، والجوهر ، والذهب " ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

واضع هذا العِلم في غير أهلــه كمن قلد الخنزير شذراً وجوهرا
ومانعه عن أهله مثل مانع زكاة وكان ذا عيالين أغبرا

وعن أنس بن مالك ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " لا تطرحوا الدر في أفواه الكلاب " .

وعن عيسى بن مريم (عليه السلام) ، أنه قال : لا تلقوا اللؤلؤ للخنزير ، والعِلم أفضل من اللؤلؤ ، ومن لا يستحقه أشر من الخنزير ؛ وقال الشاعر :

إني وتزيني بمدحي معشراً كمُعلق دراً على خنزير

حكيّ أن تلميذاً سأل عَالِماً عن بعض العُلوم ، فلم يفده ، فقيل له : منعته ؛ فقال : لكل تربة غرس ، ولكل بناء أس .

وقال بعض البُلغاء : لكل ثوب لابس ، ولكل عِلم قابس ؛ ويُقال : ولكل فرح لامس .

وقال بعض أهل الأدب : إبك لروضة توسطها خنزير ، وإبك لعِلم حواه شرير ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

مات أولوا الحكمة النحارير وخلفت عصرنا الدقارير
لا حلم في مجلس يُؤيدهم ولا لهم في العُلوم تدبير
فابك لروض رعاه خنزير وابك لعِلم حواه شرير
وابك لعود من العُلوم ذوي ولعبت فوقه الأعاصير
وابك أناساً مضوا لنا سلفاً بانوا فكل في الأرض مقبور

وعن عيسى (عليه السلام) ، قال : لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم .

ويُقال : من أعطى الحكمة غير أهلها ، خاصمته الحكمة إلى ربها ؛ ولبعض الحُكماء فيما وجدت ، ويُقال : أنها للشافعي :

أأنثر دراً وسط سارحة النعم لأنظم منثوراً لراعية الغنم
لعمري لئن ضيعت في شر بلدةٍ فلست مُضيعاً عندهم غرر الكلم
فإن فرج الله اللطيف بفضلهِ وصادفت أهلاً للعُلوم وللحكم
صبرت مُفيداً واستفدت ودادهم وإلاً فمخزونٌ لدي ومُكتتم
فمن منح الجهال عِلماً أضاعه ومن منع المُستوجبين فقد ظلم
ومانع عِلم الدين ممن يُريده يبوء بأوزار وإثم إذا حرم

وقال المُتنبي :

قالوا نراك تطيل الصمت قلت لهم ما طول صمتي من عي ولا خرس

لكنه أفضل الأمرين عاقبة		عندي وأجمله[1] في منطق شكس
أأنشر التبر فيمن ليس يعرفه		أم أنثر الدر بين العمي في الفلس

ويُقال : كتب الشافعي إلى محمد بن الحسن ، يلتمس منه شيئاً من الفقه ، فأخر عنه ما يلتمس ، فكتب إليه بأبيات ، وهي هذه الأبيات :

قل لمن لم تر عين من رآه مثله		ومن رآه وجهه فقد رآه قبله
العِلم ينهي أهله أن يمنعوه أهله		لعله يبذله لأهله لعله

وحكيّ أن هذه الأبيات ، آخر ما قال من الشعر ؛ وقال محمد بن مداد في مثله :

قل لغاد يدعي العِلم وينسى جهله		لن تنال العِلم إلاّ أن تحرى فضله
باجتهاد وبتقوى يتعاطى قبله		فإذا أخلصت هذا فتناول أصله
وتبين شكله وتأمل عدله		إن يكن من أهله فهو راع أهله
لا تكن حامل سكينٍ لباغي قتله		قابل العِلم يُقابلك صلاحاً مثله
فتجمل هديه وتبين فضله

وينبغي للعَالِم أن لا يُعجل ببذل العِلم لطالبه في أول مرة ، بل يُردده ثلاث مرات ، وبعده فلا يُؤيسه منه ولا يبعده ، فإن وجده

---

(١) في نسخة أخرى : ولكنه .

مُعاوداً ، طالباً ، مُتودداً ، راغباً ، أجاب مسألته ، وأعطاه بُغيته ، وإن وجده تاركاً للمُعاودة ، فليس هو من أهل الفائدة ، لأن الطالب عن رغبة صحيحة ، ومحبة صريحة ، يحتمل الأذى ، ويستقل الجفى ، ويزداد على الطلب حرصاً ، ولا يُرى ذلك عليه نقصاً ، ولا يستنكف من المُعاودة ، ولا ينصرف عن طلب الفائدة .

وقد رُفع عن أبي محمد عبد الله بن محمد بن بركة (رحمه الله) : أنه كان يتردد إلى أبي مالك (رحمه الله) ، طلباً للتعليم ، وهو يدافعه دفعات ، فلما تصور رغبته ، وتحقق إرادته ، أقبل عليه وعلمه ، وقربه وأكرمه ، فينبغي للعَالِم إذا رضي من جاءه للتعليم ، أن يُعلمه ولا يحرمه .

فقد روي عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " إستودعوا العِلم الأحداث ، إذا رضيتموهم " ؛ وقال محمد بن مداد :

إسمع النُصح واعياً لا كذاباً — أطلب العِلم ما مُنحت الشبابا
طلب الشيخ للعُلوم إعتساف — والتكاليف لا تفيد صوابا
وأرى كل ذي فؤاد ذكيٍ — صادق الروع مُتقناً ما أصابا

وله ـ أيضاً ـ :

فهو في الأحداث روض خضل — وهو في الشيخ كماء في صباب

لا أحابي في الذي جربته وعلى غير التجاريب أحابي

وإن رآه للجهل راكباً ، وعن التعليم ناكباً ، أعرض عنه أهمالاً ، ولم يحفل به بالاً ، ولم يفده حرفاً ، بل يبعده عنه ، ولا يُؤيسه منه ؛ وقال الشاعر (١) :

إذا رأيت شباب الحي قد نشأوا لا يحملون قلال الحبر والورقا
ولا تراهم لدى الأشياخ في حلقٍ يعون من صالح الآداب ما إتسقا
فعدهم عنك واعلم إنهم همجٌ قد بدلوا بِعُلُوِ الهمةِ الحمقا

الناكب : العادل عن الشيء ، المايل عنه ؛ وقال سعيد بن ثابت :

إذا هَمَّ ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

وقلال الحبر ، يعني : المحابر ؛ وقله : كل شيء رأسه ؛ والورَق (بفتح الراء) : أدم رقاق ، ومنها : ورق المُصحف ؛ والواحدة : ورقة ، من كل هذا ؛ والورَاق : صنعة الورق ؛ والورق للشجرة الواحدة : ورقة ؛ والورق - أيضاً - : الدم الذي يسقط من الجراحة علقاً : قطعاً قطعاً ؛ والورق (بكسر الراء) : إسم الدراهم ؛ والورَق (بفتح الراء) : من الإبل والغنم ؛ قال

(١) في نسخة أخرى : الشافعي :

العجاج :

يا رب رب البيت والمشرق والراقصات كل سهبٍ سملق
إيــاك أدعــوا فتقبــل ملقــي إغفر خطاياي وثمـر ورقـي
إنــا إذا حـرب عـدت لأنتقـي شيئاً ولا مُستأخراً لم يلحـق
ترد حـد الناس عنـها الأورق في كل عام كالليـاح الأبـلـق

السـهب : ناحيـة الفـلاة ؛ والجمـع : سـهوبُ ؛ والسـملق : القــاع الأملس ؛ قال سابق البربري :

كما كل دار سوف يهلك أهلها وتصبح منهم وهي صحراء سملق

والمشرق : موضع التشريق بمنـى ؛ وقـول الشـافعي : [فـي حلق] : يُريد في جماعةٍ من الناس ؛ والواحدة : حلقة (مُخففة) ؛ ومنهم : من يُخفف ويثقل ؛ وقال بعض : الحلقة مُخففة من القوم ، مثقلة من الحديد ؛ قال : نحمي حمانا ونحملُ الحلقة .

وقوله : [ما إتسق] ، الإتساق : الإنضمام والإسـتواء ، كمـا يتسق القمر ؛ قال الله (عَزَّوَجَلَّ) : ﴿ والقمر إذا اتسق ﴾ (١) .

قال الفراء : إتساقه : إمتلاؤه لثلاث عشرة إلى خمس عشرة ؛

(١) سورة الإنشقاق : ١٨ .

وقال الكلبي : إذا إجتمع وتكامل ؛ وقوله : [فعدهم] ، أي : إصرفهم ؛ يُقال : عَدَّ عنك هذا ، أي : إصرفه ؛ وقال النابغة :

فعد عما ترى إذ لا إرتجاع له   وأنم القتود على عيرانة أحد

قال الأصمعي : [فعد] ، أي : إنصرف عما ترى من تغيير الدار ، وما أنت فيه ، إذ أيقنت أن لا رجعة ؛ ومنه يُقال : ما عدوت أن أقبل ذاك ، أي : ما جاوزت ؛ قال الأصمعي :

عداني أن أزورك أم عمروٍ   دواوين (١) تشقق بالمداد

عداني ، أي : خوفني ؛ ودواوين (١) : جمع ديوان ؛ ويُقال : دواوين - أيضاً - ؛ [وأنم] : إرفع ؛ ونميت الحديث : رفعته عن قائله ؛ والقتود : عيدان الرحل ؛ وإحدها : قتد ؛ والعيرانة : ناقة شبهها بالعير ، في مضيها وسرعتها ؛ والعير : حمار الوحش ، وهي الناقة الجدعة الشديدة ؛ والأحد : الموثقة الحلق الشديدة ؛ والموحد من كل شيء : الموثق ؛ وقال أبو عمرو : وهي التي تلاحم عظم فقارها .

وقوله : [همج] ؛ والهمج : كل دود يتفقأ عن ذباب ، أو بعوض ، أو أشباه ذلك ، وبهم يُشبه رذال الناس ؛ قال محمد بن

---

(١) في نسخة أخرى : دياوين .

مداد في ذلك :

إذا رأيت الفتى لم يكتسب أدباً — من بعد ما جاوز العشرين مُعتلما
ولم يرح لإكتساب العِلم مُبتدياً — جراً ولم يعمل القرطاس والقلما
فقل حمار إعتمال عبد مقترة — مُستعمل أو كراع يرتعي البشما

وينبغي للعَالِم أن يكون أوسع الناس صدراً ، وأكثرهم صبراً ، وأجملهم لقاء ، وأحسنهم أخلاقاً ، لأن المُتعلمين منه ، والمُتحملين عنه ، يأخذون خلائقه ، ويحتذون طرائقة ، فيجب أن يكون لهم إلى أسنى الأفعال منهاجاً ، ومن غي الضلال سراجاً ؛ ويجب على العَالِم أن يُوقر المُتعلم ، كما يجب على المُتعلم ذلك إيضاً له .

فقد روي عن النبي (ﷺ) ، من طريق إبن عُمر ، أنه قال : " وقروا من تتعلمون منه ، ووقروا من تعلمونه العِلم " ؛ وينبغي للعَالِم أن يختبر المُتعلم ، ليعرف موضعه من المعرفة .

وقال أبو العينا محمد بن القاسم : أتيت عبد الله بن داود الجرني لأسمع منه ، فخرج إليَّ ، فقلت له : إن رأيت أن تحدثني ؛ قال لي : أقرأت القرآن ؟ قلت : نعم ؛ قال : إقرأ عليَّ : ﴿ واتل

عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ﴾ (١) ؛ فقرأته ؛ فقال : أصبت ؛ ثم قال : أنظرت في الفرائض ؟ فقلت : قد نظرت في شيء من الكبر وبعض الصلب ؛ قال : أيما أقرب إليك : إبن أخيك ، أم إبن عمك ؟ فقلت : إبن أخي ؛ فقال : ولم ؟ قلت : لأن ذلك من ولد جدي ، وذا من ولد أبي ؛ فقال : أصبت ؛ ثم قال لي : أنظرت في شيء من العربية ؟ قلت : نعم ؛ قال : ما معنى قول عُمر ، حين طعنه أبو لؤلؤة : يا لَعباد الله ويا للمُسلمين ، ولم يقل : يا لِعباد الله ويا لِلمُسلمين ؟ قلت : إستغاث مما نزل به ؛ قال : أصبت ؛ قال : لو كنت اليوم مُحدثاً لحدثتك ، فقد إختبره ليعرف موضعه ، ويقف على ما معه ، فيعطيه من التعلم والتعليم حقه ، ولا يبخسه منه حظه ؛ ولام الإستعانة (مفتوحة) ؛ قال :

يا لقومي هل منجىً من الهرم   أم هل على العيش بعد الشيب من ندم

ولام التعجب (مكسورة) ، لقولك : يا لِزيد .

---

(١) سورة يونس : ٧١ .

الباب الثاني عشر :
ما يجب على المُتعلم لِمُعلمه
وما يؤمر به من الأدب في تعليمه

إعلم أن الذي يجب على المُتعلم لمُعلمه ، أشياء كثيرة يطول بها الكِتاب ، ولا يستوعبها باب ؛ فأولها : إذا أتى مجلسه ، أن يُسلم على أهل المجلس عامة ، ثم ليفرده بالسلام خاصة ، ثم ليجلس بين يديه مُتذللاً ، وبوجهه عليه مُقبلاً ، وليقل النظر إليه ، وليتواضع له ، ويُعظمه ويُجله ، ولا يسأله في أول القية ، بل يعاوده مرةً بعد مرة ، ثم يسأله التعليم ، فإن أجابه ، شكر له ، ودعا له ، وإن منعه ، عذره وانصرف عنه ، فربما كان ذلك من العَالِم نظراً في أمره ، واستبراء لرغبته ، ثم ليعاوده صابراً على ترداده ، ولا يضجر ليظفر بمُراده ، وليرفق له في أقواله ، ويتملق إليه في أفعاله .

فقد روي عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " ليس الملق من أخلاق المُؤمن ، إلاَّ في طلب العِلم " ؛ والملق : هو التودد واللطف الشديد .

يقول : إنه لملاق ، مُتملق ، ذو ملقٍ ؛ ولا يُقال : منه ملق ، يملق ، تملقاً ؛ والفعل منه : تملق ، يتملق ، تملقاً ؛ والإملاق : كثرة إنفاق المال والتبذير حتى يورث الحاجة ؛ وفي القرآن : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ (١) ، أي : خشية الفقر والحاجة .

يُقال : أخفق ، وأملق ، وأورق ؛ وفي الحديث : أن إمرأة سألت ابن عباس : أنفق من مالي ما شئت ؟ قال : نعم ، أملقي من مالك ما شئت ؛ فيجب للمُتعلم أن يتملق في طلب العِلم ، كما جاء عن النبي (ﷺ) ؛ وقال محمد بن مداد :

كره النبي مقالة المُتملق ... في حين تأدية وحين تخلق
إلاَّ بحضرة عَالِمٍ يختصه ... لينال ما فيه جمال المُتقي
فأخصصه بالتسليم بعد جماعةٍ ... وألن له في القول عمداً وارفق

وقد قال بعض الحُكماء : من لم يحتمل ذل التعليم ساعة ، بقي في ذل الجهل أبداً ؛ وقال محمد بن مداد :

بُني إذا لم تحتمل ذل ساعة ... تصيبك في التعليم شبت على الجهل
إذا أنت لم تحمل على العِلم عزة ... بقيت عزيز النفس عن دنس الذل
وإن أنت باطشت المُعلم غرة ... بقيت قليل الخير والدِّين والعقل

---

(١) سورة الإسراء : ٣١ .

وقال الشاعر :

بُني إذا ما سامك الذل قاهر عزيز فإن الذل للعز أحرز
فلا تحملن يوماً عليه تعززاً فقد يُورث الذل الطويل التعزز

وعن ابن عباس ، أنه قال : ذللت طالباً ، فعززت مطلوباً ؛ وروي : أنه كان ينام على أبواب الصحابة في الهواجر ، حتى تلفح وجهه الشمس ، للتعليم منهم .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " ليس من أخلاق المُؤمن المكر والخديعة ، إلاّ في العِلم " .

وقال بعض حُكماء الفُرس : إذا قعدت وأنت صغير حيث لا تحب ، قعدت وأنت كبير حيث تحب .

وقال الخليل : كُنت إذا لقيت عَالِماً ، تذللت له لطلب ما عنده ، فإذا رام ذلك مني ، تذلل لطلب ما عندي ، فأخذت منه وأعطيته ؛ وقيل له : بم أدركت هذا العِلم ؟ قال : كُنت إذا لقيت عَالِماً أخذت منه وأعطيته ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

تذلل لمن تعي تعش مُتعززاً بعِلمك مغبُوطاً به مُتحرزا
فإني رأيت العز في ذل ساعة لدى عَالِم يُؤتيك عِلماً مُبرزا

فإني رأيت الجاهلين وعزهم   إلى الذل ما صاروا إذا جاهل نزا

ويجب على المُتعلم لِمُعلمه ، أن يُبجله في الأقوال ، ويجله في كل الأحوال ، ولا يُخاطبه مُخاطبة العوام ، ويُكرمه كل الإكرام ؛ وقال عبد الله بن عُمر :

أبجل مُعلمك المقال المُرتضى   وأجله في كل شيءٍ يُرتضا
واخفض جناحك في خطابٍ نحوه   لا كالعوام تكن له مُتكضضا
تلقى من الرحمن أجراً وافياً   ومن المُعلم عِلمه مُتعوضا

قال النبي (ﷺ) : " من أكرم عَالِماً ، فقد أكرم سبعين نبياً ؛ ومن أكرم مُتعلماً ، فقد أكرم سبعين شهيداً ؛ ومن أحب العِلم والعُلماء ، لا تكتب عليه خطيئة أيام حياته " ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

أن من أكرم يوماً عَالِماً   فلقد أكرم سبعين شهيدا

وقال عبد الله بن عُمر بن زياد ، زيادة على قول الشيخ :

وإذا أكرم من عَلمه   صار بالأجر به مُستفيدا

وعن عائشة ، عن رسول الله (ﷺ) ، أنه قال : " من وقر عَالِماً ، فقد وقر ربه (عز وجل) " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " ما أكرم شاب شيخاً لكبر سِنه ، إلاّ قيض الله له من يُكرمه عند كِبر سنه " ؛ شعرا :

إن من أكرم شيخاً صالحاً   قيض الله لـه مـن يُكرمه

ويجب أن يعرف له فضله ، ويشكر له فعله .

فقد قال عليٌّ بن أبي طالب : لا يعرف فضـل أهـل الفضـل ، إلاّ ذوو الفضل ؛ وقال محمد بن مداد :

قال عليٌّ إن نصف العقل أن   تعرف الفضـل لأهـل الفضـل
وليس كالفضلِ بأهـل الفضل   أن تعرف الحق لأهل الفضل

ومن أكرم مُعلمه ، كان مُعترفاً بفضله ، ومُنصفاً له في فعاله ؛ ومن لم يُوفه حقـه فـي الإنصـاف ، فقـد كفـره واجـب الإعتـراف ، ومنـع نفسـه حظـاً جزيـلاً ، وحرمـها شيئاً جميـلاً ؛ وقــال بعــض الشعراء :

إن المُعلـم والطبيـب كلاهمـا   لا ينصحان إذا هما لم يُكرما
فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه   واصبر لجهلك إن جفوت مُعلما

وقال محمد بن مداد :

إصبر لِذلِكَ ساعة مُتعلمـاً   تفـرح بعزك إن غدوت مُعلمـا

إصبر لدائـك إن كتمـت طبيبـه | واصبر لجهلك إن جفوت مُعلما
ولا تعدّونـه كرامـة وصيانـة | ومهابـة وجلالـة أن تكرمـا
فإذا حَرَمْتَ حُرِمتَ غامض عِلمه | فاجعل لكل طريق عِلم سلما

ولا يمنع المُتعلم من ذلك ، علو منزلة ، وخمول منزلة مُعلمه ، فإن العَالِم إنما يستحق التعظيم بالعِلم الجليل ، لا بالمـال الجزيـل ؛ وقال ابن دريد :

لا تحقرن عَالِماً وإن قصرت | ألحاظـه فـي عيُـون رامقـه
وانظـر إليـه بعيـن ذي أدب | مُـهذب الـرأي فـي طرائقـه
فالمسك بينـا تـراه مُمتـهناً | بفـهر عطـاره وسـاحقه
حتى تراه في عارضي ملك | أو موضع التاج من مفارقه

وقال محمد بن مداد ، فيما يقرب منه :

لا تُعظِمن جاهلاً يروقك إن | واجهته في جمال رونقـه
وانظر إليـه بعين مطرحً | فإنمـا ذاك مـن تحذلقـه
واسم إلى عَالِمٍ أخي أدبٍ | عمداً فقبل بيـاض مفرقـه
ولو بدا في ثيـاب مهنتـهِ | فإنمـا العزّ فـي تعلقـه
العِلم نور في قلب حاملهِ | كالبحر يسموا على تدفقه

وقيل : حَمل العِلم على ثلاث خِصال : خِصلة الأخذ عن أهله ،

والصدق في نقله ، والإقرار للمُتعلم منه بفضله ؛ وتأدية العِلم على خصلتين : تأديته إلى من يستاهل أن يُؤدى إليه ، وصيانته عن من لا يُؤمن عليه ؛ فليحذر المُتعلم الإدلال على من يُعلمه ، وإن حسنت عنده حالته ، وارتفعت لديه منزلته ، وطالت له صُحبته ، فإن الإدلال على العُلماء من فعل الجهال ، وفيه فساد الأحوال .

وقد قيل لبعض الحُكماء : من أذل الناس ؟ فقال : عَالِم يجري عليه حُكم جاهل ؛ وقال عبد الله بن عُمر في ذلك :

أذل الناس من يجري عليه	الحُكم من جاهل
إذا ما كان ذا عِلمٍ	وفي أحواله عامل
فيرحل عنه أرض الله	واسعة الفضائل
ولا يقعد على ذل	يكن في الناس خامل

ويجب أن لا يظهر له الإستكفاء منه ، ولا الإستغناء عنه ، فإن في ذلك كفواً لِمَا أولاه ، وإستخفافاً بحقه ، ولا يقصده بتعنت في سؤال ، ولا يتعمده بتنكيد له بحال ، وإن أخذ من العِلم حظاً ، وحوى منه صدراً وحفظاً ، فيكون كمن تقدم فيه المثل السائر لإبن البطحا ، قوله :

أعلمه الرماية في صباه فلما إشتد ساعده رماني

ويروى لغيره :

أعلمه الرماية كل يوم فلما إشتد ساعده رماني

فمن رواه : [إشتد] (بالشين) ، فمعناه : إشتد وقوي ؛ ومن رواه : [إستد] (بالسين) ، فمعناه : لما تسدد لقصد الرمي ؛ والسداد القصد ، ومنه : التسديد ؛ وهذه الحالة من مصائب العُلماء ، أن يستجهلهم من علمُوه ، ويسترذلهم من خرجوه وفهموه ؛ وقال عبد الله بن عُمر في ذلك :

لا تظهر إستكفاءً ولا إستغناء في طلب العُلوم
من عَالِم يُوليك عِلماً للإفادة مُستقيم
لا تستخف بحقه وبفضله الحسن السليم
لا تسألنه تعنتاً توليه كُفراً بعد إحسان عظيم
واخفض جناحك للفقيه العَالِم البر الحليم
تجني ثمار العِلم فيما شئت من قلب رحيم
وتعيش مغبُوطاً به وتفوز بالشرف الجسيم

وقد قال النبي (ﷺ) ، عندما كلمته إبنة حاتم الطائي ، فقال لها : من أنت ؟ فقالت : إبنة الرجل الجواد حاتم ، فقال (ﷺ) :

" إرحموا عزيـز قـوم ذل ، إرحمـوا غنيـاً إفتقـر ، إرحمـوا عَالِمـاً ضاع علمه بين جهال " ؛ وقد قال صالح بن عبد القدوس :

وإن عنـاءً أن تُعَلِـم جـاهلاً ويحسب جهلاً أنه منك أعلم
متى يبلغ البُنيان يوماً تمامهُ إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
متى ينتهي عن سيء من أتى به إذا لـم يكـن منه عليه تـندم

ويجب أن يمثل له قائماً ، ويكـون لـه طائعاً خادمـاً ، فـإن فـي ذلك له المنفعة ، وهو ثواب وشرف لا منعة ، وأن يُلبيه إذا دعاه ، ويحفظ حقـه ويرعـاه ، ويصبر علـى لائمتـه ، ويشكر لفائدتـه ، ويكون له ذليلاً خاضعاً ، ولأمره سامعاً طائعاً ، ولإرادته مُسارعاً ، وأن يترحم عليه حيـاً وميتـاً ، ويذكره بـالجميل حـاضراً وغائبـاً ، ويرفع إليه ما سمع منه ، ويسند إليه ما حفظ عنه ، فإن ذلـك مـن أدب العقل ، وصدق النقل ، وحق العِلم ، وليصبر في التعليم علـى الغدو والرواح ، وتعب المساء والصباح .

فقد روي عن النبي (ﷺ) ، أنـه قـال : " إنكـم لـن تنـالوا مـا تحبون ، إلاَّ بالصبر على ما تكرهون ، ولا تبلغون ما تـهوون ، إلاَّ بترك ما تشتهون " .

وقال بعض الحُكماء : قدم لحاجتك بعض لجاجتك .

وفي منثور الحِكم : أتعب قدَمك فكم تعبٍ قدَّمك ؛ وقال محمد بن مداد :

أتعبْ أخيّ قدَمك كم تعبٍ قد قدَّمك
ولا تروحن سدىً فلا ترد ندمك

وقال بعض البُلغاء : إذا إشتد الكَلف ، هانت الكُلَف ؛ وقال عليّ بن أبي طالب :

لا تعجزن ولا تدخلك مضجرةٌ فالنجح يهلك بين العجز والضجر

ويجب أن يميل إلى العُلوم ، إلى ما تميل إليه نفسه ، ولا يكرهها على ما لا تميل إليه ، ولا يتكلف الحرص عليه ، فإن النفس غير آخذة ما لا تهواه .

وقد قال عليّ بن أبي طالب : إن القلب إذا أكره عُميَ ؛ وقال بعضهم :

لا تطلبن سوى ما النفس طالبة فربما فاتك الأمران ثم معا

ويجب أن لا يكون مأخذه هذا الفن تاركاً لما سواه من لفنون ، بل يرغب نفسه في غيره ، ويُشهيها ، ويُحببه إليها ، ويُمنيها ، ولا يكون عن غير ما رغب فيه من الفنون راغباً ، ولمُتحمله

عائباً ، بل يكون فيه راغباً ، ولـه مُعظماً طالباً ، فإن قليل العِلم كثير ، وصغيره كبير ؛ وقال الشاعر :

ترق إلى صغير الأمر حتى يرقيك الصغيرُ إلى الكبير
فتعرف بالتفكر في صغير كبيراً بعد معرفة الصغير

وقال محمد بن مداد في مثله :

تناول من قليل العِلم حتى تنال به من العِلم الكثير
فمن لم يحوِ من فن يسير غداً لم يحوِ من فن كبير
وما ذا العِلم إلاَّ كالمراقي يرقاها على مرٍّ الدهور
كما يرق الأمير إلى وزير ومن وزراً إلى الملك الخطير
كذاك النفس حليتها التجلي بما تُدعى إليه من الأمور
فإن دُعيت إلى رُشد أطاعت كطوع الإبن للأب الأمير
وإن دُعيت إلى جهل ضرير تداعت كالبناءِ على شفير
فأنت تطب نفسك كالسفير عذيرك ما تركت بلا عذير

عذيرك : من يعذرك ؛ والعذير : الحال التي أنت عليها .

وقد قال بعض الحُكماء : عليك بالعِلم والإكثار منه ، فإن قليله أشبه بقليل الخير ، وكثيره أشبه بكثير الخير ، ولن يعيب الخير إلاَّ القلة ، فأما كثرته فإنها أمنية ، ويجب إذا ظفر بمُعلم أن يلزمه ،

فربما عظم أسفه إن عدمه ، ولينتهز فرصته بأخذه عنه ، وليستفد غنيمته منه ، فليس في كل أوان للبُغية إمكان ، وربما شح الزمان بما سمح ، وضن بما منح ، والإشتغال صادة ، والأحوال رادة ، ويجب أن لا يفرغ جهده في التعليم ، فيفضي به ذلك إلى الملال ، والترك ، والإهمال .

وقد قالت الحُكماء : طالب العِلم ، وعامل البر ، كآكل الطعام ، إن أخذ منه قوتاً عصمه ، وإن أسرف فيه بشمه ، وربما كان فيه مُنيته وينبغي أن يريح قلبه في الأوقات ، ويخفف عنه في الساعات .

فقد روي عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " إن القلوب تموت وتحيا ولو بعد حين " .

وقال ابن مسعود : للقلوب شهوة ، وإقبال ، وفترة ، وإدبار ، فأتوها من قبل شهوتها ، ولا تأتوها من قبل فترتها .

وقال عليّ بن أبي طالب : إن هذه القلوب تمل ، كما تمل الأبدان ، فأريحوها ؛ وقال الشاعر :

وما سُميَّ الإنسان إلاَّ لنسيه   ولا القلب إلاَّ أنه يتقلب

وينبغي أن لا يتعمد بحفظه فيغفل تقييد العُلوم ، فإن النسيان آفة الحفظ .

وقد روي عن النبي (ﷺ) ، عن طريق أنس ، أنه قال : " قيدوا العُلوم بالكتاب " ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

قيدوا العِلم بالكتاب فإني قد رأيت القلوب حيناً تموت
قلّ من أهمل الكتابة إلاَّ فاته من عُلومه المأموت (١)
فاجعل العِلم في الدفاتر قوتاً إنما العِلم في الدفاتر قوت
قد تموت القلوب حيناً وتحيا إن أريحت وعز من لا يموت
رب ذي حكمةٍ وعاها فألقاها فألهاه رأيه المبتوت
فغدت من يديه مثل ضمار لا يعيها العصرين قلب شيت

وعن أبي هُريرة ، قال : كان رجل يشهد معنا حديث النبي (ﷺ) ، فلا يحفظ ، فإذا خرجنا سألني ، فأفهمته ، فشكى ذلك إلى النبي (ﷺ) ، فقال : " إستعن بيمينك " ؛ قال وكيع ، يعني : أكتب ؛ وقال الشاعر :

والعِلم تنساه إذا لم تقيد في الكُتب

ويجب أن يُترك العجب جانباً ، ولا يرضاه صاحباً ، فإنه يقبح

(١) المأموت : المقصود .

بالألباء ، ويزري بالأدباء ؛ وقال محمد بن مداد :

دع العجب إن العجب أقبح بالأدب
من الحمق لا شيء وأعدى من الحرب
وكيف إختيال من يطوف بعذرة أيُجمل أن يختال هذا من العجب

وينبغي أن يعلم ، أن العِلم يمنع من العجب ، وأن يعلم إنما عِلمه قليل يزر فيما لم يعلمه ، فإنه حتى يموت مُتعلماً مُحتاجاً ، فما وجه العجب ؛ ويجب أن لا يدع التعليم لكبر سنه ، فلأن يكون شيخاً مُتعلماً ، أولى من أن يكون شيخاً جاهلاً .

وقال المأمُون ، لعمه إبراهيم بن المهدي : والله لأن تمُوت طالباً للعِلم ، خير من أن تعيش قانعاً بالجهل ؛ قال : وإلى متى يحسن بي طلب العِلم ؟ قال : ما حسنت بك الحياة ، والجهل لك قبيح ، وبالكبير أقبح ، وهو له أشين وأسمج ، وإلى التعليم أفقر وأحوج .

<u>ومن غير الكِتاب :</u> وقال الشيخ للمأمُون : أقبح لي أن أستفهم ، فقال : بل قبيح بك أن تستبهم ؛ رجع .

وقال بعض الأدباء :

إذا لم يكن مر السنين مُترجماً عن الفضل في الإنسان سميته طفلا
وما تنفع الأعوام حين تعدها ولم تستفد فيهن عِلماً ولا فضلا
أرى الدهر من سوء التصرف مائلاً إلى كل ذي جهلٍ كأن به جهلا

وقال محمد بن مداد في مثله :

إذا المرء نيف للأربعين ولم يحو عِلماً نبيلاً وفضلا
فدعه فما نفع عد السنين إذا كان يزداد فيهن جهلا
فذلك كالضب يدعى الجهول شيخاً ويُوصف بالحِلم حِسلا

ويجب أن لا يستضعف التعليم ، ولا يستضعف نفسه ، فإن الهيبة تورث الخيبة ؛ وقال الشاعر :

لا تكونن للأمور هيوباً فإلى خيبةٍ يصير الهيوب

ولمحمد بن مداد ، فيما يقرب منه :

إن من هاب خاب والمُترجي أن ينال المُنى به لا يخيب

وقال الشاعر :

إذا أردت مركباً فقع فيه فإنما هيبته توقيه

وقال محمد بن مداد :

إذا طلبت فنون العِلم والأدب فاجهد بجهدك في التعليم والطلب
فليس كل زمان أنت مُدركه حتى ترقى إليه غير مُتيب [1]

الإتياب : الإستحياء ؛ والمُتيب : المُستحي .

ويجب إذا حضر مجلس مُعلمه ، أن لا يسيء فيه أدابه ، ولا يعترض عليه جوابه ، كما فعل الفرزدق في مجلس الحسن ، فيستخرق .

حدث أبو بكر الهذلي ، قال : جاء الفرزدق إلى مجلس الحسن ، وقد حُشد ، فتخطى القوم ، حتى جلس إلى جنبه ، فجعل لا يسأل الحسن عن شيء ، إلاّ بادره بالجواب ؛ فقال : ألم تسمع ما قلت في هذا ؟ وسأله رجل حلف ، وقال : لا والله ، وبلى والله ، ولم يرد عقد يمين ، فبادره بالجواب ، وقال : ألم تسمع ما قلت في هذا ؟ فقال : وما قلت ؛ فقال :

ولست بمأخوذٍ بلغوٍ تقوله إذا لم تعمد عاقدات العزائم

وجاءه رجل ، فقال : يا أبا سعيد ، إنا نكون في المغازي ، وإن أحدنا يُصيب المرأة ، أيحل له غشيانها ؟ فقال الفرزدق : أما سمعت ما قلت في هذا ؟ فقال الحسن : ليس كل ما قلت قد سمع

(١) مُتيب : مُستحي .

الناس ، فما قلت ؟ فقال :

وذات حليل أنكحته رماحنا   جهاراً لمن يبني بها لم يطلق

وكان لا يسأل الحسن عن شيء ، إلاّ بادره الفرزدق بالجواب ، فأجابه فيه بشعره ؛ وهذا هو الجهل ، والحُمق ، وسوء الأدب ، والخرق ؛ يقول : خرق الرجل يخرق ، من الحُمق فهو أحمق ؛ وخرق بالشيء يخرق ، فهو أخرق ، أي : فلا يُحسن العمل بيده ؛ والخرق نقيض الرفق ، وصاحبه أخرق ؛ والخرق من الفتيان الظريف في سماحة ونجده ؛ وقال :

وخرق ترى الكأس أكرُومةً   يهين اللجينُ لها والنظارا

والنظار : الذهب ؛ واللجين : الفضة .

الباب الثالث عشر :
في أدب المسؤول والسائل والفُتيا والجواب عن المسائل

السؤال : يُهمز ولا يُهمز (لغتان) ؛ تقول : سأله ، وساله ، وسألته ، وسئل ، وسيل ، ويُسئل ، ويسل ؛ وقرئ : ﴿ كما سُئل مُوسَى من قبل ﴾ (١) ، وهي لغة من لا يرى الهمز ؛ قال الشاعر :

سالت هذيل رسول الله فاحشةً ضلت هذيل بما سالت ولم تصب

وهو من السؤال ، إلاّ أنها لغة من لا يهمز ؛ وقال آخر :

سالتني الطلاق إن رأتاني قل مالي قد جيتماني بنكر

فلم يهمز ؛ وأنشد الفرا :

أقول لها إذا سالت طلاقاً إلام تسارعين إلى الطلاق

ويروى : [قرأ] في همز ؛ وقرأ : ﴿ اهبطوا مِصراً فإن لكم ما سألتم ﴾ (٢) ، وبعضهم : (ساءلتم) ، فجمع بين ساكين ،

(١) سورة البقرة : ١٠٨ .
(٢) سورة البقرة : ٦١ .

وبعضهم يجعله من أولاد الثلاثة ، فيقول : سلتم (بكسر السين) ، وأنت تسالون ، مثل : خفتم ، وتخافون ؛ وقال الفرزدق :

تعالوا فسالوا يعلم الناس أينا لصاحبه في أول الدهر تابع

وعن ابن عباس ، أنه قرأ : ﴿ ولا تسئل عن أصحاب الجحيم ﴾ [1] ، (بفتح التاء ، وجزم اللام) ؛ ويقول : سألت فلاناً مسألة (بالهمز) ؛ وسلته سوالاً (بلا همز) وساله - أيضاً - مسالة ؛ وقال المجنون :

وناديت يا ذا العرش أول سالتي لنفسي ليلى ثم أنت حسيبها

وقال آخر :

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهُمُ فما الناس إلاّ عَالِم وجهول

وعن عليّ بن أبي طالب ، أنه قال : سلوني قبل أن تفقدوني ؛ وقال حميد بن ثور :

سل الربع أني يممت أم طارق وهل عادة للربع أن يتكلما

وقال آخر :

---

(١) سورة البقرة : ١١٩ .

وجامع العِلم مغبوطاً بزهرته وفضل أرائه إن سال [1] أو سيلا

وقال آخر :

فسل الفقيه تكن فقيهاً مثله من يسع في عِلم بفقهٍ يمهر

والعرب قاطبة تحذف همزة سال ، فإذا وصلت بالواو ، أو ألفا (هُمزت) ، كقولك : فاسأل ، وسأل ؛ وجمع المسئلة : مسائل ؛ وتقول : ساولته ، مساولة ، في لغة هذيل ؛ ومن قال : سايلته ، فقد أخطأ .

فصل منه

والسؤال على وجوه ، فمنه : سؤال الإنسان شيئاً ؛ ومنه : سؤال مُطالبة بحق ، وهو كقولك : سألت فلاناً ما لي عليه ، أي : طالبته ، فلا يحتاج في هذا إلى عن .

قال الله تعالى : ﴿ وكان عهد الله مسئولا ﴾ [2] ، أي : مُطالباً به ؛ وكذلك : ﴿ وإذا الموؤدة سئلت * بأي ذنب قتلت ﴾ [3] ، أي : طولب بها وائدها ؛ قال الشاعر :

(١) في نسخة أخرى : قيل .
(٢) سورة الأحزاب : ١٥ .
(٣) سورة التكوير : ٨ ـ ٩ .

وسألناكم قبل الرماح حقوقنا   فلما أبيتم كان حاكمنا السمر

ومنه : سؤال إستخبار عن الشيء ؛ ومنه : سؤال تعليم ؛ ومنه : سؤال تفهم ؛ ومنه : سؤال تعنت ؛ وليس كثرة السؤال فيما إلتبس أعناتا ، ولا قبول ما صح في النفس تقليداً .

فقد روي عن رسول الله (ﷺ) ، أنه قال : " العِلم خزائن ، ومفاتيحه المسألة ، فسألوا رحمكم الله ، فإنما يُؤجر في العِلم ثلاثة : القائل ، والمُستمع ، والأفد " .

ويُقال : سل سؤال الحمقا ، واحفظ حفظ الكيسا ، أي : إسمعه (١) ؛ واسأله : إذا طلبت منه شيئاً ؛ وسأل القوم عن كذا ، أي : سألوا عنه غيرهم ؛ ويسأل القوم بعضهم بعضاً عنه ؛ وتقول : سألت عبد الله عَالِماً ، يُريد : سألت عبد الله فوجته عَالِماً .

فصل منه

وحروف الإستفهام تسعة عشر حرفاً ، وهي : [هل ، والألف ، وأين ، وكيف ، ومتى ، وأنى ، وما ، ومن ، وأي ، وأيان ،

---

(١) في نسخة أخرى : افهمه .

وما بالك ، وما شأنك ، وما لك ، ولعل ، ولولا ، ولو ما ، وهل لا ، وكم ، وماذا] ؛ فأما [هل] : فإنها تقع على كل خبر ، فيقع جوابها بلا ونعم ، كقولك : هل قام زيد ؟ فيقول : نعم ، أو لا ؛ وأما [الألف] : فأنها تنجم عن [أي] ، وتكون [أم] ، مردودة عليها ، كقولك : أيهما ضربت ، زيداً أم عمرواً ؟ فيقع الجواب بأحد الإسمين ، فإذا إبتدأت بها ، ولم ترد عليها [أم] ، وقع الجواب فيها بلا أو نعم ، كقولك : أقام زيد ؟ فيقول لك : لا أو نعم ؛ وقد يدخل على [الألف] : [هل] في الإستفهام ؛ قال الأعشى :

أهل يكذب من أدلى بحجته وهل يكذب أمثالي إذا نطقوا

فجاء بالجميع في البيت ، وقد ذكرت علل [هل] في كِتاب : " الإبانة " ؛ فأما [أين] : فإنها إستفهام عن المواضع والأمكنة ؛ وأما [كيف] : فإنها إستفهام عن الإسم ، إذا قيل (١) : كيف أنت ؟ قال صالح : بخير في عافية .

ويُقال : [كيف] كانت في الأصل [كيفه] ، ثم حُذفت [الهاء] ، فبقيت [الفاء] على فتحتها ، والعرب تحذف خبر [كيف] بمعرفتهم

(١) في نسخة أخرى : قلت .

بذلك ؛ قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة ﴾ [1] ؛ وهو كثير في القرآن ؛ قال جميل بن مُعمر :

فكيف ولا توفي دماؤهم دمي ولا مالهم ذو بدهةٍ فيدوني

أي : كيف يقتلونني ؟ فحذف خبره ؛ وقوله : [ذو بدهةٍ] ، أي : ذو سعة وكثرة ؛ ويدوني من الدية ؛ وقد ذكرت علل [كيف] في كِتاب : " الإبانة " ؛ [ومتى] : فإنها إستفهام عن المواقيت ، إذا قلت : متى يخرج ؟ قال : يوم الخميس ، أو يوم الجمعة ؛ فأما [أي] : فإنها مُشاكلة [لأين] ؛ وأما [ما] : بمعنى [أي] : وهو إستفهام عن جنس الشيء ؛ قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ﴾ [2] ؛ إذا قلت : ما أكلت ؟ قال : خُبزاً ، لحماً ، تمراً ؛ [ومن] : لا تكون إلاَّ إستفهاما من غير الأناسي ؛ [وأي] : إذا أضفتها إلى معرفة ، وقع الجواب بأحد الإسمين ، كقولك : أي الرجلين قام ؟ فيقول زيد : عمرو ؛ فإذا أضفتها إلى نكرة ، وقع الجواب بصفة الإسم ، كقولك : أي رجل قام ؟ فيقول : حسن ، قبيح ، طويل ، قصير ؛ [ولأي] ، أربعة مواضع : معنى الإستفهام ، ومعنى الجزاء ، ومعنى الخبر ، ومعنى التعجب ،

---

(١) سورة محمد : ٢٧ .
(٢) سورة البقرة : ٦٨ .

وليس القصد بالكِتاب ، إلاّ هذا الباب ، فأذكره ، ولذلك تركت شرحه ؛ [وأيان] : مُشاكله [لمتى] ، إلاّ أنها كناية عن الحين ، كقولك ، أيان يخرج ، معناه : أي حين يخرج ؛ وفي القرآن : ﴿ أيان مرساها ﴾ [1] ؛ وأما [ما بالك ، وما شأنك ، وما لك] : فكله إستفهام عن الحال مُتشابه ؛ [ولعل] : إذا إستفهمت بها ، وقع الجواب منها بنعم ولا ، كقولك : لعلك تقوم ؟ لعلك تقعد ؟ فيقول : لا أو نعم ؛ [ولولا ، ولو ما] : بمنزلة [هلا] ، إذا جئت معهما بالماضي ، لم يحتاجا إلى جواب ، وإذا جئت معهما بمُستقبل ، وقع معهما الجواب بلا وبلى ؛ [وكم] : إستفهام عن العدد ، إذا قلت : كم عندك من دراهم ؟ فيقول : عشرة ، وعشرون ؛ [وماذا] : إستفهام بمنزلة [ما] ، وفيه إختلاف ، قال قوم : هما حرف واحد ، وقال ابن الأنباري : [ما] صلة ، [وذا] : لمعنى الذي ؛ وفي القرآن : ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ [2] ؛ وقال الزجاج : ما أراد بالذباب والعنكبوت مثلا ؛ [ولم] : إستفهام عن علة الشيء ، وتكون بغير [الألف] ؛ وكذلك [بم ، وفيم ، وعم] ؛ قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ لم تؤذونني ﴾ [3] ؛

(١) سورة الأعراف : ١٨٧ .
(٢) سورة البقرة : ٢٦ .
(٣) سورة الصف : ٥ .

وقولـه (سبحانه وتعالى) : ﴿ فيم أنـت من ذكراهــا ﴾ [1] ، وقولــه (جل جلاله) : ﴿ عـم يتسـاءلون ﴾ [2] ؛ ويقـول : عـم تسـال ، وفيـم تقـوم ، ولـم تقعد ، وتقول في الأخبار : سل عمـا بـدا لـك ، وجـد فيمـا شئت ، وامض لما أمرت ، فهذا الفرق بين الإستفهام والإخبار .

فصل منه

وينبغي للعَالِم ، إذا سأله السـائل مُتعلمـاً ، أن يجيبـه ، فــإن عاوده مُتفهماً ، أن يفيده ويُبينه ولا يضجر ، فربما لـم يفـهم عنـه الجواب في أول إجابته ، فإن بان له أنه يسأله مُتعنتاً ، أو عابثاً ، أو طالب رخصة ، أو مُتأولاً ، صمت عنه ولم يجبه ، لأن المُتعنت يُريـد الأذى ، ويقصـد الإمتحـان ، فجديـر أن يقـف المسؤول عـن جوابه .

وهذا ابن عباس ، العَالِم الحبر ، والبحر ، والقدوة ، والقائل : من يسألني عما دون العرش ، أخـبره بـه ؟ قـد أمسـك عـن إجابـة المُتعنت له .

وهـذا علـيّ بـن أبي طالب ، قـد سـأله ابـن الكـوا ، وهـو على المنبر ، فـقـال لـه : ويـلك ، إجلـس يـا ابـن الكـوا ، إنـك مُـتعنت ،

(١) سورة النازعات : ٤٣ .
(٢) سورة النبـا : ١ .

ولست بمُتفقه ؛ فقال : والله ما أنا بمُتعنت ، وإني لمُتفقه ، وإنك لإمام ، وإنا لرعية ، وإن لله عليك الحجة ؛ فقال : ويلك يا ابن الكوا ، سل تفقه ، فإن بين أضلاعي عِلم جم ؛ فقد توقف عن إجابته ، إذ ظن أنه له مُتنعنت ، ثم أجابه إذ أقسم له أنه مُتعلم ؛ والتعنت : التفعل : من العنت ، وهو إدخال المشقة على الإنسان ؛ تقول : قد عنت فلان ، أي : لقي عنتاً ، يعني : مشقة في أمر يكون ؛ وأعنته فلان إعناتاً : إذا أدخل عليه عنتاً ؛ وتعنته تعنتاً : إذا سأله عن شيء ، أراد به اللبس عليه والمشقة ؛ وفي القرآن : ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم ﴾ [1] ، أي : لأهلككم ، بالتشديد عليكم في مُخالطتكم ؛ والعنت : الهلاك ؛ قال القطامي :

فلا هُمُ صالحوا من يبتغي عنتي ... ولا هُمُ كدروا الخير الذي فعلوا

وأنشد الفرا :

يحاول إعناتي بما قال أو رجا ... ليضحك مني أو ليضحك صاحبه

وفي القرآن ـ أيضاً ـ قوله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ ذلك لمن خشي العنت منكم ﴾ [2] ؛ وأصل العنت : الهلاك ، ثم جعل كل ما يضر بالإنسان ويشق عليه : عنت ؛ ومن سأل عانتاً ، أو لعباً [3] ، أو للرخص

(١) سورة البقرة : ٢٢٠ .
(٢) سورة النساء : ٢٥ .
(٣) في نسخة أخرى : عبثاً .

في الدِّين طالباً ، فالسكوت عنه صواب ، وهو له جواب ، لأنه يكون سؤاله ذلك تسفيهاً ، ولا جواب أقطع للسفيه من الصمت ؛ وقد قالت الحُكماء في ذلك ، والشعراء : شِعراً ، فأكثرت ؛ قال :

إذا نطق السفيه فلا تجبه   فخير من إجابته السكوت

وقال آخر

أشد مردودٍ على السفيه   سكت يرد قوله في فيه

وقالت الحُكماء : الصمت حكم ، وقليل فاعله ؛ وقال محمد بن مداد :

يا رب قول قد آلام قائله   وود أن لو كان جذ عامله
الصمت حكم وقليل فاعله   ما لامه في الصمت يوماً عاذله
عقل الفتى في صمته مقائله

وكان بعض الحُكماء ، إذا سُئل عن أمر ، يكره فيه الجواب ، تمثل بهذا البيت :

أرى الصمت خيراً من أمور كثيرةٍ   إذا لم يكن للناطقين كلام

وقد سُئل أبو محمد (رحمه الله) ، عن غير مذهبه ، فتمثل على السائل بهذا البيت :

يحاول مني شيمة غير شيمتي ويطلب مني مذهباً غير مذهبي

وقال محمد بن مداد :

وفي الناس من تلقاه في العِلم سائلاً مُخالط حُمق في طماعة أشعب
يحاول مني شيمة غير شيمتي ويطلب مني عابثاً غير مذهبي
صَمتُ ولم أعبأ له عن جوابه وقطع سفاه المرء من غير مأرب

وقال عبد الله بن عُمر في ذلك :

أرى كل ذي حُمقٍ يعُرض سائلاً ليردعني عن مذهبي عند مطلبي
يُريد فعالاً مثل أفعال أشعبٍ إلاّ أن أردى الفعل أفعال أشعب
يصور أفعالاً لأطماع نفسه كأطماعه في كل آل تسبسب

ويُقال للسائل إذا خلط في سؤاله : قد لبس ، وأيتن ، وأشكل ، وموه ، وورى ، وعسر ، ولبك .

قال الحسن البصري ، لرجل سأله عن شيء : لبكت عليَّ ، أي : خلطت عليَّ ؛ ويُقال : أمر لبك ، أي : مُختلط ؛ وقال زهير :

رد القيان جمال الحي فاحتملوا إلى الظهيرة أمرٌ بينهم لبك

ويُقال : بلكت ـ أيضاً ـ : إذا خلطت ، وهو من المقلوب ؛ قال المرار :

أناة كان المسك دون شعاعها يبكله بالعنبر الورد مقطب

يبكله ، أي : يخلطه ؛ والمقطب : المازج ؛ يُقال : قطبت الشراب ، وأقطبته .

قال عيسى بن عُمر : سألت ذا الرمة ، عن شيء ليس على جهته ؛ فقال : أتعرف اليتن ؟ فقلت : نعم ؛ فقال : كلامك هذا يتن ، كله مقلوب ؛ واليتن : أن يخرج رجلاً المولود قبل رأسه ؛ يُقال : أيتنت المرأة ويتنت ، إذ أنالها هذا .

وقد روي عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " هلا سألتموه ، إذا لم تعلموا ، وإنما شفاء العمى السؤال " ؛ وقال الشاعر :

فاسأل ولا يصدك الحياء إن السؤال للعمى شفاء

وروي عنه (ﷺ) ، أنه قال : " إياكم وكثرة السؤال ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة السؤال " ؛ وليس هذا مُخالفاً للأول ، وإنما أمر بالسؤال ، من قصد به عِلم ما جهل ، ونهى عنه من قصد به إعنات ما سأل .

وينبغي للعَالِم إذا سُئل ، أن لا يُعجل بالجواب ، وإن كان له حافظاً ، حتى يعرفه معرفة صحيحة ، فيُجيب بعِلم ويقين ، فإنه من أداب العُلماء وصفاتهم .

وقد يُروى في الحديث : المُؤمن وقاف ، والمُنافق وثاب ؛ وينبغي إذا سُئل عما يعلم أن يُجيب ، ولا يقول : لا أدري ، فإنه مكروه كذب ؛ وقد قيل : أن الرياء سبعة وسبعين باباً ، أدناه حين يقول فيما يدري : لا أدري .

وعن ابن عباس : أن عُمر سأل أصحابه يوماً ، عن قول الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب ﴾ (١) ، فقالوا : الله أعلم ، فغضب ، وقال : قولوا : نعلم ، أو لا نعلم .

وعن عُمر ، أنه سأل رجلاً عن شيء ، فقال : الله أعلم ؛ فقال عُمر : قد خزينا إن كنا لا نعلم ، إن الله يعلم ، إذا سُئل أحدكم عن شيء ، إن كان يعلمه قاله ، وإن كان لا يعلمه قال : لا أدري بذلك ؛ وينبغي إذا سُئل عن ما لا يعلم ، أن يقول : لا أدري .

قال ابن عباس : إذا ترك العَالِم قول : لا أدري ، أصيبت مقاتله .

وقال بعض الحُكماء : من قال : لا أدري عِلم ، فدري ؛ ومن إنتحل ما لا يدري ، أهمل فهوى .

ويُروى عن النبي (ﷺ) ، إنه قال : " لا أدري نصف العِلم ".

---

(١) سورة البقرة : ٢٦٦ .

وقال بعضهم : هلك من ترك لا أدري .

وكان ابن عباس ، وهو ترجمان القرآن ، وخير هذه الأمة ، وعَالِمها ، وربانيها ، يقول : ما [1] أدري ما الغسلين .

وروي أن رجلاً سأل النبي (ﷺ) : أي البقاع خير ؟ وأي البقاع شر ؟ فقال (ﷺ) : لا أدري ، حتى أسأل جبريل (عليه السلام) ، فنزل جبريل (عليه السلام) بعد ثلاث (صلى الله عليهما) ؛ وقال ابن دريد :

من كان يهوى أن يرى مُتصدراً ويكره لا أدري أصيبت مقاتله

وقبيح بالرجل أن يتكلم بما لا يعلمه ، ومُحرم عليه ذلك ، سيما في الدِّين ، فإنه لا يخلوا أن يحل حراماً ، أو يحرم حلالاً ؛ وقد قالت العُلماء : تحريم الحلال ، كتحليل الحرام ؛ وقد أحسن عبد الله بن مُصعب إذ يقول :

ترى المرء يعجبه أن يقول وأسلم للمرء أن لا يقولا
فأمسك عليك فضول الكلام فإن لكل كلام فضولا
ولا تصحبن أخاً بدعةٍ ولا تسمعن له الدهر قيلا
فإن مقالتهم كالظلال توشك أفياؤها أن تزولا

(١) في نسخة أخرى : لا أدري .

وقـــد أحكـــم الله آياتـــه وكـان الرسـول عليـها دليـلا
فأوضح للمُـؤمـنـين السـبيـل فـلا تـتـبـعن سـواهـا سـبيـلا

فلا يجوز للمسؤول أن يجيب إلاَّ بما يعلم صحته ، إما حفظاً أو رأيا ، إن كان من أهل الرأي .

لما روي عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " لا يستحي منكم من لا يعلم أن يتعلم ، ولا يستحي عَالِم أن يسأل عما لا يعلم ، أن يقول : الله أعلم " ؛ وقال محمد بن مداد :

ألا لا يستحي من سأل عِلماً فيجـهل أن يقـول الله أعلـم
تـعلم يـا أخـي فالعِلم زيـنٌ ولا تـدري إذا مـا لـم تـعلم

وقال عبد الله بن عُمر بن زياد في ذلك :

ألا لا تســأمن إذا سُــئلتا فـأفت السـائلين بمـا عَلِمتـا
وفيمـا لـم تعيـه بقلــب واع فقــل الله أعلــم إن أردتــا
ورد الـعِلـم للـبـاري تـعـالى ولا تـنطق بشيء ما حفظتا

وعن غرة التميمي ، قال : قال عليّ بن أبي طالب : ما أبردها على الكبد (ثلاث مـرات) ؛ قـالوا : ومـا ذلـك يـا أمـير المُؤمنيـن ؟ قال : أن يُسأل الرجل عما لا يدري ، فيقول : الله أعلم ، أي أرض

تسعني ، وأي سماء تظلني ، إذا قلت على الله ورسوله ما لا أعلم .

ويروى عن ابن عباس - أيضاً - أنه قال : ما أبردها على الكبد ، إذا سُئل أحدكم عما لا يعلم ، أن يقول : الله أعلم .

وعن عليّ - أيضاً - أنه قال : ما أبردها على الكبد ، إذا سُئل أحدكم عما لا يعلم ، أن يقول : الله أعلم ، فإن العَالِم من عرف أن ما يعلم فيما لا يعلم قليل .

وفي رسالته إلى ولده الحُسين ، جاء فيها : فإن شكل عليك أمر ، فاحمله على جهلك ؛ وقد مر هذا في باب الجهل .

وقال أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) ، وهو على منبر سول الله (صلى الله عليه وسلم) : أيأنف أحدكم إذا سُئل عن ما لا يعلم أن يقول : الله أعلم ؛ فلا ينبغي للعَالِم أن يأنف من ذلك ، فإنه نصف العِلم .

وقد رُوي عن بعض الفرضيين ، أنه قال : قد حويت العِلم كله ، فقيل له : من أين قلت ذلك ؟ فقال : لعِلمي بالفرائض .

وقد قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : " الفرائض نصف العِلم ، ولأن أقول فيما لا أعلم : الله أعلم " .

وقد قال النبي (ﷺ) : " قول : الله أعلم نصف العِلم ، فقد كمل العِلم " ؛ وقال عبد الله بن عُمر :

إن الفرائض نصف العِلـم إن سُئلا قد قال ذاك رسول الله حين تلا
والله أعلم أيضاً نصفـه فلقد حويت عِلماً جليلاً كله كملا

وكيف يأنف مما ثبت في الأخبار ، وفعلتـه الأخيـار ، وجـاءت به الآثار .

وقال ابن عيينـه : يستحب للعَالِم إذا عَلِمَّ لا يُعَّنِفَ ، وإذا عُلِمَ لا يأنف .

وقال بعض الحُكماء : من العِلمِ أن لا يتكلم فيما لا يعلم ، بكلام من يعلم ، فحسبك خجلاً من عقلك ، أن تنطق بما لا تفهم .

ويجب على مـن سُئل عمـا لا يعلـم ، أن يُجيـب بمـا أجـاب بـه ملائكة الله (عز وجل) ، لما قال (سبحانه وتعالى) : ﴿ أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾ (١) .

وسُئل النبي (ﷺ) ، عن خير البقاع ، وشر البقاع ، فقال : لا أدري .

وعن ابـن مسعود ، قـال : إن مـن العِلم ، إذا سُئل أحداً عما لا

---

(١) سورة البقـرة : ٣١ ـ ٣٢ .

يعلم ، أن يقول : الله أعلم ؛ وعنه : أن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه به ، إنه لمجنون .

وقد قال الحسن : إن ابن آدم ، لو أصاب في كل شيء جن ، يُريد به : أنه يعجب بنفسه ، حتى يكون كالمجنون ، من شدة إعجابه بنفسه ؛ ولعل قول الشنفري الأزدي ، في المرأة من هذا ، حيث يقول :

فآثت وطالت واسبكرت وأكملت   فلو جُنَّ إنسان من الحُسن جنت

يُريد : لو أعجب إنسان بحُسنه ، حتى يكون كالمجنون ، لكانت هذه المرأة ؛ وآثت : إشتد إلتفاف شعرها ؛ وكأن الشعبي يقول : هذا البيت أغزل بيتٍ قالته العرب .

فصل منه

وينبغي للمسؤول أن يلين للسائل جانبه ، ويبين له جوابه ، ولا يمنعه الفائدة راغباً .

فقد روى الحس البصري ، في قول الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ (١) ، يقول : لا تزجره ، ولا تنهره ؛ قال : ليس

(١) سورة الضحى : ١٠ .

سائل الطعام والشراب ، ولكنه سائل العِلم .

وقال ابن عباس : السائل الذي سأل ماله ، والله أعلم ؛ ويقوي هذا التأويل ، مُعاتبة الله (عز وجل) ، نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، بقوله (سبحانه وتعالى) : ﴿ عبس وتولى * أن جاءه الأعمى ﴾ (١) ؛ قال الضبي : هو ابن أم مكتوم ، وإسمه : عبد الله بن شريح ، من بني عامر بن لؤي ؛ وأم مكتوم أمه ، غلبت عليه ، لأنها كانت شريفة ، وإسمها : عاتكة بنت عبد الله .

قال الكلبي : وكان ابن أم مكتوم ، جاء إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وعنده : العباس بن عبد المُطلب ، وأمية بن خلف ، وصفوان بن أمية ، وهو مُقبل عليهم ، يعظهم ويدعوهم إلى الإسلام ؛ فقال : أقرئني يا رسول الله ، وعلمني مما علمك الله ، وليس يرى من عنده ، فعبس في وجهه ، وأعرض عنه لشغله بهم ، فأنزل الله (عز وجل) : ﴿ عبس وتولى * أن جاءه الأعمى ﴾ (١) ، وقرئ : ﴿ أن جاءه الأعمى ﴾ ، مثل : ﴿ أن كان ذا مالٍ وبنين ﴾ (٢) ، فأكرمه رسول الله بعد ذلك ، وكان يقول إذا جاءه : مرحباً بمن عُوتبت من أجله ؛ وروي : بمن عاتبني فيه ربي ؛ واستخلفه على المدينة .

(١) سورة عبس : ١ ـ ٢ .
(٢) سورة القلم : ١٤ .

وعبس : كلح ، وقطب وجهه من الكراهية ؛ ويُقال : عبس وجهه ، يعبس ، عبوساً ، فهو : عابس ؛ فإذا كان ذلك من عادته ، فهو : عبوس ؛ وقال أبو زيد ، يذكر الأسد :

فينا ذاك أرمل ذات يومٍ فراح وفي تشتمه عبوس

أرمل : فني زاده ؛ والتشتم والعبوس : بمعنى واحد ؛ فإن أبدى الإنسان عن أسنانه في عبوسه ، قلت : كلح ؛ وإن إهتم بذلك وفكر فيه ، قلت : بسر ؛ وهكذا تفسير قول الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ ثم عبس وبسر ﴾ (١) ؛ فإن غضب مع ذلك ، قيل : بسر ؛ فإن زوى بين عينيه ، قلت : قطب ، فهو : قاطب عابس .

وإذا كان السائل ، إنما يسأل عما إفترض الله عليه ، ولزمه العمل به ، لا مُتعنتاً ، ولا طالب حجة على المُسلمين ، وجب على المسؤول إجابته ، ولم يجز له أن يكتمه ؛ ومن سأل عن مسئلة واقعة ، والسائل محتاج إلى جوابها ، والمسؤول عنها حافظ لها ، فعليه أن يجيبه ولا يكتمه ؛ وإن كانت غير واقعة ، والسائل عنها مُستحق لتعليمها ، فعليه ـ أيضاً ـ أن يخبره ولا يكتمه ؛ وإن كان السائل عنها غير أهل للحكمة ، فليس عليه أن يخبره ؛ ومن سأل عما لا يهتدي له بدلالة ، فيجب له أن يقف عنه ، ويرجيه إلى الله

---

(١) سورة المُدثر : ٢٢ .

تعالى ، حتى يصح لـه سبيله مـن طريـق الخـير ، لأن الحُكم فـي الحادث ، بغير دلالـة مـن خـير أو عقـل ، دعـوى علـى الله (عَزَّوَجَلَّ) بغير عِلم .

ومن إدعى على الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) بغير عِلم ، فقد حاد عن الصواب ، لأنه يدعي على الله تعالى ، أنه أحله وحرمه ، فقد إفترى على الله الكذب ، وقال محمد بن مداد :

ألا لا تفتيـن بغـير عِلـم فتخسر أو تبوء بكل إثـم
إذا ما لم تجـد شيئاً فدعـه وقل هذا يغيب عنـه فـهمي
فليس عليك حين وقفت عيب وعيب أن تقول لقومه بوهم
فترمي فيه بالتخمين ظنـاً فتخطيء للإصابة حين ترمي

وليس وقوف العُلماء عما يسألونه بعيب ، إذا لم يعلموه ، فقد وقفت ملائكة الله الكرام ، ووقف نبيه (ﷺ) ، وفعل ذلك أبو بكر الصديق ، والفاروق عُمر (رحمهم الله تعالى) والعُلماء .

وهذا ابن عباس ، قد سُئل عن مسئلة ، فقال : الله أعلم ؛ فقيل لأبيه : إن عبد الله سُئل عن مسئلة ، فقال : الله أعلـم ؛ قـال : بـخ بخ ، رد العِلم إلى العَالِم ؛ ثم سُئل عن مسئلة أخـرى ، فقـال : لا أدري ؛ فقيل لأبيه ذلك ، فقال : بخ بخ ، فرق بين ما يدري وما لا

يدري .

وسُئل ابن عُمر عن مسئلة ، فقال : الله أعلم ؛ ثم قال ـ يُخاطب نفسه ـ : سُئل ابن عُمر عن مسئلة ، فقال : الله أعلم ، أحسن ابن عُمر.

وعن مجاهد ، قال : سُئل ابن عُمر عن مسئلة هينة ، فقال : لا أدري ؛ فلما ذهب الرجل ، قال ابن عُمر : ما أحسن ما قال ابن عُمر ، سُئل عما لا يعلم ، فقال : لا أدري .

وفي رواية : أنه سُئل عن فريضة ، فلم يحسنها ، فقال : لا بأس ، سُئل ابن عُمر عن فريضة ، فلم يحسنها ؛ وهو أحد العبادلة ، وهم : عبد الله بن العباس ، وعبد الله بن عُمر ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص .

ومن سُئل عما سمعه (١) من المُسلمين ، أو حفظه من آثارهم الصحيحة ، وعُرف عدله ، جاز له أن يفتي به من سأله ؛ وأما من يفتي من نفسه ، فحتى يكون من أهل الفُتيا في ذلك ؛ وما لم يُعرف عدله ، ولا أنه من المُسلمين ، فلا يُجيب فيه ، فإن قال : وجدت في الآثر كذا وكذا ، فقد قيل : ليس لهم الأخذ بذلك ، إلاّ أن

(١) في نسخة أخرى : يعرفه .

يقول : وجدت في آثار المُسلمين فجائز ؛ ومن كان من أهل العِلم ، واحتاج الناس إليه ، فسألوه عما هو به عَالِم ، فعليه أن يُعرفهم ، ويدع عنه الشك ، فإنه من الشيطان ، وهو مذموم ؛ والشك لا يدفع اليقين ، فليتركه وليقل بما علمه الله ، وليعمل بما أمره الله (عزّ وجلّ) .

فصل

وروى ابن عُمر : أن رسول الله (ﷺ) ، قال : " من قال عليَّ ما لم أقله ، فليتبوأ مقعده من النار " ؛ والمشهور من قوله (ﷺ) : " من كذب عليَّ مُتعمداً " .

وقال (ﷺ) : " مازال أمر بني إسرائيل صالحاً ، حتى كثر فيهم - أو قال : حدث فيهم - أبناء السبايا ، فسألوا ، فأفتوا بغير عِلم ، فضلوا وأضلوا " .

وقال (ﷺ) : " من سُئل ، فأفتى بغير عِلم ، فقد ضل وأضل " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " إن الله لا ينزع هذا العِلم إنتزاعاً ، من صدور الناس ، بعد أن عَلِمُوه ، ولكن يموت العُلماء ، فإذا لم يبق عَالِمٌ ، أحدث الناس رؤساء جهالاً ، فسُئلوا ، فأفتوا بغير

عِلم ، فضلوا وأضلوا " .

وعن عائشة ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " إن الله تبارك وتعالى ، لا يقبض العِلم إنتزاعاً ، بنزعه من الناس بعد أن أتاه ، ولكن يقبضه بموت العُلماء ، لأنه كلما مات عَالِم ، ذهب ما معه من العِلم ، فإذا لم يبق عَالِمٌ ، إتخذ الناس رؤساء جهالاً ، فسُئلوا ، فأفتوا بغير عِلم ، فضلوا وأضلوا " ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

إن قبض العِلم أن   يقبض ربي العُلماء
فإذا ماتوا تنحى الناس   رُؤساءَ جُهلاء
فأضلوا ثم ضلوا   وبقوا في الناس داء

وقال عبد الله بن عُمر في ذلك :

ليس ربي يقبض العِلم إنتزاعاً   بل بموت الصالحون العُلماء
فإذا ماتوا جميعاً عن صعيدٍ   رجع الناسُ إلى ذي الجهلاء
من رؤساء الناس يفتون بلا   عِلمٍ إلى غير الهداء
فأضلوا بفتاويهم أناساً   ثم ضلوا عن سبيل العُقلاء

وقال (ﷺ) ، لسُبيعة الأسلمية ، عندما أفتاها أبو السبايل بن يعكل : " كذب أبو السبايل ، قد حللت ، فانكحي ما شئت " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " أجرأكم على جرائيم جهنم ، أجرأكم على الفتيا عليَّ في الجد " .

فصل

وينبغي لمن سُئل في طريق ، عن مسئلة ، أن يجلس ويُجيب ، فإنه من الأدب .

وقيل : سُئل ابن عون ، عن مسئلة وهو قائم ، أو خارج من المسجد ، فعاد وجلس ، ثم أفتى ؛ ولقي بعض الفقهاء مُتوجهاً إلى المسجد الجامع بالبصرة ، فسُئل عن مسئلة ، فقال : المسجد عافاك الله ؛ وقد روى : أن ابن عباس ، كان يفتي في طوافه .

وينبغي للمُفتي أن يتأمل المسئلة ، تأملاً شافياً ، كلمة بعد كلمة ، ويكون عنايته بآخرها أتم من أولها ، فإن السؤال يتقيد بآخر الكلام ، فإن مرت به كلمة غريبة ، سأل عنها ، ونقط وشكل ، وكذلك إن رأى لحناً فاحشاً ، أو خطأ يحيل معناه غير ذلك أصلحه ؛ وإن رأى سطراً ناقصاً ، خط على ذلك ، وأصلحه وتممه ، فربما قصد ذلك تغليط المُفتي .

وقيل : أن القاضي أبا حامد ، بُلي بمثل ذلك عن قصد لبعض الناس ، فكتب : ما تقول في رجل مات ، وخلف إبنة ، وأختاً لأم ،

وترك بعد هذا في آخر الحاشية موضع كلمة ، ثم قال في أول السطر الثاني : وترك ابن عم ؛ فأفتى للابنة النصف ، والباقي لابن العم ، وهو جواب صحيح ، فلما حصل خطه بذلك ، ألحق في موضع البياض : وأب ، فشنع عليه بذلك ؛ ومتى ما كان السائل قد أغفل الصلاة على النبي (ﷺ) ، ألحق ذلك .

وينبغي للمُجيب أن يأخذ نفسه ببيان خطه ، وتقويم حروفه ، حتى يقرأ ذلك كل أحد ، ويكون قلمه بين القلمين ، لا يُضيق سطوره ، ولا يُوسعها ، ويختار من الكلام أصحه ، ومن المعنى أوضحه ، لتفهمه العامة ، وترضاه الخاصة ، ويكتب الجواب في الرقعة ، مما يلي يساره ، للعادة الجارية بذلك من المُفتين ، وإن كتب من الرقعة ، فلا عيب ، وإحدى الحاشيتين أولى من الوسط ، وأكثر الفقهاء يبدأون في فتواهم ، بأن يقولوا : الجواب ، وبالله التوفيق ، وحذف ذلك آخرون ، وكله جائز ، ولكن ينبغي أن لا يختم جوابه إلاّ بقوله : وبالله التوفيق ، والله المُوفق ، والله أعلم ؛ وكان بعض يقول ، إذا أفتى : إن كان صواباً فمن الله ، وإن كان خطأ فمني ، وهذا لا معنى له ، لأن فيه إضعاف النفس ، وإدخال اللبس .

وعن عُمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، أنه أملا على كاتب له نحو ذلك ، فكتب الكاتب : إن كان صواباً فمن الله ، وإن كان خطأ فمن

الشيطان ؛ فقال له عُمر : أكتب : وإن كان خطأ فمن عُمر ؛ وليس يقبح أن يقول المفتي : الجواب عندنا ، والذي نذهب إليه ، والذي نراه كذا ، لأنه واحد من جُملة أصحابه .

فصل

وينبغي للمُفتي ، إذا قرأ الرقعة ، أن يشاور في الجواب ، من بحضرته ، ممن يصلح لذلك ، أو يقرأ ما فيها عليهم ، فإن ذلك إقتداء بالسلف ، وقد قال الله (سبحانه وتعالى) : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ (١) ؛ قال الحسن : فإن كان عن مشورتهم لغنياً ، لكن أراد أن يسير به الحُكام في الأمر .

وقال بعض الحُكماء : لا بأس بذي الرأي ، أن يشاور من دونه ، كالنار التي تزيد ضوءها بوسخ الحديد .

وقيل : كان الشافعي ، إذا جاءته الفتوى كالعادة ، عرضها على أصحابه ، وسأل كل واحد منهم عما عنده ؛ قال الربيع : فجاءته رقعة في بعض الأيام ، فقرأها وتبسم ، وكتب الجواب من غير إعلامنا بذلك كالعادة ، وكان فيها :

سل المُفتي المكي هل في تزاور ... وضمه مُشتاق الفؤاد جناح

(١) سورة آل عمران : ١٥٩ .

فأجاب الشافعي عن ذلك :

أقول معاذ الله أن يذهب التقى   تلاصق أكباد بهن جراح

فإن كان في الرقعة ما لا يحسن إبداؤه ، أو ما لعل السائل يُؤثر ستره ، أو ما في إشاعته مفسدة لبعض الناس ، إنفرد المُفتي بقراءتها ، والجواب عنها .

وقيل : أن إمرأة جاءت إلى الحسن البصري ، فقالت :

يا حسن البصرة يا ذا النُهى   إني إلى وجهك مُشتاق
قل لي وأنت المرء ذو حكمةٍ   في كل ما تحكيه صداق
هل جائز تقبيل رعبوبةٍ   وردية الخدين براق

فأجابها الحسن :

أقول والرحمن لي شاهدٌ   ما أنا بالفحشاء نطاقُ
إن كنت للتقبيل ذا إربة   مشتهياً للهو تواقُ
حرمت في الجنة حورية   وردية الخدين رقراقُ
فاستشعر التقوى وكن خاشعاً   فإن تقوى الله ترياقُ

وسألته إمرأة ، فقالت : يا أبا سعيد ، أيحل للرجل أن يتزوج على إمرأته ، وهي حسناء جميلة ؟ فقال : نعم ؛ فقالت : بعيشك

يا أبا سعيد ، لا تفت الرجال بهذا ؛ وسُئل : أيجوز للرجل أن يُدالك إمرأته ، أي : يُدافعها مهرها ؟ قال : نعم ، إذا كان مُفلجاً ، أي : مُعسراً ؛ قال الشاعر :

إذا ما رأني مُوسراً قال مرحباً   فلما رأني مُفلجاً مات مرحب

والمُفلج : المُعسر ، وهو (بالفاء والجيم) ؛ والمُدالكة : المُدافعة .

فصل

قيل : سُئل عليّ بن أبي طالب عن مسئلة ، فدخل ثم خرج فأجاب ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ، عهدي بك إذا سُئلت عن مسئلة ، كالسكة المُحماة ، فما بال هذه المسئلة ، تأخرت عن جوابها ؛ قال : كنت حاقناً ، ولا رأي لحاقن ، ثم قال :

إذا المُشكلات تصوبن لي   كشفت حقائقها بالنظر
وإن برقت في محل الصواب   عمياء لا يجتليها البصر
مُقنعةً بغيوب الأمور   وضعتُ عليها صحيح الفكر
لسان كشقشقة الأرحبي   أو كالحُسام اليماني الذكر
وقلت إذا إستنطقته الفنون   آثر فيها برأيٍ درر

ولست بإمعةٍ في الرجال أسائل ماذا وذا في الخبر
ولكنني مذرب الأصغرين أبين عن ما مضى أو غبر

الشقشقة : لهاة البعير العربي ، ولا تكون إلاّ للعربي من الإبل ، والجميع : الشقاشق ؛ والأرحبي : جمل منسوب إلى أرحب ، وهو موضع أرحبي ، تنسب إليه النجائب الأرحبية ؛ ويُقال : أرحب حي من همدان ؛ والإمعة : الذي يقول لكل : أنا معك ، والفعل من هذا : نامع الرجل ، واستأمع ؛ ويُقال للذي يتردد في عين ضيعة : أمعة ؛ وفي الحديث : أغد عَالِماً أو مُتعلماً ، ولا تغد أمعة ؛ ورجلان إمعتان ، ورجال أمعات ؛ والمذرب : الحاد من كل شيء ؛ والأصغران : اللسان والقلب .

وقال ضمرة بن ضمرة ، للنُعمان بن المُنذر : المرء بأصغريه : لسانه وقلبه ، إن نطق نطق ببيان ، وإن قاتل قاتل بجنان ؛ فقال له : لله درك ؛ والجنان : القلب ؛ وقال الشاعر :

وما المرءُ إلاّ الأصغران لسانه ومعقولهُ والجسم خلقٌ مُصورُ

وقال محمد بن مداد :

قد قلت إذ كثروا فقالوا ما المرء إلاّ بأصغريه
فقلت قول إمرءٍ حكيم ما المرءُ إلاّ بدرهميه

من قلَّ في الناس درهماه لم تتلفت عرسه إليه
وعاش في الناس مُستهاناً وبال سنوره عليه

وغبر : بقي ؛ وغبر : مضى ، وهو من الأضداد .

وسُئل الشعبي عن الذباب ؟ فقال : إن إشتهيته فكله .

وسُئل داود عن المُخاط والبزاق ، أطاهر أم لا ؟ فقال : نعم طاهر ؛ فقال السائل له : فيؤكل ؛ قال : إن إشتهيته فكله .

وسُئل الشعبي عن لحم الشيطان ؟ فقال : نحن نرضى منه بالكفاف .

وسُئل : ما كان إسم إمرأة إبليس ؟ فقال : ذلك نكاح ما شهدته ؛ وروى هذا عن أبي عُبيدة ، والله أعلم .

وجاء رجل إلى بعض الفقهاء ، فقال له : أخبرني عن النبيذ ، حلال هو أم حرام ؟ فقال : حرام ، عافاك الله ؛ فقال الرجل : فإن كان صاحبه قد أكل سمكاً ؟ فقال الفقيه : أحدكم يجيء يسئل عن المسئلة ، ينسى بعضها ، حلال ـ عافاك الله ـ .

وقال رجل ، لعبد الله بن الحسن : إن أبي أوصى بثلث ماله في الحصون ، فقال : إذهب فاشتر بها خيلاً ؛ قال الرجل : إنه إنما

ذكر الحصون ، قال : أما سمعت قول الشاعر :

ولقـد علمتُ على تجنبـي الردى إن الحصون الخيل لا مدر القرى

وعن النوشرواني ، قال : قلت للحُسين القاضي : أوصى جدي بثلث ماله لأولاده ، وأنا من أولاده ؛ فقال : أنت من أولاد البنات ؟ قلت : فإن كنت من أولاد البنات ، فأنا من أولاده ؛ قال : ليس لكـم شيء ؛ قلت : ولم ؟ قال : أما سمعت قول الشاعر :

بـنونـا بـنـو أبـنـائـنا وبـنـاتـنـا بنُوهن أبناء الرجال الأباعد

قال : فشكوت ذلك إلى فلان ، فزادني شراً .

وحكي : أن إمرأة سألت رجـلاً مُحدثـاً عن دجاجـةٍ وقعت فـي بئر ؟ فدهش في الجواب ، فقال : ولم لا تغطون آباركم من أن يقع دجاجكم فيها ؟ ولم يزد على هذا .

وقيل : أن السبب في تفقه أبي حنيفـة : أن إمـرأة سـألته عن مسئلة في الحيض ، فدلها على حماد ؛ فقالت لـه : أمـا تـأنف من مثل هذا ؟ فأنف من ذلك فتفقه ؛ وقيل : أن ذلـك كـان بعد أربعين سنة .

وسُئل جعفر بن عتاب : عن فقه أبي حنيفة ؟ فقال : كان أعلم

الناس بما لم يكن ، وأجهلهم بما كان .

فصل في الفتيا

وينبغي للمُفتي أن يكون قلمه واحداً ، لا تتباين أقلامه ، ولا يختلط خطه حرفا حرفا ، خوفاً من التزوير عليه .

وقيل : بل التزوير في الخط المألوف ، والقلم المعروف أسرع ، فيما إختلف وتباين .

وإختار بعضهم أن يفتي بالمداد دون الحبر ، خوفاً من الحك ؛ وينبغي أن يكون توقفه في المسئلة السهلة ، كتوقفه في الصعبة ، ليكون ذلك عادة له .

وقد حكي عن محمد بن الحسن : أنه كان يصنع ذلك ، ويقول : إنما أفعل هذا لئلا يقع الفرق للسائل لي ، بين ما يصعب عليَّ ، وما يسهل .

وكان الكسائي إذا سُئل عن مسئلة ، تمعر وجهه ؛ والتمعر : أن يتغير وتعلوه صفرة ؛ وحكي مثل هذا عن ابن سيرين .

وعن الشافعي ، أنه قال : كان محمد إذا سُئل عن مسئلة تهلل وجهه .

وينبغي للمُفتي أن يختصر ولا يُطيل ، إذا أتى على الغرض .

فقد حكي : أن بعض أمراء البصرة ، سأل الحسن ومحمد بن سيرين ، عن مسئلة ، فاختصر الحسن ، وأطال ابن سيرين ، فلما خرجا ، قال الأمير : أما الحسن ففقيه ، وأما ابن سيرين فقاص .

وقال الشعبي : أنفذ إلى الحجاج ذات ليلة ، يسألني عن مسئلة المُخمسة ، يعني : الحرقاء ؛ وقال له الحجاج : ما قال فيها الصديق ؟ فأجابه ولم يزده على ذلك ؛ حتى كان الحجاج هو الذي يسأله عن واحد واحد .

فينبغي للمُفتي أن لا يزيد على جواب ما سُئل عنه شيئاً ، فإن كان حينئذ يكون زيادة جواب ، لم يستدعه السؤال .

ومن أدب المُفتي : أن لا يكون السؤال بخطه ، وأما إملاؤة وتهذيبه فواسع .

وإن سُئل عن مسئلة ، على وصف يعلم أن الصورة خلافه ، أفتى على ما وجد في الرقعة ، ولم يعمل ما عنده ، وإن قال في ذلك ، إن كان الأمر كذلك ، أو إن كان الأمر هكذا ، أو إن صح هذا ، أو ثبت ، فالجواب كذا ؛ فهذا هو الإحتياط له ؛ وللمُستفتي منه .

ولا ينبغي إذا ضاق موضع الفتوى ، أن يثبت جوابه في رقعه أخرى ، لأنه لا يأمن الحيلة فيه .

وينبغي أن يكون جوابه موصُولاً بآخر سطر في رقعة السؤال ، ولا يدع هناك فرجة ، فإن أجاب على ظهر الرقعة ، فينبغي أن يكون جوابه في أعلاها ، من ظهرها لا في أسفلها ، إلاّ أن يبدئ بالجواب في أسفل الرقعة مُتصلا بالفتوى ، فيضيق عليه الموضع ، فيتمه وراءها ، مما يلي أسفلها ، فيتصل ذلك بجوابه ، والجواب على ظهرها أولى منه في أعلاها ، عند : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ [1] .

وإن كانت رقعة السؤال ، لا موضع فيها للجواب ، فينبغي للمُفتي أن يجيب شفاهاً .

فقد حكي : أن إنساناً رفع رقعة إلى أحمد بن عمرو - القاضي العراقي - فقال له ، بعد تأملها : فأين أكتب الجواب ؟ فقال : على ظهرها ؛ فقال : وما هذه المُضايقة ، ولكن خذ الجواب شفاهاً .

وإذا قرأ المُفتي رقعة الإستفتاء ، فرأى فيها جوّاب من لا يستحق أن يفتي ، لم يفت معه ، لأن في ذلك رضى به ، لو أفتى

---

(1) سورة النمل : ٣٠ .

به ، بل يضرب على ذلك ويخط عليه ، بأمر صاحب الرقعة ، فإن لم يستأذنه في هذا القدر لجاز ، وليس له إحتباس الرقعة ، إلاّ بإذن مالكها ، ويعلمه إنه قد كان واجباً عليه البحث عن أهل هذه الفتوى وسؤالهم .

ويقبح عليه ما فعله من سؤاله سواهم ، فإن رأى فيها إسم من لا يعرفه ، سأل عنه ، فإن كان مرضياً ، أجاب معه ، وإن لم يعرفه أصلاً ، فواسع له أن يمتنع من الفتوى معه ، والأولى أن يُشاور على صاحبها بإبدالها ، وأخذ خطوط من تقوم الحجة به ، فإن أبى ذلك ، وألح عليه في الجواب ، أجابه شفاهاً ، ولم يرده خالياً .

وإن لم يفهم المُفتي السؤال أصلاً ، فواسع أن يكتب يُزاد في الشرح ليبحث عنه ، أو لم يفهم ما فيها ، فأجيب عنه .

وقال بعض : إذا لم يفهم السؤال ، لم يكتب شيئاً أصلاً .

وقيل : أن بعضهم كتب في مثل هذا بحضرة السائل ، ليُخاطبه شفاهاً .

وينبغي للمُفتي إذا كثرت الرقاع بحضرته ، أن يقدم الأسبق فالأسبق ، على ما يُقدمه القاضي في الخصوم .

وينبغي للمُفتي أن يُوجز في جوابه ، فإن الإيجاز في الجواب حسن .

كما سُئل عليّ بن أبي طالب : كيف يُحاسب الله (عَزَّ وَجَلَّ) العباد على كثرة عددهم ؟ فقال : كما يرزقهم الله على كثرة عددهم .

وقيل له : كم بين السماوات والأرض ؟ فقال : دعوة مُستجابة .

وقيل لابن عباس : إلى أين تذهب الأرواح إذا فارقت الأجساد ؟ فقال : أين يذهب نور المصباح ؟ قال : عند فناء الأذهان .

فصل

ومن سأل عن مسئلة ، فأخطأ طريق الصواب فيها ، فلا بأس أن يجيب المسؤول عنها بوجه الصواب .

فقد روي : أن رجلاً سأل النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : عما يلبس المُحرم ؟ فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : " لا يلبس قميصاً " ـ الحديث ـ فيجوز أنه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، أراد أن يُنبه السائل عن غلط في المسئلة ، وكان وجه السؤال أن يقول : يا رسول الله ، ما الذي يلبسه المُحرم ؟ لأن الأصل إباحة اللباس ، والإحرام مانع ، أو يكون (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، أجاب ما يليق

بالمذكور به ، في كِتاب الله (عَزَّ وَجَلَّ) ، من قوله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) : ﴿ فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جِدال في الحج ﴾ (١) ، فعطف عليه ، ولا يلبس كذا ولا كذا .

ـ وأيضاً ـ فإن ما يلبسه المُحرم كثير ، وما لا يُلبسه محظور ، فهذا ما نص عليه الإسلام .

وينبغي للمُفتي إذا وجد للسائل مخرجاً من مسئلته ، أرشده إليه ، كرجل حلف أن لا ينفق على زوجته ، ولا يُطعمها شهراً ، أو سنة ، فإنه يفتيه بإعطائها من صداقها ، أو دَّين لها عليه ، أو يقرضها ويقر لها ، أو يبيعها سلعة ، أو عرضاً ، ثم يبرئها من الثمن ؛ وكرجل حلف على إمرأته ، أن تصدقيني في كذا ، والوجه في حقيقة الأمر ، أن يخبره بجميع إقسام الحال في ذلك ، ليكون على ثقة من أنها قد صدقته .

كما حكي المنصور : أنه لما حلف على خادمه ، ليصدقه في حديث الدرة التي فقدها ، وإلاَّ ضرب عُنقه ، وكان من جواب أبي حنيفة : ليُخبره الخادم أنه أخذها ، ويُخبره أنه لم يأخذها ، فيكون قد صدقه لا مُحالة ، وهذا يَصح إذا كان الحالف لم يرد بيمينه ، أن يصدقه في أول إخباره له ، فأما إن أراد أن يصدقه في أول كلامه ، ثم لم يكن صادقاً ، فإنه يحنث .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .

وقد حكي : أن بعض أهل المنصور ، حلف لا يبيع على المنصور كذا ، ولا يهبه ، وكان من فتوى أبي حنيفة في ذلك : أنه يُباع عليه نصفه ، ويهب له نصفه .

ووافت إلى البصرة إمرأة بدوية ، فلقيت بعض فقهاء الشافعية ، فقالت : إن زوحي أسر إلى رجل من أهل الحي سراً ، فأبداه إليَّ ، فأخبرت به زوجي ، فحلف عليَّ إلاَّ أن أخبره بالذي إخبرني ، فعلمت أنني إن أخبرته بذلك قتله ، فجمعت أهل الحي عن آخرهم ، والذي أخبرني في جُملتهم ، ثم قلت : أخبرني هذا ، أخبرني هذا ، حتى أتيت على جميعهم ، أيخرج من يمينه ؟ فقال لها : نعم ، وفي هذا نظر .

وحكي عن أبي حنيفة : في رجل وزوجته أكلا رُطباً ، وألقيا النوى في طست بحضرتهما ، ثم حلف الرجل عليها بالطلاق ، لتخبرنه بعدد ما أكل من الرُطب ؛ فالمخرج من ذلك : أن تقول : أكلت رطبة ، أكلت رطبتين ، أكلت ثلاثاً ، حتى تنتهي إلى عدد يقطع بأنه قد أكله ، ولا تضر الزيادة في الخبر .

ووقف رجل على أبي حنيفة ، وهو بين أصحابه ، فقال : إني حلفت أن أطأ إمرأتي في شهر رمضان نهاراً ، ولا أكفر ولا أعصي ؛ فقال له : سافر بها .

وحكي : أن الرشيد إبتاع جارية ، فأحب العجلة في وطئها ، فعَلِم أن ذلك لا يسوغ له حتى تستبرئ ، فأحضر الفقهاء ، فكل منعه من ذلك حتى تستبرئ ؛ فسأل أبا يُوسف ، فقال : تعتقها وتتزوج بها ، ثم تطأها في الحال .

لكن سلك الفضل بن عياض هذا مع الرشيد ، ضد هذا بمكة ، حين سأله عن حنثه في يمين بالله سبحانه ، فأفتاه بصيام ثلاثة أيام لا غير ، فروجع في ذلك ، وقيل له : أليس قد قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ﴾ [1] ؛ وأمير المُؤمنين واجد ، فقال : لو حاسب نفسه ، لم يكن واجداً .

وأما قول أبي يوسف ، في حديث الرشيد والجارية ، فليس الأمر على ما قال .

وحكي : أن رجلاً قال لأبي حنيفة : إن فلاناً قد صاد لي طيراً ، فإن رأيت أن تتلطف لي في رده ؟ فلما حضر الصياد الصلاة مع أبي حنيفة ، قال أبو حنيفة : ولا يرضى أحدكم أن يصيد طير جاره ، حتى يحضر والريش في لحيته ، فأهوى الصائد يده إلى لحيته ، فرآه أبو حنيفة ، فقال له : رد الطير ، عافاك الله ؛ فإستحى فرده .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٦ .

وحكي : أن تاجراً بالكوفة ، دخل عليه اللصوص ليلاً ، وأخذوا ماله ، وحلفوه بأيمان غليظة ، أن لا يقول من هُم ، ولا يكتب في بابهم ، ولا يشير إليهم ، ولا يُومِيء ؛ واتصل الخبر بالسُلطان ـ في زمن أبي حنيفة ـ فسأل عن المخرج من ذلك ؟ فقال : تجمع أهل البلد كافة ، ثم يخرج واحد واحد ، فإذا خرج أحد لصوصه أطرق فيُعرف ، فيخرج من يمينه .

فصل

وإذا رأى المُفتي المصلحة ، عندما يسأله عامة ، أو سوقة ، أو طالب رخصة ، لا يجوز أن يفتي بما فيه تأول ، وإن كان لا يعتقده ، ودعا للسائل ، وكفى له فعل ذلك .

فقد روي عن ابن عباس : أن رجلاً سأله عن توبة القاتل ؟ فقال : لا توبة له ؛ وسأله آخر ؛ فقال : له توبة ؛ ثم قال : أما الأول ، فرأيت في عينيه إرادة القتل فمنعته ، فجاء مسكين قد قتل ، فلم أقنطه ؛ فإن سأله رجل ، فقال له : إن قتلت عبدي ، أعليَّ القتل ؟ فواسع له أن يقول له : إن قتلت عبدك قتلناك .

فقد قال رسول الله (ﷺ) : " من قتل عبده قتلناه " ؛ سيما والقتل يذهب في كلامهم مذاهب .

وكرجل قال : إن سببت أصحاب النبي (ﷺ) ، كان عليّ القتل ؟ فواسع أن يُقال له : قد روي عن النبي (ﷺ) أنه قال : " من سب أصحابي فاقتلوه " ؛ كل ذلك يريد به زجراً للعامة ، ومن قل دِّينه ومرُوَته .

فينبغي للمُفتي أن يستر عن الجهال ، كل فتوى كان فيها تأويل ، أو رخصة ، لأن الرخص إنما هي للمُضطرين ، والجهال يطلبونها مُختارين لا مضطرين ، ولا بأس أن يذكر المُفتي في فتواه الحجة عنده ، فيما أفتى به ، مثل : أن يسأل عمن يزوج إمرأة بلا ولي ، أو بلا شهود ، فيكتب في فتواه : قال رسول الله (ﷺ) : " لا نكاح إلاّ بولي وشاهدين " .

وإذا سُئل : عمن إشترى عبداً ، وله مال ولم يشترطه ، فحسن أن يقول : ماله للبائع ، إلاّ أن يشترطه المُبتاع .

وإذا سُئل عمن قال : أنا أصدق من النبي ، أو قال : الصلاة لعب ، أو الحج لغو وعبث ، أو ما في خلق مثل هذه السماء أو الأرض ، أو قال : قصيدة النابغة أحسن من سورة آل عمران ، فلا ينبغي أن يُبادر إلى أن يقول : هذا حلال الدم ، أو مُباح النفس ، أو عليه القتل ، أو يقتل ؛ بل يقول : إذا صح ذلك بالبينة عليه ، أو بالإقرار ، إستتيب ، فإن تاب قبلت توبته ، وإن لم يتب

فعل به كذا وكذا .

ولا يسوغ للمُفتي ، أخذ الأجرة ممن يفتيه ، كالحاكم الذي لا يأخذ الرزق من أعيان من يحكم له عليه ، بل لو إجتمع أهل بلد ، على أن يجعلوا للفقيه رزقاً ، ليتفرغ لفتواهم ، وجوابات ما يُعرض لهم ، ساغ ذلك ؛ وقال عبد الله بن عُمر في ذلك :

لا يأخذ المُفتي على فتواه ... أجراً لأن الله قد أعطاه
عِلماً جليلاً ما له أشباه ... كي يرشد الخلق إلى هُداه
كذلك الحاكم إذا بلاه ... من أحسن البلاء قد أتاه
ألهه فيما له إصطفاه ... ليحكُمن بالحق في قضاه
بل أجره يثيبه الإله ... في جنة الخلد بها مثواه

فصل

الفتيا : هو التعريف للأمر أفتاني ، أي : عرفني ؛ وأفتيتني ، أي : عرفني ؛ وقوله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ ويستفتونك ﴾ [1] ، أي : يستعرفونك ؛ وقوله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ أفتوني في أمري ﴾ [2] ، أي : بينوا لي ما أعمل به .

---

(١) سورة النساء : ١٢٧ .
(٢) سورة النمل : ٣٢ .

والفتيا : إبانة ما يُسأل عنه ؛ يُقال : منه أفتى الفقيه ، وهو يفتي إفتاءً ؛ يقول : إستفتيت إستفتاءً : إذا إستعملت ما أريد عِلمه [1] ؛ وأفتيت غيري إفتاءً : إذا بينت له ذلك ؛ وقال (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحدا ﴾ [2] ، أي : لا تسأل عن أمر الفتية منهم أحداً ؛ وقال : ﴿ فيهم ﴾ ، أي : في أصحاب الكهف ؛ و ﴿ منهم ﴾ ، أي : من أهل الكِتاب ؛ وفيها لغتان : الفتوى والفتيا ، ومثلها : التقيا والتقوى ، والثنيا والثنوى : من الشيء يستثنيه في البيع ، وكذلك في اليمين .

قال الفرا : (والضم مع الياء) ، لغة تميم وأهل نجد ، وهي أكثر الكلام ؛ (والفتح مع الواو) ، لغة أهل الحجاز ، وبني أسد ، وأهل المدينة .

ويُقال : أجبته عن مسئلته إجابةً ، والإسم : إجابة ؛ ومثل من الأمثال : أساء سمعاً فأساء إجابه ، أي : أساء جواباً ، كأنه سمع شيئاً ، على غير وجهه ، فأجاب على قدر سمعه .

ويُقال - أيضاً - : الجيبة ، والجواب ، والإجابة ، والإجاب ، وكُلٌ واحد ، إلاّ أن المثل جاز على ما أخبرت .

---

(١) في نسخة أخرى : عملـه .
(٢) سورة الكهف : ٢٢ .

فصل في السائل

أول ما على السائل أن يسأل ، ممن يثق بدِّينــه ، ويسكن إلــى أمانته ، فإذا عرف من هو أهلاً للسؤال أخذه ، وبجله ، ويَلين لـه خطابه ويسأله ، ولا يُخاطبه مُخاطبة العوام ، ويُمـيزه بالإعظـام ، ويُكرمه بالقيام .

فقد روي عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " قوموا إلى سيدكم " ، يعني : سعد بن مُعاذ .

وينبغي أن لا يسأله قائمـاً ، ولا يجذب ثوبـه ، ولا يرمـي فـي وجهه بيـده ، فقـد فعل ذلـك رسـول قريـش ، بحضـرة رسـول الله (ﷺ) ، في عام الحُديبية ؛ فقال له المُغيرة بن شعبه ، وهو قـائم بحضرة رسول الله (ﷺ) ، مُتقلداً السيف : أضمم يـدك قبـل أن لا ترجع إليك .

وروي عن عليّ ، أنه قال : لا يُسأل العَـالِم قائمـاً ، ولا يُجـذب بثوبه إذا نـهض ، فإنما العَالِم كالنخلـة ، تنتظر متـى تسـقط عليـك منه فائدة .

ولا ينبغي أن يقول له : إفهم عني ، ألست تفهم عني ؟ إسـمع مني ، ألست تسمع ؟ فإن رآه في هم ، قد عرض له ، أو أمـر ، أو

شغل ، أمسك عنه ؛ فإذا زال عنه ما كان عرض له ، عاوده - حينئذ - وسأله .

وقد دل على ذلك ، قول الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ [1] ؛ وقال الضبي : نزل ذلك ، لأن المُشركين كانوا يقولون لأبي مُعمر بن الأسد الفهري : قلبان ، من حفظه للحديث ؛ فلما كان يوم بدر ، إنهزم مع المُشركين ، فلقيه أبو سُفيان ، وهو مُعلق إحدى نعليه بيده ، والأخرى في رجله ، فقال : يا أبا مُعمر ، ما فعل الناس ؟ قال : إنهزموا ؛ قال : فما بال إحدى نعليك بيدك ، والأخرى برجلك ؟ فقال أبو مُعمر : ما ظننت إلاّ أنهما في رجلي جميعاً ؛ فعرفوا أن لو كان له قلبان ، لما نسي لبس إحدى نعليه ؛ وأنزل الله عن ذكره هذا ، ونبه على هذا القول - أيضاً - قول النبي (ﷺ) : " لا يقضي القاضي بين إثنين وهو غضبان " .

وقال (ﷺ) : " لا يقضي القاضي إلاّ وهو شبعان ريان " .

وعن جابر بن زيد (رحمه الله) ، أنه قال : خمسة لا تسألوهم عن أمر دِّينكم شيئاً : غني أبطره غِناه ؛ ومن أحزن بماله ؛ ومن كان سكراناً ؛ ومن كان عاشقاً ؛ ومن مسته حاجة إلى الخلاء ؛

---

(١) سورة الأحزاب : ٤ .

وقال محمد بن مداد في ذلك :

قال العُماني جابرُ وَهُوَ ذو العِلم الذي في عُلومهِ بهرا
لا تسألوا عن أمر دِّينكم في العِلم من كان لا يُحسن النظرا
غني قوم غِناه أبطره ومن غدا في غِناه مُقتقرا
ومن دعاه هوى مهفهفةٍ ومن غدا في شرابه سكرا
ومن دعاه الخلاء وأحوجه فذاك حيران لا يعي حصرا

وسأل رجل ، محمد بن سيرين ، عن حديث ، وقد أراد أن يقوم ، فقال :

إنك إن كلفتني ما لم أطق ساءك ما سرك مني من خلق

فينبغي للسائل أن يترصد أوقات فراغ الفقيه ، ولا يسئ عليه أدبه ، فيحرمه منه أدبه .

ومن الأدب أن يُعطى الفقيه رقعة السؤال منشورة ، ولا يُكلف نشرها ، وتؤخذ من يده إذا أفتى ، ولا يُكلف طيها .

ومن أدب المُستفتي ، أن لا يقول عند جواب المُفتي : هكذا قلت أنا ، وهكذا وقع لي ، وبهذا أجبت ، وكذا وجدت ، وكذا أحفظ ، وكذا ينبغي أن يكون ، وما هو مثله من الكلام ، فإنه سوء أدب وخفة .

وينبغي أن لا يُقال للفقيه : ما يقول صاحبك ؟ ومـا يحفظ فـي كذا ؟ بل يُقال له : ما تقول أنت ؟ وما عندك ؟ ومـا الفتـوى ؟ وما الجواب في كذا ؟

وليس هذا كالرجل الذي قام إلى النبي (ﷺ) ، فقـال لـه : الله أمرك أن تأخذ الصدقة من أغنيائنا ، فتردها على فقرائنا ؟ فقال له (ﷺ) : " الله أمرني بذلك " .

وقال رجل لبعض العراقيين : مـا يقـول أبـو حنيفـة فـي كذا ؟ فقال : لا يقول شيئاً ، وإنما أراد به : لا يقول في الإستقبال شيئاً ؛ وكان ينبغي أن يقول : ما الذي قال أبو حنيفة في كذا ؟

ومنع بعض قومنا أن يُطالب السائل بالحجة ، فيما أجيب بـه ، وأن لا يقول له : لـم ، وكيـف ؟ قـال : فـإن أحب إستماع الحجـة سكوناً لنفسه ، سأل عنها في وقت آخـر ، ومجلـس ثـان ، أو بعد قبول الفتوى من المُفتي مُجرداً .

ولكني عرفت عن شـيخنا أبـي محمـد (رحمـه الله) ، أنـه كـان يأمر أصحابه ، إذا أجابهم عن مسئلةٍ ، أن يطالبوه بالحجة .

وينبغي للسائل إذا رفـع رقعـة فـي مسئلة ، أن تكـون واسـعة لجـواب المُـفتي ، ليُمكنـه شـرح الجـواب ، فرُبـما إختصر لضيـق

القرطاس ، فإن سأل فقيهاً وحده ، قال : ما تقول (رضي الله عنك) ، أو (رحمك الله) ، أو (وفقك الله) ، ولا يحسن أن يقول : رحمنا الله وإياك ؛ فإن قال : يرحمك الله ويرحم والديك ، فحسن .

وإذا أراد مسئلة جماعة الفقهاء ، قال : ما تقولون (رضي الله عنكم) ؛ أو ما تقول الفقهاء (وفقهم الله) ، في كذا ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

إذا ما قصدت العَالِم الحبر سائلاً فأوسعه إجلالاً وبشراً وإنصاتا
ولا تتعنت عنده في قضيةٍ فشر سؤال المرء ما كان إعناتا

ولا ينبغي أن يقول : إفتونا في كذا وكذا ، ولا ليفت الفقهاء في كذا ، فإن هذا لفظ أمر ، وهو إنما يسأل لا يأمر ، فإذا خاطب بالأمر في موضع السؤال ، فقد أخطأ وأحال ، وهذه (اللام) يختار النحويون حذفها ، عند الأمر للحاضر ، وإثباتها للغائب ، وربما إضطر الشاعر ، فحذف من الغائب ؛ قال الشاعر :

على مثل أصحاب البعوضة فاخمشي لك الويل حر الوجه أو يبك من بكا

[البعوضة] : موضع قُتل فيه مالك بن نويره ؛ يُريد : ليبك من بكا ، فحذف (اللام) .

فإن قال : ما الجواب في كذا وكذا ؟ أو ما الفتوى في كذا وكذا ؟ كان قريباً ، لأن هذا هو الإستفهام ، فلم يبعد من السؤال .

وينبغي أن لا يدع السائل الدُعاء للمسؤول ، فإنه من الجفاء .

وحكي : أن فتوى وردت من المُقتدر ، إلى أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، لا دعا له فيها ، فكتب الجواب في أسفلها : لا يجوز ، أو يجوز ، ولم يزد على ذلك ، فلما عادت إلى المُقتدر الرقعة ، عَلِم أن ذلك من أبي جعفر لتقصير في الخطاب فاعتذر .

وينبغي للسائل أن يُوجز في سؤاله ، فإن إيجاز السؤال من أدب السائل ، وهو أحسن من الإطالة ؛ وقال عبد الله بن عُمر بن زياد :

أوجز إذا ما سألت يوماً عَالِماً   فإنه من أدب السؤال
ولا تطل فيه لتسأم مُفتياً   خير السؤال أوجز المقال

وعن سعيد بن جُبير : من أحسن أن يسأل ، أحسن أن يتعلم ؛ وله - أيضاً - :

من أحسن السؤال في سؤاله   قد يُحسن التعليم في أحواله

وعن ابن عُمر ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " الإقتصاد في

النفقة نصف المعيشة ، والتودد للناس نصف العقل ، وحُسن السؤال نصف العِلم " ؛ وله ـ أيضاً ـ :

نصف المعيشة في إقتصادك مُنفقاً قد قيل يا ذا العقل والأدب
وكذاك نصف العِلم قيل تودد للعَالِم العَلاَّمة الأواب
والنصف إن أحسنت عند سؤاله تحظى بعِلم عند ذي الألباب

ومن سأل عَالِماً ، فليس من حقه أن يُماريه ، ولا يُجادله ، وعليه السؤال منه ، والأخذ عنه ؛ وليس يحسن بمن شذا من العِلم طرفاً ، أن يُعارض به من هو أعلم منه ، سيماً من يعلمه ، فإنه الجهل الواضح .

يُقال : شذا فلان من العِلم وغيره مما يتعلم شيئاً ، يشذوا شذواً : إذا أحسنه ؛ وكذلك إذا تعلم منه قليلاً ، قلت : شذا منه شيئاً قليلاً ، ويقول : قد تعلم العِلم واستفدته ، واقتبسته ، وحفظته ، ووعيته .

وحسنٌ بالسائل أن يستأذن العَالِم في السؤال ، فإنه من الأدب .

ـ وأيضاً ـ : فإن العَالِم أعلم بأحواله ، وأوقات فراغه ، وأشغاله .

وحكي : أن رجلاً قال لإياس بن معاوية : أتأذن في مسئلةٍ ؟

فقال : إن كنت لا تؤذي جليسك ، ولا تفضح عَالِمك ، فهاتها ؛ وقال محمد بن مداد :

إذا كنت تبغي العِلم من عند عَالِم	فوافق له وقت الفراغ وأومض
فإن كان في شغلٍ فاعرض ولا تكن	ثقيلاً فإن واجهت مهلاً فعرض
فلو كنت في شغلٍ وجاءك سائل	لما بحت إلاَّ عن فراغ مغوض
ولا تأخر مُفتياً في حضوره	فذلك حُمق المائح المتبرض
فإنك إن تفعل سقطت بعينه	ولو كنت أعلا منه عِلماً فأعرض
ولا تؤذه في مجلس مُتآمراً	عليه ولا تعصيه لا شك يمغض

فصل آخر في السؤال

السؤال سؤالان : مأمورٌ به ، ومنهي عنه .

فالمأمور به على ضربين : سؤال عن واجب فهو واجب ؛ وسؤال عن مندوب إليه فهو سؤال ندب ؛ فمن إعتقد ترك السؤال عن المندوب إليه ، فهو هالك بإجماع .

والسؤال المنهي عنه : هو ما عفى للعباد عن السؤال عنه ، مما في البحث عنه ، إيجاب حُكم ، أو تحريم أمر قد كان ، لولا السؤال حلالاً ، قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ يا أيها الذين أمنوا لا تسألوا

عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ [1] .

قال الفرا : خطب النبي (ﷺ) الناس ، وأخبرهم : أن الله قد فرض عليهم الحج ، فقام رجل من بني أسد ، فقال : يا رسول الله ، أفي كل عام الحج ؟ فأعرض عنه ؛ ثم عاد ، فقال له النبي (ﷺ) : " ما يؤمنك أن أقول نعم ، فتجب عليكم ، ثم لا تفعلون ، فتكفروا ، فاتركوني ما تركتكم " ، ونزلت هذه الآية .

وقيل : السائل عن وجوب الحج ، كان : عبد الله بن جحش بن وثاب الأسدي ، وفيه نزلت هذه الآية .

سأل النبي (ﷺ) عن ذلك ، فسكت عنه ، ثم أعاد عليه قوله ، فسكت عنه ، ثم أعاد ، فغضب النبي (ﷺ) ، ونخسه بقضيب كان معه ، ثم قال : " ويحك ، لو قلت نعم لوجبت ، فاتركوني ما تركتكم ، فإذا أمرتكم بأمر فافعلوا ، فإذا نهيتكم عن أمر فانتهوا " .

ثم قال (ﷺ) : " يا أيها الناس ، إني قد رفعت إليَّ الدُّنيا ، فأنا أنظر ما يكون في أمتي من الأحداث ، إلى يوم القيامة ، وقد رفعت إليَّ أنساب العرب ، فأنا أنسبهم " ؛ فقام رجل ، فقال : يا رسول الله ، أين منزلي أنا ؟ فقال (ﷺ) : أنت في الجنة ؛ ثم قام رجل آخر ، فقال : أين أنا ؟ فقال (ﷺ) : أنت في الجنة ؛ ثم قام

---

(1) سورة المائدة : ١٠١ .

رجل آخر ، فقال : أين أنا ؟ فقال (ﷺ) : أنت في النار ؛ فرجع الرجل محزوناً ؛ فقام عبد الله بن حذافة ، وكان يُطعن فيه ، فقال : يا رسول الله ، من أبي ؟ قال (ﷺ) : أبوك حذافة ؛ وقال آخر من بني عبد الدار : من أبي يا رسول الله ؟ قال : أبوك سعد - نسبه إلى غير أبيه - فقام عُمر بن الخطاب ، فقال : يا رسول الله ، أستر علينا ، ستر الله عليك ، إنا قوم قريبوا عهد بالشرك ؛ فقال له رسول الله (ﷺ) خيراً ؛ ونزل قوله (عزّ وجلّ) : ﴿ يا أيها الذين أمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ (١) .

وقال مجاهد : عن ابن عباس ، قال : لا تسألوا عن البحيرة والسائبة .

وعن أبو البحتري ، عن عليّ بن أبي طالب ، قال : لما نزلت آية الحج ، قالوا : يا رسول الله ، أكل عام ؟ فنزلت : ﴿ لا تسألوا عن أشياء ﴾ (١) .

وعن أبي هُريرة ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم ، بكثرة سؤالهم ، وإختلافهم على أنبيائهم " .

قال الشعبي : ما نزلت آية التلاعن ، إلاَّ من كثرة السؤال ، أو

---

(١) سورة المائدة : ١٠١ .

لا ترى إلى بني إسرائيل ، وتشديدهم على أنفسهم ، بسؤالهم عن البقرة ، ولو أنهم حين أمروا بذبح البقرة ، ذبحوا أي بقرة ، لكانوا قد فعلوا ما أمِرُوا ، ولكنهم كرروا السؤال عن شيء لم يكلفوه .

وعن قتادة ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : " أمر القوم بأدنى بقرة ، فشددوا على أنفسهم ، فشدد الله عليهم ، والذي نفس محمد بيده ، لو لم يستثنوا ، ما ثبت لهم إلى آخر الأبد " .

قال أبو محمد : تفسير هذه الآية ، في قول أصحابنا ، إنما هي : ﴿ لا تسألوا عن أشياء ﴾ (١) ، يعني بذلك : ما يسع جهله ، لا تسألوا عنه ، إنه تكلف منكم ، لأنكم لم تكلفوا إياه ؛ وقوله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ عفا الله عنها ﴾ (١) ، أي : عفا الله عنكم ، لم يكلفكم عِلم ذلك ؛ وقوله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾ (٢) ؛ يقول : قد سأل قوم عما لم يكلفوا وكفروا بعد ذلك ، إذ علموا به .

وقال أبو الحسن : قد قيل هذا ؛ وقيل : لا تسألوا عن الآيات ، التي قد سألها الأمم الخالية ، فتبد لكم ، فتكفروا بها ، فيسؤكم ذلك ، مثل : ثمود وسؤالهم الناقة ؛ وقوم مُوسى سألوا الرؤية ؛

---

(١) سورة المائدة : ١٠١ .
(٢) سورة المائدة : ١٠٢ .

وقوم عيسى سألوا المائدة ، فأصبحوا بـها كـافرين ، حين أبديت لهم .

وفي قراءة ابن مسعود : ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ﴾[1] ، فسألوا عن الماهية ؛ والماهية : الجنس ؛ فما : إستفهام عن جنس الشيء ؛ وكيف : إستفهام عن حال الشيء ؛ ولم : إستفهام عن علة الشيء ؛ قال الشاعر :

يا من تعلم عِلم صبية مكتبٍ   وغداً بذاك يُناطح العُلماء
لولا مواقع لم وكيف وهولها   لرأيت أكثر من ترى فقهاء

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " إياكم وكثرة السؤال ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم " ؛ وقال عبد الله بن عُمر بن في ذلك :

إياكم وكثرة السؤال فيما   يسعكم جهله في الحال
فقد نهي الإله عن سؤاله   في ذاك والرسول في المقال

وعن سعد بن أبي وقاص ، أن النبي (ﷺ) ، قال : " إن أعظم المُسلمين في المُسلمين جُرماً ، من سأل عن شيء لم يُحرم ، فحرم من أجل مسألته " .

---

(١) سورة البقرة : ٦٨ .

وفي حديث أبي ثعلبة الحبشي ، عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " أن الله حد حدوداً ، فلا تعتدوها ، وفرض لكم فرائض ، فلا تضيعوها ، وحرم أشياء ، فلا تنتهكوها ، وترك أشياء من غير نسيان ، فاقبلوها ولا تبحثوا عنها " .

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " خير خصال العِلم السؤال " .

ويُقال : من رق وجهه عن السؤال ، رق عِلمه عند الرجال ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

إن طلاب العِلم بالسؤال   من رق وجهه عن السؤال
رق به العِلم مع الرجال   أما ترى أكابر الجهال
جهلاً قد إستغنوا عن السؤال

فإن قال قائل : إن هذا من الإبطاء ؛ قلنا له : إنما يُعاب بالشيء من جهله ؛ وإنما قلته بديهاً ، فليُمهد العذر من كان له عِلم بالشعر .

فصل

ومن دخل بلداً ، جاهلاً بأهله ، واحتاج إلى السؤال عن نازلة به ، فعليه السؤال عن العُلماء من أهل البلد ، المنسُوبين إلى

الفقـه ، والسـتر ، والعفـاف ، والعِلـم ؛ فـإن كـان مـن أهـل النظـر والتمييز ، ميز بين أقاويلـهم ، وإسـتدل علـى عدلـها بالكِتـاب والسُنة ، فعمل به ؛ وإن كان ممـن لا عِلـم لـه و، لا تمييز معه ، فعليه السؤال عنهم ، وعن عِلمهم ، وثقتهم ، ثم يجتـهد ، وينظر أيهم أكثر عِلماً ، وأثبتهم صلاحاً ، وأفضلهم ورعاً ، فيأخذ بقوله ، ويُقلده بعد إجتهاده .

قال أبو محمد : أخبرني أبو مالك ، عن أبي عبد الله محمد بن محبـوب ، وعـن أبـي معاويـة (رحمـهم الله) : أن خلـف بـن زيـاد البحراني ، لما نشأ وجد الإختلاف ، قال : لا يجوز أن يكون الناس مع إختلافهم مُحقين ، لتخطئة بعضهم لبعض ، وإن لله تعالى دِّيناً تعبد به عباده ، لا يعذرهم بجهلهم إياه ، وتركهم له ، فخرج يطلب ما كلف به ، حتـى دخل البصرة ، فكلمـا لقـي فقيـهاً ، سأله عن إعتقاده ؟ فـإذا أخـبره ، قـال : الحق غير هـذا ؛ إلـى أن لقـي أبـا عُبيدة مُسلماً ، فلما أخبره بمذهبه ، قال : هذا هو الحق الذي تعبد الله تعالى به عباده .

وروى : لا تأخذ دينك إلاَّ ممن تأمنه علـى نفسـك ، وحرمـك ، ومـالك ، وأن الدِّين أكبر من النفس ، والحرم ، والمال .

ويُقال : إفد نفسك بمالك ، وافد دينك بدمك .

مسئلة : ومن أمر رجلاً أن يسأل له عن مسئلة ، وهو يعلم أنـها خلاف ما قال لـه ، فإذا حرف المسئلة ، فلا يسعه أن يسأل لـه عنها ، ولا يخبره بجوابها ؛ وإن قال له : سل لي عن كـذا وكذا ، ولا يدري ما يُريد ، فلا بأس عليه أن يسأل لـه ؛ وإن إتهمه أنـه يُريد شيئاً لإستحلال الحرام ، فلا يسأل له ، ولا يخبره بالجواب .

قال يُونس : عِلمك من روحك ، ومالك من بدنك ، فضع عِلمك منك بمكان روحك ، وضع مالك منك بمكان بدنك ؛ وقيل : الأمـور ثلاثة : أمر تبين لك غيه فاجتنبه ؛ وأمـر بـان لـك رشده فاتبعه ؛ وأمر أشكل عليك فرده إلى أهله .

وقيل لجعفر : قد جعل الله للقرآن أهلاً ، أغناهم به عن جميع الخلق ، لا عِلم إلاّ ما أمروا به ؛ قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ (١) .

وعن الحسن ، قال : إلـى كِتاب الله ، وسُنة رسوله (ﷺ) ، فخذوا أيّهما .

وقد يُقال : في أولي الأمر منكم ، إنهم هم الفقهاء والعُلماء ، نحو : أبي بكر الصديق ، وعُمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) ؛ والله أعلم .

---

(١) سورة النساء : ٥٩ .

مسئلة : إختلف فيمن أراد حمل دينه ؛ فقال قوم : يجزيه فقيهان مُجتمعان ؛ وقال آخرون : يجزيه واحد بعد واحد ، ولو كانا مُجتمعين ، كان أحوط ؛ وقال : فهذا فيما يجب به العِلم من أهل الإحداث ، وأما غير ذلك من ولاية المُسلمين ، والدلالة على الحق من الحلال والحرام ، فالواحد يجزيه .

مسئلة : ومن كان عارفاً بحقوق الله ، في أمره ونهيه ، قائماً بطاعة الله تعالى ، مُجتنباً ما نهاه الله عنه ، فلا يُضره ، إن لم يُنسب عليه ذلك أحد من الناس .

مسئلة : وعلى الضُعفاء السؤال عن العُلماء ، ليحملوا عنهم دينهم ، لأن الحجة إنما هي لهم وعليهم ، من أهل الحق ، فإذا عرفوهم من غير أهل الإحداث في الدين ، تولوهم ، وأخذوا عنهم وعليهم قبول ذلك منهم ، وليس لهم قبول فتوى من غيرهم ، ولا من مُخالفيهم ، إلاّ أن يعرفوا عدل ذلك ، فعليهم أن يعملوا بما عرفوا عدله ؛ والله أعلم .

المسائل التي لا جواب لها عند الفقهاء إلاّ التسليم

يُقال لهم : لم حكم الله (عَزَّوَجَلَّ) في القتل بشاهدين ؟ وفي الزنا بأربعة شُهداء ؟ والقتل أعظم عند الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ) ، وأجل إثماً ؛ ولم

جعل الله (جَلَّ جَلالُهُ) للذكر مثل حظ الأنثيين ؟ والأنثى أقل حيلة وأضعف منه ؛ ولم حكم الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) فيمن سرق غيره بالقطع ؟ وإذا قطع رجل يد رجل فعليه نصف ديته ؛ ولم حكم الله (عَزَّ وَجَلَّ) في الجنابة بالغسل ، وفي الغائط بالوضوء ؟ والمني أطيب رائحة ، وأقل أذى من الغائط ؛ وما معنى قول النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : " ما نقص مالٌ من صدقة " .

السُؤال على أربعة أقسام ، كُلها إستخبار ؛ والجواب أربعة أقسام ، كُلها إخبار :

فالقسم الأول : هُوَ السُؤال عن المذهب ، وما بينه ؟ وما يُقابله من الجواب : الإخبار به .

والقسم الثاني : السُؤال عن الدلالة ؟ ويُقابله من الجواب : الإخبار بها .

والقسم الثالث : السُؤال عن وجه الدلالة ، وكيفية التعلق بها ؟ ويُقابله من الجواب : الإخبار به .

والقسم الرابع : المُطالبة بتصحيح الدلالة من الجواب ، وَهُوَ سُؤال إلزام ، وطعن ، وقدح ، ومُعارضة ؟ ويُقابله من الجواب : الإخبار به ، وَهُوَ الكشف

عن موضع الإحتراز ، وإنما يُقابله خصمه ليس مثلاً لما إبتدأ به نسخه ، لما قابله به ، ومتى أورد المسؤول دلالته ، وأبان عن كيفية التعلق بها ، إستغنى السائل عن السُؤال ، عن وجه دلالته .

وقد قال بعض : أن السائل يستغني في بعض الأحوال ، عن السؤال عن المذهب ، وما بينه ، إذا كان عارفاً بمذهب خصمه ، وما ينتحله .

الباب الرابع عشر :
في صفة المُستحق للسُؤال عن الحلال والحرام

هُوَ العَالِم المشهُور بالعِلم في مصره ، والمشهُود له بالورع في عصره ، من أهل نحلة الحق ، المنسُوب إليه الفقه والمعرفة ، فإذا كان على هذه الصفة ، كان حجة للسائل ، وقدوة في المسائل .

ولا يجوز أن يكون قدوة ، إلاَّ العَالِم الورع ، فإن كان ثقة فيما يفتيه ، ولا ولاية له عند المُسلمين ، لم يجز أخذ الفتوى عنه ، لأن الفتوى لا يقلد منها إلاَّ أهل العِلم .

فإن كان الرافع للخبر والفتوى ، عن الفقيه المُتبع ، رجل من أهل مذهب الحق ، ولا ولاية له ، وهو غير مُتهم فضله في الناس ، قبل منه ذلك وصدق ، ووجب الفعل بقوله ، إذا قال : حفظت عن فلان الفقيه ؛ وأخبرني فلان ، أو سمعته يفتي بكذا ؛ وكان ممن يضبط ما يرفعه ، ولا يتوهم عليه الخطأ ، وكان المُخبر عنه فقيهاً ، معروفاً بالفضل .

ولا تقبل الفتوى ، إلاَّ من أهل العِلم بالفتوى والدِّين ، وإذا كان الرافع ثقة ، ضابطاً لنقل الفتوى ، جاز القبول منه ، إذا كان من

أهل الرأي ، فإن قال : الحق في هذه المسئلة كذا ، أو الجواب فيها كذا ، فهذا مُفتي .

ولا تقبل الفتوى إلاّ من أهل الولاية ، المنسوب إليهم الفقه ؛ فإن كان هذا الرجل من أهل الولاية ، معروفاً بالصدق ، إلاّ أنه ليس من الفقهاء ، وطلاب العِلم ، فلا يجوز أن يؤخذ عنه الفتوى ، لأن مثله قد يظن به أنه لا يضبط عن العُلماء ، ما يسمعه من جوابهم ، وخاصة ما يكون من مُشكل الجواب ، عن دقيق العِلم وخفيه ، ألا يرى أنهم لم يجيزوا شهادة إثنين من هؤلاء ، على أحد من المُسلمين ، فيما يُوجب البراءة ، حتى يُفسرا معنى الحُرمة ، التي شهدا بها ، ولم يُكلفوا ذلك العُلماء ، إذا شهد منهم إثنان ، قبلت شهادتهما ، وصدقا في ذلك ، وقلدا الحُكم فيه ، لتهمتهم لعِلم الضعيف بالفقه ، وثقتهم بعِلم الفقيه ، والله أعلم .

ولا يجوز أن يدل المُستفتي إلاّ على المُفتي ، بما له عِلم وورع ؛ والمُفتي إذا كان مُخبراً للمُستفتي ، أخبره بالإختلاف ؛ وإن كان مُفتياً لمن إستفتاه ، لم يسعه إلاّ أن يفتيه ، إلاّ بما يقول هو به ، مما يراه عدلاً عنده ، وإذا أفتاه ولم يرفع له عن أحد ، نظر في فتواه ، وإذا رُفع له عن غيره ، نظر في المرفوع له ،

فإن كان ممن يُؤخذ بفتواه أخذ بذلك ، وإن كان ممن لا يجوز منه ذلك ، لم يأخذ بقوله ، حتى يعرفه عدل ذلك القول .

وإذا سُئل الفقيه عن مسئلة ، فقال : قد قالوا فيها كذا ، فإنه لم يفت فيها بشيء ، فإن قال : قد قال فيها المُسلمون كذا ، فجائز الأخذ بذلك .

فصل

ولا يجوز لأحد أن يسأل غير أهل العِلم ، الذين نص الكِتاب عليهم ، وخص الخطاب برد السؤال إليهم ؛ قال الله (عز وجل) : ﴿ فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ (١) ، وقال (سبحانه وتعالى) : ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ (٢) .

فمن سأل العُلماء ، فقد أطاع ربه ، وأصاب فيما أتي به ؛ ومن سأل غيرهم ، فقد خالف أمر ربه ، وضل ، وخسر ، وزل عن المحجة ؛ ومن عمل بحجة فهو سالم ؛ والمُستفتي من العَالِم سالم ، ومن غير العَالِم هالك .

ومن أفتى ، فخالف فتواه ، كِتاب الله (عز وجل) ، وسنّة رسوله

(١) سورة النحل : ٤٣ .
(٢) سورة الأعراف : ١٨١ .

(ﷺ) ، وإجماع الأمة ، لم يسلم بفتواه .

ومن سأل من ليس بحجة عند الله (سبحانه وتعالى) ، فكان في جوابه ضمان ، فالضمان يلزم السائل ، والمُفتي آثم ، وإن كان المُفتي بذلك عَالِماً ، فأفتى بما يخرج من قول الأمة ضمن ، ولا يأثم إذا ضمن ما أفتى فيه ؛ وإن قيل : لم يضمن العَالِم ، ولم يضمن الجاهل ؛ قيل : لأن السائل للعِلم ، قد سأل من أمر الله تعالى بسؤاله ، وهو الحجة لله تعالى في الأرض ، وهو - أيضاً - حجة للعبد وعليه ؛ والسائل للجاهل ، قد عصى الله تعالى فيما أمره ، فلزمه الضمان .

وقال أبو الحواري : إذا كان المُفتي من أهل الفتيا فأخطأ ، فعليه الضمان ؛ وإن لم يكن من أهل الفتيا فأخطأ ، فلا ضمان عليه ، وهو سفيه من السُفهاء .

وقيل : المُفتي يدخل بين الله وبين عباده ؛ وقيل : أن الملائكة تلعن من يفتي بغير عِلم ؛ وأضعف الناس عِلماً ، أعجلهم في الفتوى ؛ وقال محمد بن مداد :

أضعف الناس عُلوماً عَجُلاً عند الفتاوي
لا يساوي جاهل بالعِلم خيراً لا يساوي

فصل في الرأي

ولا يجوز الرأي في شيء من أحكام الإسلام ، من ثلاثة وجوه : وجه : حكم به الكِتاب ؛ ووجه : حكمت به السُنة ؛ ووجه : إجتمعت عليه الأمة .

وإنما يجوز الرأي لأهل الفقه والمعرفة بدين الله (عَزَّ وَجَلَّ) ، لا لغيرهم من الناس ، فيما لم يكن فيه وجه ، من أحد هذه الوجوه الثلاثة ، وليس لأحد أن يتبع رأي غيره ، ويدع رأيه الذي يرى أنه أصوب ، وإلى الحق أقرب ، غير أن على الجميع من فقهاء المُسلمين ، أن ينقادوا لما حكم أولوا الأمر منهم ، برأي من الأراء ، ويكونوا لحُكمهم مُتبعين ، ولأمرهم في ذلك مُطيعين ، وإن خالف حُكمهم أرائهم ، ما لم يكن مُخالفاً للكِتاب ، والسُنة ، والإجماع .

وكذلك روي عن أبي عُبيدة مسلم بن أبي كريمة ، أنه قال : إذا إختلف الناس في الرأي ، رد الأمر إلى الإمام ، وإمام الناس عبد الرحمن بن رستم ، وكان إماماً في المغرب ، وكان - فيما أحسب - حياً ، في أيام ما قال أبو عُبيدة هذا القول .

ولا يجوز لمن قال برأيه ، أن يشهد أن رأيه هو الصواب ،

وأن كل ما خالف رأيه هو خطأ ، ولو جاز ذلك ، لجاز له أن يُضلل المُسلمين الذين خالفوه في رأيه .

وينبغي لمن قال برأيه في شيء ، وهو من أهل الرأي ، أن لا يرتاب بعد قوله في رأيه ، إذا عَلِم أحكام من [1] قاله من الكِتاب ، أو السُنة ، أو إجماع فقهاء الأمة ، وإنما يرتاب في رأيه ، أن يكون خالف صحة الفتوى ، ما لم يرتاب فيه حُكم أحد هذه الوجوه الثلاثة التي سميناها .

ويُقال للرجُل ، إذا قال برأيه : قد عكل يعكل ؛ وحدس يحدس ؛ وعسن ، واعتسن .

ومنازل الرأي أربعة : التقدم في الأمر قبل حلوله ، فإن قصر عنه ، فالحد فيه عند وقوعه ، فإن قصر عنه ، فالحث إلى التخلص منه بعد وقوعه ، فإن قصر عنه ، فليس إلاّ بذهاب المال الذي يذهب مع صواب الرأي .

وقال : العَالِم الذي يجوز له أن يفتي بالرأي ، العَالِم بالكِتاب والسُنة ، والناسخ والمنسوخ ، وما سبق من الآثار ، إلاّ أن العُلماء - دون ذلك - يقيسُون الشيء بالشيء الذي سبق به

---

(١) في نسخة أخرى : ما .

القول .

والقول بالرأي : أن يكون الفقيه قد عرف أراء الفقهاء في المسئلة ، وأخذ بأحد أقاويلهم ، وكان ذلك رأيه ، فهذا هو الرأي ، وهو الفقيه الذي يفتي بالرأي ؛ فإذا أخذ بأحد هذه الأقاويل ، أو تأول السُنة على أحد الأراء ، وكان في تأويله غلط أو خطأ ، كان مرفوعاً عنه ، فإن أصاب كان مأجوراً عليه .

فإذا أفتى بقول لا يعرف صوابه ، إذا كان لا يعرف أراء الفقهاء ، ألزموه الضمان ؛ فإذا كان من الفروع ، فلا يضمن ، إلاَّ ما خالف الكِتاب والسُنة .

وأما الأصول : فلا يسلم من خالف الحق بفتياه ، كان برأيه أو بتأويله ؛ ومن كان ضعيف المعرفة ، فحفظ في مسئلة قولين ، وإبتلى بالعمل بها ، وهو لا يعرف عدل أقاويلهم ، فعمل بواحد منها ، جاز له ذلك .

وقال أبو محمد (رحمه الله) : على هذا الضعيف المعرفة ، أن يجتهد كما إجتهد جابر بن زيد ، وإذا أخذ من قولهم بخلاف ما يراه أعدل ، لم يجز له ، وضمن ما فيه الضمان ، فإن أفتى بخلاف الحق ، وهو يرى الحق غيره ، فقد قالوا : يضمن ، إنما لا

يضمن إذا كان لا يعرف أن غيره أعدل ، فأخذ به أنه الحق عنده ، ولعل فيه إختلافاً ، لأن الفروع يجوز فيها الإختلاف ، ويمكن أن يكون الذي عمل به أعدل ، من الذي رآه هو أنه أعدل ، فلا يضمن ولا يأثم ، لأنه أخذ بقول من أقاويل المُسلمين .

ومن أفتى في مسئلة فيها أقاويل كثيرة ، يقول ولم يعرف الأعدل ، ولا هو من الفقهاء ، لم يُؤجر إن أصاب ، ولم يسلم من خطئه ؛ وإذا كانت مسئلة فيها قولان ، فعُرفت الحجة في أحدهما دون الآخر ، فلا يجوز أن يأخذ بخلاف ما يراه عدلاً ، ولكن الأخذ بما عرفت عدله ؛ ومن عرف الأعدل من أراء الفقهاء أخذ به ، ومن لم يعرف العدل من جميع ذلك ، سأل المُسلمين ، وأخذ بفتيا من أفتاه منهم ؛ وقيل : للضعيف أن يأخذ بإخبار الفقهاء له ، وجائز له الأخذ برأي واحد ، من أحد المُسلمين ، من أهل الفتيا .

وعن بشير ، قال : إن الرجل يعنى بالمسئلة ، فلا يجد أحداً من المُسلمين ، فيسأل من دخل في فتيه ، فيحفظ فيها غير فقيه ، فلا يأخذ من غير فقيه من المُسلمين ، إنه ينظر ويُميز ، فإن كان يرى عدلاً أخذ به ، وإن لم يكن عدلاً ، فلا يأخذ بذلك .

<u>مسئلة :</u> والعَالِم الذي يجوز له أن يفتي بالرأي ، الذي يكون

عَالِماً بالكِتاب ، والسُنّة ، وآثار الأئمة .

وكان أبو عليّ ، إذا أريد منه الحفظ كاع [1] ؛ يقول : كع الرجل عن كذا ، يكع ، كعوعاً ، وأكعه عن ذلك الفرق ، وهو الذي لا يمضى في حزم ولا عزم ، وكأن هذه الكلمة في الإخبار عن أبي عليّ ، إنما أريد بها أنه وقف عن الجواب ، والله أعلم .

والعَالِم إلى رأيه ونظره ، أحوج منه إلى حفظه ، لأن ليس كل مسئلة مسطورة ، ولا كل نازلة مذكورة ، فلو كان العُلماء لا يجيبون إلاّ بما يحفظونه ، لما بينوا للناس كثيراً مما يسألونهم ، ولكان الناس في أمورهم في ظلم ووقوف ، ولكن مَنَّ الله (عَزَّ وَجَلَّ) عليهم بالعُلماء ، الذين أتاهم من العِلم ، ما جاز لهم فيه القول بالرأي ، فأوضحوا للسائلين نور كل ظلماء داجية ، وعمياء داهية ، والحمد لله على ذلك كثيراً ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

إنَّ هذا الرأي ما جاز ... لغير العُلماء

لم يجز للجاهل الفدم ... مقال بارتياء

رب رأي من سفيهٍ ... مثل أعمى في عماء

وكذا لم يحمد الخابر ... أراء النساء

(١) في نسخة أخرى : كع .

وللعَالِم أن يفتي برأيه ، فيما لم يأت في الكِتـاب لـه حُكم ، ولا في السنّة ، ولا أجمع عليه الفقهاء الأولون .

والفتيا بالرأي من السنّة ، لقول النبي (ﷺ) : " لا يجمع الله أمتي على ضلال " ؛ وقد أجمعوا على القول بالرأي ، وهذا حجـة لمن إحتج به ، ووجب قبول قول العدل الفقيه الثقة ، إذا أفتى فـي مسئلة ، وهـو آخـذ بإجمـاع الأمـة علـى ذلـك ، إلاّ قـول الحيــاني وحده ، فإنه قال بإثنين في بعض الفتيا ، وأجاز الواحد في بعض ، واحتج بالآية ، قول الله (سبحانه وتعالى) : ﴿يا أيها الذيـن أمنـوا إن جاءكم فاسق بنبإٍ فتبينوا﴾ [1] .

ومن أفتى برأيه في مسئلة ، وكـان مـن أهـل الإجتـهاد ـ وفـي نُسخة : من أهل القِبلة ـ وخرج رأيه من جميع أقاويل أهـل القبلـة لم يضمن ، وإنـما يضمـن مـن لـم يكـن مـن أهـل الإجتــهاد ، إذا خرج بقوله مـن جُملـة أقـاويل أهل القبلـة ، وعليـه الإثـم ، إلاّ أن يتـوب ، وإن كـان مـن أهـل الـرأي ، فـأفتى بشـيء مُجتمـع علــى خلافـه ، أو مُحـرم فـي الكِتـاب ، أو السُـنة ، أو الإجمــاع ، فإنــه يضمن ، فإن لم يكن في فتياه حُكم من أحد هذه الثلاثـة الأصول ، وإنـما فيه إجتـهاد مـن الفـقهاء ، فأفـتى هـو بغير ما أفتوا ، فهو

(١) سورة الحجـرات : ٦ .

سالم ؛ وأما إن كان من غير أهل الرأي والإجتهاد ، فإنه يضمن إذا خالف أقاويلهم ، ومن أفتى بفتيا وأخطأ ، ولم يخرج من جميع قول فقهاء المُسلمين والمُخالفين كلهم ، لم يكن عليه ضمان .

مسئلة : ومن رفع مسئلة عن فقيه مُتقدم ، وكان عدلاً ، قبل شهادته فيها ، على سبيل الشهادة ، لا على وجه الفتيا .

وأما المُفتي : فيكون أعلا درجة من هذا وأبصر ، فإذا أفتى ، قبل منه ما أفتاه به ، فإن أخطأ الرافع والمُفتي ، وكانا قد أصابا في المسئلة بعض أقاويل الفقهاء ، فهما سالمان جميعاً ، وإن أخطئا في خلاف أهل القبلة جميعاً ، ضمن المُفتيان ، وعلى السائل أن يرجع إذا عَلِم بذلك ، أو أعلماه برجعتهما ، وعليهما أن يعلماه خطأهما ، ويضمنا ما تلف من مال بفتياهما ، وإن لم يعلم السائل والمسؤول بالخطأ ، وماتا على ذلك ، فهما سالمان ، إذا كانت المسئلة من الفروع ، فيما يكون فيه الحق في إثنين ، وإن كان الحق في واحد ، فلا يجوز فيه الإختلاف ؛ والمُفتي والمُستفتي في ذلك سالمان ، إذا وافقا الحق ، وإن أخطئا الحق هلكا جميعاً ، إذا ماتا على الباطل ولم يتوبا .

وعلى المُفتي أن يُعلم المُستفتي خطأه ، إذا عَلِم به ، ويضمن ما تلف من مال ، وكل من أخطأ فيما يكون فيه الحق في واحد

منه ، فهو هالك ، عَالِماً كان أو جاهلاً - وفي نُسخة : فيما يكون فيما الحق في إثنين - وأما ما يكون الحق في واحد ، فهالك بالخطأ من عمل به ، وما كان الحق في إثنين منه ، فإن أخطأ فيه العَالِم الذي يجوز له أن يفتي بالرأي ، فلا ضمان عليه ، وإن أصاب فمأجور فيه .

مسئلة : ومن كان يرى رأياً ، فحكم الإمام عليه ، أو من يقضي له ، لم يسعه أن يأخذ برأيه ، ولو كان سُليمان بن عُثمان ، وهو يرى أن من قال لإمرأته : هو فِراقك ، لزمه الطلاق ، ثم عناه ، فسأل مسعدة بن تميم ، فلم يرى عليه شيئاً ، إذا كان مُرسلاً ، لم يسعه أن يأخذ برأي مسعدة ، إلاَّ أن يترك ذلك الرأي ، ويرجع إلى غيره .

وقال سُليمان : لو إختلف مُوسَى بن عليّ ، وعليّ بن عزرة ، لم أرى أن يتسع برأي مُوسَى ؛ وقيل له : أو كان عليّ أفقه ؟ قال : نعم ؛ ومن أجيب في مسئلة بإختلاف ، فرأى أحد القولين أعدل عنده من الآخر ، لم يجز له الأخذ بما لم يره عدلاً ، فإن فعل ذلك ، كان ضامناً آثماً .

مسئلة : ومن سأل عَالِمين عن مسئلة ، فرخص له أحدهما ، وشدد عليه الآخر ، فأخذ بقول من رخص له ؛ ثم عُرضت له

مسئلة أخرى ، فسألهما عنها ، فشدد عليه الذي كان رخص له في الأولى ، ورخص له الذي كان شدد عليه قبل ، فلا يجوز له أن يأخذ بقول من رخص له في هذه ، بل عليه أن يأخذ بقول من رخص له في الأولى ، وشدد عليه في هذه الثانية ، ويعمل بترخيصه وتشديده ، ولا يجوز له أن يأخذ بقول غيره ، لكن إنما يأخذ بقول أحدهما في الترخيص والتشديد ، وإلاّ إنتقض عليه ما أخذ به من الترخيص الأول .

وللمُتعلم أن يختار من أراء الفقهاء من المُسلمين ، ما يراه عدلاً عنده ، ولا يدع رأي المُسلمين إلى غيره ، وليس له أن يأخذ بكل قول في كل ما عرض له ، بل يأخذ إلاّ ما يراه حقاً في نفسه ، وإن كان عليه فيه تشديد ، ويدع ما لا يراه حقاً ، وإن كان له فيه ترخيص ، والله أعلم .

<u>مسئلة :</u> ومن أفتى رجلاً مسئلة برأيه ، ولم يكن من أهل النظر ، مما يجوز فيه القول بالرأي ، فوافق فيها قول أحد من أهل الصلاة ، كان مُخطئاً في ذلك ، ولا ضمان عليه ؛ وإن لم يُوافق فيها قول أحد ، كان ضامناً ؛ وإن أفتى في مسئلة أصلية ، مما لا يجوز فيها القول بالرأي ، كان آثماً ، إن وافق الحق ، وإن أخطأ ، كان ضامناً آثماً ، والحفظ أولى من الرأي .

مسئلة : ومن كان يأخذ بقول من أقاويل المُسلمين في مسئلة ، وهو يرى ذلك القول عدلاً عنده ويعمل به ، ثم رأي غيره أعدل عنده ، فعليه أن يرجع إلى ما يراه عدلاً عنده ، وليس عليه فيما يعمل به من القول الأول بأس ؛ وكذلك الحاكم ، إذا كان يحكم بقول من أقاويل المُسلمين ، ثم رأى غيره أعدل منه ، فعليه أن يرجع إلى ما يراه عدلاً عنده ، ولا بأس عليه فيما مضى ، وكان يحكم به ، والله أعلم .

ولا ضمان على المُفتي ، ولا الحاكم ، فيما مضى من الفتيا والحُكم ، والله أعلم .

مسئلة : ومن سأل عَالِماً عن مسئلة ، فأفتاه بها ، ثم جاءه آخر ، فقال له : هذه المسئلة الجواب فيها خلاف هذا ، من لسان النبي (ﷺ) ، فلا يجوز قوله ، إذا كان المُفتي من عُلماء المُسلمين ، وسقطت شهادة المُعارضة ، والله أعلم .

ومن سمع من المُسلمين قولاً ، أو من آثارهم ، فأفتى به الناس ، وأخذوا عنه ، فهو سالم ، إذا رفع عنهم ما سمع عنهم ، وعرفم منهم ، من آثارهم الصحيحة ، إذا عرف عدل ذلك ، وجائز له ؛ وأما أن يفتي ، فحتى يكون من أهل الفتيا في ذلك .

ومن وجد مسئلة في كِتاب ، أو كُتب ، وهو لا يعرف التمييز ، فلا يجُوز له الأخذ بذلك ، إلاّ ما عرف عدله .

وقيل : أنه إذا وجد ذلك في ثلاثة مواضع ، فجائز ؛ وأما الآثار المعروفة الشاهرة ، فقد عُرفت أنه يجوز الأخذ بما فيها ، والله أعلم .

وعن أبي الحواري ، قال : إن الكُتب لا يُؤخذ بما فيها ، إلاّ من عرف عدلها ، وذلك لا يكون إلاّ فقيهاً .

فصل منه

وجائز تقييد المسئلة عن العَالِم بغير ألفاظه ، إذا لم يخرج عن المعنى ، لأن الألفاظ كسوة للمسئلة ؛ فإذا إكتست لفظاً غير خارج من معناها فجائز ، ويدل على ذلك ، ما روي عن أصحاب النبي (ﷺ) ، قالوا له : يا رسول الله ، إنك تحدثنا ، ولا نحسن أن نحكيه ؛ فقال النبي (ﷺ) : " إذا أصبتم المعنى فلا بأس " .

وسُئل حماد بن زيد : عن الرجل يحدث بحديث رسول الله (ﷺ) ، على المعنى ، ويصلح اللحن ، ويأتي بالإعراب ؛ فقال : ما رأيت الله (سبحانه وتعالى) ، حكى في كِتابه ، عن الأمم الماضية وغيرهم

بألفاظها ، وإنما حكى في كِتابه عن المعنى بالألفاظ التي نعرفها [1] نحن ، وقد أجازوا إصلاح اللحن في الآثار إذا وجدت ، وكذلك أجازوا تحمل الشهادة على المشهد ، بألفاظ غير ألفاظه ، إذا لم تخرج عن المعنى ، وكذلك الرسالة ـ وفي نُسخة : أداء الشهادة على المشهد ـ نسخةُ المُرسل بغير ألفاظه ، كل هذا جائز ، إذا أتى على المعنى ، ولم يخرج عنه .

فصل

الرأي : هو إستخراج صواب العاقبة ، فيما يستعمل في الحادثة ، على عُلوم العادة والتجربة .

مسئلة : ولا يجوز للفقيه أن يقول للسائل بعد أن يفتيه : لا يُأخذ من قولي إلاّ ما وافق الحق والصواب ، أو يقول : سل ؛ وللسائل أن يقول بقوله ، ولا يحجر عليه أخذه بهذا القول ، ولا يجوز له أن يمنعه الأخذ بقوله ، لأنه لا يجوز له إن كان حقاً ، فلا يجوز له أن يمنعه من الحق . وإن كان كذباً ، فعليه أن يُعلمه أنه كذب ، ويتوب إلى الله (سبحانه وتعالى) من الكذب هذا .

وعن أبي محمد ، وعن أبي الحسن (رحمهما الله) : أنه إذا

(١) في نسخة أخرى : نعلمها .

حجر عليه الأخذ بقوله ، لم يجز له أن يأخذ به ، إلاَّ أن يعلم المُستفتي أن ذلك حق ، وقد أبصر عدله ، من الكِتاب والسُنة ، فله العمل به ، ولا يلتفت إلى قوله .

<u>مسئلة :</u> ومن أفتاه عَالِم بالرأي ، فله أن يعمل به أبداً ، وإن كان المُستفتي ممن يعرف عدل الأقاويل ، فليس له أن يعمل إلاَّ بما عَلِم عدله .

والمُفتي : جائز له أن يفتي برأيه في كل موضع ، إذا كان من أهل الرأي .

وأما المُستفتي : فليس له أن يأخذ برأيه فيما أفتاه العَالِم ، حتى يصير عَالِماً مثله ، أو يعرف عدل ما أفتى به ، فيرفع ذلك ، فإما أن يفتي فلان ، فإن عمل به ، وعاد المُفتي عن ذلك الرأي ، فلا شيء على المُستفتي فيما عمل ، إذا كان ذلك مما يجوز فيه القول بالرأي ، وكان المُفتي عَالِماً .

وقالوا : إذا قال العَالِم : أن الذي أفتيتك به خطأ ، وأنا راجع عنه إلى غيره ، ولم يعلم المُستفتي أن ذلك خطأ ، فهو يعمل بما عَلِم .

وقد روي عن عُمر (رحمه الله) : أنه أفتى في عدة المرأة

برأي ، ثم رأى غير ذلك الرأي ، فرجع عنه ، ولم ينقض ما كان أفتى ؛ وكذلك حكم في الخنصر بست من الإبل ، ثم رجع عن ذلك ، وجعل الخنصر وغيرها من الأصابع سواء ، ولم ينقض ما كان حكم به أولاً .

وإن أكذب العَالِم القول ، وقال المُستفتي : لم يكن القول كما قلت لك ، فليس للمُستفتي أن يعمل به .

وأما إذا أفتى ، ثم رجع عن ذلك ، لم يضر المُستفتي أن يعمل به ؛ فإن عمل المُستفتي بما أفتاه به العَالِم ، وهو عدل ، ثم رجع العَالِم إلى الجهالة ، فالمُستفتي سالم بما عمل ، وإن كان لم يعمل به بعد ، وفسق من أفتاه ، وترك العمل بذلك الرأي ، ولم يعمل به ، لأنه إذا عمل به والمفتي فاسق ، فقد عمل بقول فاسق ، ولا يجوز له .

وإن أفتاه وكان من أهل العِلم ، فعمل برأيه وفتواه ، في حال العدالة ، ثم فسق ، فلا يضره ما عمل بقوله .

فإن قال العَالِم للسائل : أنا أفتيك بقول المُسلمين ، وأنا أعمل بغير هذا ؛ فليس للمُستفتي أن يعمل بذلك ، حتى يعلم عدله من قول المُسلمين ، لأنه قال له : أنا أعمل بخلافه .

وإن قال له : أنا أفتيتك بقول المُسلمين ، ولم يقل له : أنا أعمل بخلافه ، فقد رُفع له عن المُسلمين ، وله أن يعمل به ، إذا كان عَالِماً عدلاً ، والله أعلم .

<u>مسئلة :</u> وينبغي للسائل أن يسأل أفقه أهل المصر الذي هو فيه ، فإذا أفتاه أخذ بقوله ؛ فإن كان في المصر فقيهان يُؤخذ عنهما ، فاتفقا ، أخذ بقولهما ؛ وإن إختلفا ، نظر ما يقع له أنه أصوبهما ، وسعه الأخذ به ؛ فإن كانوا ثلاثة فقهاء في مصره ، مُتقاربين في الفقه ، واستفتاهم فأفتوا واتفقوا ، أخذ بقولهم ، وإن إختلفوا ، إتفق إثنان وخالفهم الثالث ، أخذ بقول الإثنين ، ولم يسعه الأخذ بقول الثالث ، ولا بقول نفسه ؛ وإن إختلفوا كلهم ، إجتهد هو برأيه فيما أفتوه ، فأيهم كان أصوب عنده قولاً أخذ به ، ولم يكن له أن يترك قولهم ويعمل بغيره .

وإن كان المُستفتي فقيهاً ، قد فقه الحلال والحرام ، ورأى الآثار ، وكان مثل الذي يستفتي وخالفه ، أخذ بقول نفسه ، ولم يلتفت إلى قول من خالفه ، وإن لم يستفت ، كان في وسعه أن يعمل برأيه ، إذا كان ممن يستفتي .

وإذا أفتى العَالِم جاهلاً في شيء ، وأخذ به ، وعمل به زماناً ، ثم قال له العَالِم الذي أفتاه : إن غير ذلك أحسن منه ، فينبغي

للجاهل أن يجتهد برأيه ، وإن كان جاهلاً ، فإن كان الأمر الذي رجع عنه العَالِم أصوبهما عنده ،لم يرجع عنه لرجوع العَالِم ، ومضى عليه ، فإن كان أحسن من الأول الذي رجع عنه ، أخذ بما رجع إليه العَالِم ، ولم يسعه أن يثبت على الأول ، ورجوع العَالِم في ذلك كقول العَالِمين : إذا إختلفا قوله الأول قول ؛ وقوله الآخر قول أحب ؛ وللمُستفتي أن يجتهد برأيه في أحد القولين ، وليس له أن يتعداهما .

قال أبو المُؤثر : وإذا إختلف العُلماء ، أخذ بقول أورعهم ، وأكثرهم عِلماً بتفسير القرآن ، والسُنة ، وآثار أئمة العُلماء السلف من الصحابة ، فإن كان المُختلف عليه القول ، ينظر عدل الأراء ، يأخذ بأعدلها وأقربها إلى الحق ببصيرته ؛ فإن كان لا يبصر ذلك ، أخذ بقول وليه منهم ؛ فإن كانوا كلهم أولياء ، أخذ بقول أعلمهم بالكِتاب ، والسُنة ، والآثار ؛ وإن كانوا كلهم سواء في ذلك ، أخذ بقول أورعهم ، وأبرهم ، وأنزههم ؛ فإن إستووا في ذلك ، أخذ بقول أسنهم ، وأقدمهم في الإسلام ؛ فإن إستووا في ذلك ، ولم يكن هو يعدل بين الأمور في ذلك ، أخذ بما شاء من أقاويلهم ، ووسعه ذلك ، وجاز له .

وكذلك عن أبي محمد (رحمه الله) ، قال : إذا لم يرجع عند

المُتعبد أحد الدليلين ، على قول العُلماء ، واستوى القولان عنده ، من كل الوجوه واعتدلا ، أخذ المُتعبد بأي الأقاويل شاء ؛ والله أعلم ، وبالله التوفيق ؛ وقال عبد الله بن عُمر :

إذا رأيت إختلافاً صار في العُلماء في الرأي فاعمل بفكر غير مُكتئب
ثم إجتهد في فتاويهم لما إختلفوا بما يوافق دين الله في الطلب
فكل طالب عِلم فهو مُجتهد فيما يراه من الآثار في الكتب
إن صح في عقله في ما يوافقه فيه الصواب جرى فيه بلا كذب
وليس يأخذ كل القول إن شكلت دلائل الحق فيه وهو غير غب
فليأخذن بقول الأكثرين ومن يكون ذا ورع من كاملي الأدب
له دينه فيما يحاوله ينجو من الإثم والزلات والريب

فصل في عكس السؤال

العكس في السؤال : أن تقلبه عن جهته ، وتحيله عن طريقته ، لما روي عن أبي المُنذر بشير (رحمه الله) : أنه لما دخل على الحياني ، وهو في المسجد بالبصرة ، في ملأ من أصحابه ، عند حصوله بها غريباً ، ذا هيئة رثه ، فوقف آخر الناس ، وألقى عليه مسئلة ، فأجابه ، فعكسها عليه ، فقام ومد يده إليه ، وقال : إليَّ إليَّ ، فتخطا الناس حتى جلس إليه ، وأقبل

بكلتيه عليه ، ثم أخذه بيده ونهض به إلى منزله ، فقيل له بعد ذلك في فعله ، وإكرامه له ذلك الإكرام ، وقيامه ؛ فقال : إنه لما عكس عليَّ السؤال ، علمت أنه عَالِم ؛ والعكس : رد آخر الشيء إلى أوله ؛ قال الشاعر :

وهن على الأكوار يعكسنّ بالضحى ... على عجلٍ منا ومنهنّ يكسع

وقوله : يكسع ، أي : يطرد ؛ قال محمد بن مداد في ذلك :

إن عكس السؤال لم يستطعه ... غير من كان عَالِماً ربيا
يحسن الرد ثم يعكس أولاه ... لأخراه ماهراً قثميا
والذي لا يكاد يُحسن شيئاً ... لا تراه الأمراء أميا
قِسُه لو كان بالغ السن شيخاً ... بغرير ومن يكون صبيا
إنما يعكس الهُداة بعِلم ... وبيان طريقها المأتيا

القثمي : الجامع للأمور ؛ والأمي : الذي لا يُحسن الكِتابة ؛ ومن هذا المعنى : أن يسأل الرجل الرجل عن شيء فلا يُحسنه ، فيعود المسؤول فيسأل السائل ، فيصير المسؤول سائلاً ، والسائل مسؤولاً ، وهو عكس الأمر .

كما حكي : أن بعض أصحاب أبي محمد (رحمه الله) ، والمُتعلمين منه ، إدعى عِلماً ، وإستدعى أن يُسأل ، فسأله أبو

محمد ، عن الأصل والفصل ؟ فلم يدر ما هما ، وعاد بالسؤال عنهما على أبي محمد ، فقال : الأصل : العقل ؛ والفصل : اللسان ؛ وأنشد :

وغانية كالمسك طاب نسيمها   يُلجلج منها حين يشوبها الفصل
كأن الفتى يوماً وقد ذهبت به   مذاهبها لقى وليس له أصل

غانية : منسوبة إلى قرية ، يُقال لها : غانة ؛ ونسيمها : ريحها ؛ ونسيم الريح : هبوبها ؛ وقوله : يُلجلج ، يُريد : يتلجلج ، فأسقط (التاء) ، ومثله كثير ؛ وقوله : لقى : هو الشيء المُلقى في الأرض ، يعني : أنه ساقط ، ولا عقل له ، ولا كلام فيه .

وقيل : جلس الطرماح ذات يوم ، فقال : سلوني عما دون العرش ؛ فقال له قائل : ما إسمك ؟ فقال : الطرماح ؛ فقال له : وما معنى الطرماح ؟ فلم يدر ؛ فقال : أنا أعلمك ، على أن لا تعود ، الطرمحة : العلو ، وبذاك سماك قومك ؛ ويُقال : طرمح الرَجل بناءه ، إذا علاه .

ومثله : حديث الأصمعي ، والضبي ، والمهدي ، قال الأصمعي : أسألكما أم تسألاني ؟ فقلنا : بل سلنا ، فأقبل عليَّ وقال : ما معنى قول الشاعر :

لي صاحب لا أستطيعُ فراقه ما إن يسيء ولا له إحسان
بينا تراه قاصراً لقوامه حتى تراه كأنه شيطان

ثم أقبل على إبراهيم المهدي ، فقال له : وما معنى قوله :

وذات طول ما لها ظلُ من غير مهرٍ وطئها حلُ
وبعضها إن رمت مُستصعبٌ وبعضها سهل به ذلُ

قال : ففكرنا ساعة ، فلم يتجه لنا في معناهما شيء ؛ فقال : أنا أخبركما بهما ؛ قلنا : نعم ؛ قال : بتمرتين ؛ فأخرجت إليه درهمين علويين ، وزنهما : دانقان ؛ فقال لي وهو قائم على جادة الطريق : وظل شخصه قد يُجاوزه الأول هذا ، وأشار إلى ظله ، والآخر هذا ، وأشار إلى الطريق ؛ فعلمنا أنه قد إرتجلهما ، وقد ذكرت هذا الخبر بجُملته في كِتاب : " الإبانة " ، فاختصرته ها هنا .

وقيل : أن أبا يُوسف ، لما إنفرد عن أبي حنيفة ، وصار قاضي القضاة ، أنفذ إليه من يسأله : عن قصار ، سلم إليه ثوب بأجرة كذا ، فنوي غصبه ، ثم تاب من ذلك ، وجاء به مقصوراً ، هل يستحق الأجرة أم لا ؟ وقال أبو حنيفة للسائل : إن قال : لا يستحق ، فقل : قد أخطأت ؛ وإن قال : يستحق ، فقل : قد

أخطأت ؛ فأجاب أبو يُوسف بالجوابين ، فخطيء في ذلك ، فوافاه أبا حنيفة ، فقال له : مسئلة القصار جاءت بك ؟ فقال : نعم ؛ فقال له : إن كان قصره قبل أن ينوي غصبه فله أجرة ؛ وإن كان قصره بعد أن نوي غصبه فلا أجرة له ؛ وقيل : أنه سلم إلى السائل عشرة آلاف درهم ، ليرجع إليه ويسأله عنها بحضرة الناس ، ليُجيبه بمشهد منهم ؛ قيل : وكان أبو حنيفة ، يقول : علمناه مسئلة بعشرة آلاف درهم ، وهو قاضي القضاة ؛ وقيل لأبي حنيفة : إن أبا يوسف يُخالفك ؛ قال : هو كحراث سوء يدس الغدد في السرائح .

ومن الرجوع في السؤال على السائل ، حديث عمرو بن مسعدة والحائك ، حين أخرجه المُعتصم ، لحمل سُليمان الرجحي ، في حديث فيه طول ، إختصرته على المعنى منه .

قال : إني لأسير في يوم حار ، وقت الهاجرة ، وأنا في زلال فيه خلس وثلج ، وإني لأتأذى من شدة الحر ، إذ سمعت صائحاً يصيح : يا ملاح ، صوتاً بعد صوت ، فلما كثر عليَّ ذلك ، رفعت ستر الزلال ، فإذا بشيخ حاسر الرأس ، حافي القدمين على الشط ، فقلت للملاح : ويحك أجبه ؛ فقال له الملاح : ما شأنك ؟ قال : ويحك ، إن الشمس أحرقت جلدي ، فاحملني إلى جمل ، فإن الله

يحسن ثواب صاحبك ، وتستوجب أنت شكراً ؛ قال : فامتنع عليه الملاح وانتهره ؛ قلت : ويحك ، تقدم فاحمله ؛ قال : فمال إليه فحمله ، فلما أتى وقت الغداء تذممت ، فقلت : إدعوا هذا الشيخ ، فدعاه ، فأجلسه معي على المائدة ، فأكل أكل أديب ، غير أن الجوع بين فيه ، فلما رفع الطعام ، أردت منه أن يقوم ، كما يقوم العامة عن موائد الخاصة ، فلم يفعل ، فلما إن غسلت يدي ، كرهت أن يزهم مجلسي بزهومته ، فأشرت إلى الغلام أن يجيئه بوضوء فيتوضأ ، ثم أردت أن يقوم فلم يقم ، فتناومت ؛ على أن يقوم فلم يقم فاستحمقته ، وقلت : أي شيء صناعتك ؟ قال : حائك ـ أعزك الله ـ فقلت : هذا عقل الحاكة ؛ قال : فتناومت ثانية ، فلما تبين ذلك مني ، قال : أنت ، أي شيء تعمل ـ جُعِلت فِداك ـ ؟ قال : فقلت : بلية نزلت ، أنا جنيتها ، ألا ترى غلماني ؟ ألا ترى زلالي ؟ ألا ترى دوابي ؟ ألا ترى [1] أن مثلي لا يُقال له : ما صناعتك ؟ ثم قلت : مسئلة لابد من جوابها ، فقلت على التبرم : كاتب ـ أصلحك الله ـ قال : فأي الكُتاب أنت ، فإنهم خمسة ؟ قال : فوردت عليَّ كلمة أنكرتها من مثله ، قلت : سمهم ؟ قال : كاتب خراج : يحتاج أن يكون عَالِماً بالمساحة ، والطسوف ، خبير بالحساب والمقاسمات ؛ وكاتب رسائل : يحتاج أن يكون عارفاً

(١) في نسخة أخرى : ألم تعلم .

بالأصول ، والفروع ، والقصور ، حاذقاً بالإعجاز ، والصدور ، والفتوح ، والعهود ؛ وكاتب حاكم : يحتاج أن يكون عارفاً بالأحكام ، حافظاً للشروط ، حاذقاً باختلاف الناس في الأموال والفروج ؛ وكاتب جُند : يحتاج أن يكون عَالِماً بشيآت الدواب ، وحكي الرجال ؛ وكاتب معونة : يحتاج أن يكون عَالِماً بالقصاص ، والجراحات ، والحدود ؛ قال : وكنت مُضطجعاً ، فاستويت قاعداً ، مُتعجباً من قوله ، فقلت : أنا كاتب رسائل ؛ فقال : أخ من إخوانك ، واجب الحق عليك ، تزوجت أمه ، كيف تهنيه ؟ قال : ففكرت ساعة ، فلم يتجه لي شيء ، فقلت : والله لا أدرى للتهنئة وجهاً في ذلك ، وإنه لبالمصائب أشبه ؛ قال : فاكتب إليه وعزه ؛ قال : ففكرت ملياً ، فلم يتجه لي شيء ، فقلت : أقلني كاتب خراج ؛ قال : وجه بك أمير المؤمنين إلى ناحية من عمله ، وأمرك بالعدل ، فخرجت وقدمت الناحية ، ووجهت عُمالك ، وأمرتهم بالعدل ، فخرجوا ، وقدم إليك أهل ناحية يشكون عُمالك ، فبعثت في أشخاصهم ، وسألتهم عن ذلك ، فحلفوا بالله لقد أنصفوهم ، فحملك العدل إلى أن خرجت بنفسك ، فوقفك على قراح خطه ، قائل : كيف تمسحه : ففكرت ساعة ، فلم يتجه لي شيء ، فتجاسرت وقلت : آخذ وسطه وطوله ، فأضربه فيه ؛ قال : يختلف عليك العطوف ؛ فقلت : آخذ طوله كله ، وعرضه من

ثلاثة مواضع ؛ قال : إن طرفيه محدودان ، وفي تحديدهما تقوس ؛ فأعياني ذلك ، فقلت : أنا كاتب قاض ؛ قال : فإن رجلاً خلف إمرأة حُرة حاملاً ، وسرية حاملاً ، فولدتا في ليلة واحدة ، فولدت الحُرة جارية ، وولدت السرية غُلاماً ، فحملت الحُره الغيرة ، أن وضعت البنت في مهد السرية ، وأخذت الإبن ، فتحاكمتا إلى صاحبك وأنت بالحضرة ، ما كان يقضي بينهما بذلك ؟ قلت : لا أعلم ذلك - في نُسخة : لا عِلم لي بذلك - ؛ أنا كاتب جُند ؛ قال : الله أكبر ، تقدم إليك رجُلان من عسكرك ، إسمهما واحد ، هذا مشقوق الشفة العُليا ، وهذا مشقوق الشفة السفلى ، كيف تحليهما ؟ قال : أكتب أحمد الأعلم ، وأحمد الأعلم ؛ قال : يأخذ هذا رزق هذا ، ويأخذ هذا رزق هذا ؛ قال : قلت : أنا كتب شرطة ؛ قال : فتقدم إليك رجُلان ، قد شج أحدهما موضحة ، فوثب على من شجه فشجه مأمومة ، كم تجعل بينهما من الإبل ؟ قلت : لا أدري ؛ قال : فلست بكاتب شرطة ؛ فقلت له : فسر لي ما قلت ؟

قال : أما الرجل الذي تزوجت أمه : فإن كتب إليك يشكوا ذلك ، كتبت إليه أن الأقدار تجري بغير محاب المخلوقين ، فالموت في عافيه ، خير من شانية في ملك ، والله يختار للعبد ، فخار الله لك في قبضها ، فإن القبور أكرم الأكفا ؛ وأما القراح : فتمسح

إعوجاجه كم يكون قبضته ، ثم تضرب بعضها في بعض ، فإذا إستوى في يدك عقد تعرفه ، رجعت إلى المستوى ضربته فيه ؛ وأما الحُرة والسرية : ففيه ، عن عليّ بن أبي طالب ، قال : يوزن لبنهما ، فإيهما كان لبنها أخف ، كانت البنت لها ؛ وأما الجُنديان : فتكتب : هذا أحمد الأعلم ، وهذا أحمد الأفلج ؛ قال عنترة :

وحليل غانيةٍ تركت مجدلاً   تمكوا فريصته كشدق الأعلم

قال أبو عمرو : الأعلم : مشقوق الشفة العُليا ، والأفلج : مشقوق الشفة السفلى ؛ رجل أعلم وأفلج ؛ وإمرأة علما وفلجاء ، وكل بعيرِ أعلم ؛ وقال في الأفلج :

وعنترة الفلجاء جاء ملاماً   كأنك فند من عماية أسود

عماية : إسم جبل بالبحرين ؛ وفند : قطعة من الجبل ؛ وإنما قال : الفلجاء ، لتأنيث إسمه .

وأما الشجتان : ففي المأمومة : ثلاث وثلاثون وثلث من الإبل ، وفي الموضحة : خمس من الإبل ، فيرد ثمانية وعشرين وثلثا من الإبل ؛ قال : قلت له : ألست زعمت إنك حائك ؟ قال : نعم ، أنا حائك كلام ؛ فإذا الرجل قد أدبه الزمان ، وأحكمه العِلم ، فاستصحبته فصحبني ، وعوضته منافع كثيرة ؛ وأنشد :

ما مر بُؤس ولا نعيم — إلاَّ ولي فيهما نصيب
قد ذُقت بُؤساً وذُقت مُراً — كذاك طَعم الفتى ضروب
نوائب الدهر أدبتني — وإنما يُوعظ الأديب

ثم ذكرته للمُعتصم ، وحدثته بحديثه ، فأعجب به وقربه ، وولاه أعمالاً جليلة ، وأصاب خيراً .

وقيل : جاء أعرابي إلى المأمُون ليستمحنه ، فأراد إمتحانه ، فقال : يا أعرابي ، كم عليك من صلاة ؟ فقال :

إن الصلاة أربع فأربع — ثم ثلاث بعدهن أربع
ثم صلاة الفجر لا تضيع

ثم قال للمأمُون : يا أمير المُؤمنين ، كم فيك من كافٍ ؟ فلم يدر المأمُون ، فقال : أخبرني يا أعرابي ؛ فقال : فيك : الكاهل ، والكتد ، والكتف ، والكشح ، والكبد ، والكلية ، والكادة ، والكرسوع ، والكف ، والكعب ؛ فوصله وأحسن جائزته .

الكاهل : مُقدم الرأس ، مما يلي العُنق ، وهو الثلث الأعلى ، فيه ست فقارات ؛ والكتد : ما بين الكشح إلى منتصف الكاهل من الظهر ، فإذا أشرف ذلك الموضع من الظهر ، فهو : كتد ؛ والكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع ، وهما كشحان ، وهو

موضع السيف من المقلد ؛ والكتف : عظم عريض خلف المنكب (يؤنث) ؛ والكف : معروفة (مؤنثة) ؛ يقول العرب : هذه كف ؛ والكبد : معروفة (مؤنثة) ؛ والكلية : معروفة ، ولكل حيوان كليتان ، وهما لحمتان حمراوان لازقتان بعظم الصلب عند الخاصرتين ، وتسميان في الطب : زرع الولد ؛ والكرسوع : حرف الزند الذي يلي الخنصر الثاني عند الرسغ ؛ والكادة : من الفخذ ، موضع الكي من جاعرتي الحمار ؛ والكعب : ما أشرف من الإنسان فوق رسغه عند قدمه ؛ والكعب : العظم ؛ والكعب : لكل ذي أربع .

الباب الخامس عشر :
في الدرس والمذاكرة والمراء والمناظرة

الدرس : درس الكِتاب المُتحفظ ؛ يقول : دارست فلاناً كِتابي لكي أحفظه ؛ والفعل : درس فلان دراسة ؛ وقول الله (سُبحانه وتعالى) : ﴿ وليقولوا درست ﴾ (١) ، أي : تعلمت ذلك من يهود ، ودرست كُتبهم ، وبهذا المعنى قد قرأ أهل المدينة ، والكوفة ، وقرأ قتادة : ﴿ درست ﴾ ، بلفظ ما لم يُسم فاعله ، وقرأها ابن عباس : ﴿ دارست ﴾ ، (بألِف) قرأت وتعلمت ، وبها قرأ مجاهد ، وهي قراءة أبي عمرو ؛ وقرأ الحسن : ﴿ درست ﴾ ، بمعنى : أخلقت ، أي : هذا الأمر قد درس من قدمه ، وقيل : في قول الله (عزّ وجلّ) : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ (٢) ، أي : بدرس ، والله أعلم .

وقد قيل : لا يُدرك العِلم من لا يُطيل درسه ، ولا يكد نفسه ؛ وكثرة الدرس : كده ؛ ولا يصبر عليه إلاّ من يرى العِلم مغنماً ، والجهالة مغرماً ؛ وربما إستثقل المُتعلم الدرس والحفظ ، واتكل على الرجوع إلى الكُتب ، فهو كمن أطلق ما صاده ، ثقة بالقدرة عليه ، فأعقبه الثقة خجلاً وندماً ؛ والعرب تقول : حرف في قلبك ،

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٥ .
(٢) سورة مريم : ١٢ .

خير من ألف في كُتبك ؛ ويُقال : حرف في تامُورك ، خير من ألف في دفترك ؛ والتامُور ـ في هذا الموضع ـ : القلب ؛ والتامُورة : الغرفة .

قال الأعشى : وإذا لها تامورة مرفوعة لشرابها ؛ والتامُور : الدم ؛ ولها تفسير آخر ، وقد ذكرته في كِتاب : " الإبانة " .

وقالوا : لا خير في عِلم لا يعبر معك الوادي ، ولا يُعمر بك النادي ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

إسمع وعي القول وكن مُتقناً ... للعِلم حِفظاً يا ابن مداد
لا خير في عِلم إذا لم يزن ... صاحبه في المحفل النادي
ولا إذا لم يعه صدره ... فيقطع الجُزء من الوادي

وللشافعي :

عِلمي معي حيثما يممت يتبعني ... بطني [1] وعاء له لا بطن صندوق
إن كنت في البيت كان العِلم فيه معي ... أو كنت في السوق كان العِلم في السوق

وقال المُنذر بن الجارود ، لإبنٍ له يُوصيه : إعمل النظر في الأدب ليلاً ، فإن القلب في النهار طائر ، وهو بالليل ساكن ، فكلما أوعيته شيئاً عقله .

---

(١) في نسخة أخرى : قلبي .

ومن غير الكِتاب : قيل : انظروا في العِلم بالليل ، فإن القلب بالنهار طائر ، وبالليل ساكر ، أي : ساكن .

وقيل لبعضهم : لم أختير القدوة للدرس ؟ فقال : لأن العقول أجم لقرب عهده بالصمت ، وبُعد جوارحه من المعاصي .

وينبغي للراغب في العِلم ، إحتمال تعب النفس في كثرة الدرس ، فإن نيل العظيم بأمر عظيم .

وقال بعض الحُكماء : أكمل الراحة ما كانت عن كد التعب ، وأعز العِلم ما كان في ذل الطلب .

وقال بعضهم : حاربوا القلوب بالذِكر ، فإن القلوب تصدأ ، كما يصدأ الحديد .

وقال بعض الحُكماء : من أكثر المُذاكرة بالعِلم ، لم ينسى ما عَلِم ، واستفاد ما لم يعلم ؛ قال الشاعر :

إذا لم يُذاكر ذو العُلوم بعِلمه ولم يستفد عِلماً نسي ما تعلما
فكم جامع للكُتب في كل مذهب يزيد مع الأيام في جمعها غما

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " لقحوا عقولكم بالمُذاكرة ، واستعينوا على أموركم بالمُشاورة " .

وقال بعض العُلماء : لا تخل قلبك من المُذاكرة ، فيعود عقيماً ، ولا تعف قلبك من المُناظرة ، فيصير سقيماً ؛ والإستذكار : الدراسة للحفظ .

قال أبو عليّ : هيجوا العِلم يتهيج ؛ وينبغي أن يُراح القلب في الأوقات ، فإن الإكثار يُورث الملل .

وقد روي عن عليّ ، أنه قال : أن هذه القلوب تمل ، كما تمل الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة .

وعن عمرو بن العاص ، إنه قال : أريحوا هذه القلوب ، تعي الحكمة ، فإنها تمل كما تمل الأبدان .

وقال أبو الدرداء : إني لأستجم ، أي : أجمع في قلبي وأريحه .

وعن ابن عباس ، إنه كان يقول : إذا فاض من عنده في الحديث بعد القرآن والتفسير أخمضوا ، أي : خوضوا في الشعر ، وغير ذلك ، وهذا تشبيه منه بفعل الإبل في الأكل ، فإن الإبل إذا أكلت الحمض ، إستعانت به على أكل غيره ؛ وقال الراعي :

كلي الحمض بعد المقحمين ورازمي   إلى قابل ثم أعذري بعد قابل

فمعنى رازمي : إخلطي بعضاً ببعض ؛ ويكره لطالب الحفظ أكل الحموضات ، فإنها جميعاً تضر بالحفظ .

قال الزهري : ما أكلت تفاحاً ولا خلاً ، مُذ عالجت الحفظ .

وقال عليّ : عشرة أشياء تُورث النسيان : البول في الماء الراكد ، ورمي القملة حية ، وأكل سور الفار ، وأكل الكُزبرة الرطبة ، وأكل التفاحة الحماضة ، والمشي بين الحملين المقطورين ، وقراءة ألواح المقابر ، والحجامة في النقرة ، وكثرة النهم ؛ النهم : الولع بالأكل والإكثار .

والمراء ، والإمتراء ، والتماري ، والمُمارأة : كله واحد ؛ والمراء مكروه في بعض المواطن ، لا في كلها ؛ قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ﴾ (١) ، يقول : لا تنازع في أمرهم : ﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحدا ﴾ (١) ، (ألفاء والميم) لأصحاب الكهف ، (والهاء والميم) لليهود ، يعني : أهل نجران ؛ يقول لا تسأل عن أمر الفتية أحداً ؛ فإن قالوا : هم كذا وكذا ؛ فقل : ليس كذلك .

وقال الضبي : ﴿ فلا تمار فيهم ﴾ ، أي : لا تجادل فيهم ، لأنك غير شاك ، إذ كنت قد عرفتك أمرهم ؛ وفي الآية دلالة على أن

---

(١) سورة الكهف : ٢٢ .

ليس كل المراء مذمُوماً ، فإن المراء والجدال بالحق جائزان .

وعن مالك بن أنس ، قال : المراء في العِلم ، يقسي القلب ، ويُورث الضغائن .

وقال عبد الله : المراء لا تعقل حكمته ، ولا تؤمن فتنته .

وعن إبراهيم النخعي ، قال : المراء بدعة في الدِّين ، فمن شاء فليدخلها .

وقال أبو الدرداء : كفاك إثماً أن لاتزال مُمارياً ، وكفى بك ظلماً أن لاتزال مُخاصماً .

وقال مُسلم بن سيار : إياكم والمراء ، فإنه ساعة جهل العَالِم فيها ، يبتغي الشيطان زلته ؛ وقال محمد بن مداد :

ألا لا تمار ألا لا تمار ولو كان وفق الهُدى في يديكا
فإن المراء يزل الحليم وربتما كان حتفاً عليكا

وقال وهب : دع المراء والجدال ،فإنك لا تعجز إحدى رجُلين : رجُل هو أعلم منك ، فكيف تماري من هو أعلم منك ؛ ورجل أنت أعلم منه ، فكيف تماري وتجادل من أنت أعلم منه ولا يُطيعك ، فاقطع ذلك عنه .

وقال النبي (ﷺ) : " لا تعلموا العِلم لتماروا به السُفهاء ، ولا تعلموا العِلم لتجادلوا به العُلماء ، فمن فعل ذلك منكم فالنار " .

وليس المُماري به ، والمُناظر فيه ، الطالب للصواب ، ولكنه القاصد لدفع ما يرد عليه من باطل أو حق ؛ وقد جاء عن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " لا تجادل إلاّ مُنافق ، أو مُرتاب " ؛ وأنشد الرياسي ، لمُصعب بن عبد الله :

أجادل كل مُعترض ظنين ... فاجعل دينه عرضاً لديني
وأترك ما علمت لرأي عين ... وليس الرأي كالعِلم اليقين
وما أنا والخصومة وهو شيء ... تصرف في الشمال وفي اليمين
فأما ما علمت فقد كفاني ... وأما ما جهلت فجنبوني

وقال عبد الله بن عُمر :

يا طالب العِلم لا لا تكثر الجدلا ... في غير حق وجانب عقلك الزللا
إن المُراء قبيحٌ عند ذي العُقلا ... فلا تمار سفيهاً من ذوي الجهلا
وصن مقالك عنهم إنهم همجٌ ... لا يرعوون كأنعامٍ مضت هملا
ولا تجادل أهل العِلم مُمتحناً ... في غير معرفةٍ توليهم الجدلا
إن كُنت ذا طالبٍ للعِلم مُجتهداً ... فلا تمار به بل أحسن العملا

<u>المُناظرة :</u> والمُناظرة : أن تناظر أخاك في كل أمر مُشكل منكما ،

ينظر فيما يأتي به فيه ، وهو المُجادلة ؛ قال الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) : ﴿ ولا جدال في الحج ﴾ [1] ، قال الكلبي : هو المراء ؛ وقال الحسن : هو المراء الذي يكون فيه تكذيب الرجل صاحبه ؛ فأما مُنازعة العُلماء ، فيما يتذاكرون من العِلم ، فلا بأس به ؛ وقال قتادة : ﴿ ولا جدال ﴾ ، أي : ولا سباب ؛ وقال : منه : جادل ، يُجادل ، مُجادلة ، وجدالاً ؛ وقرأ : ﴿ ولا جدال ﴾ ؛ فمن قرأ : ﴿ ولا جدال ﴾ ، أي : لا شك فيه أنه لازم له في الحجة ؛ ومن قرأ : ﴿ ولا جدال ﴾ ، فإنه من المُجادلة ؛ يقول : أنه لجدل شديد الجدل ، أي : خصم شديد المُخاصمة ، مُجادل مجدال ، مُخاصم مخصام ، والفعل : جادل ، يُجادل ، مُجادلة ؛ والجدل (مجزوم) : هو الصرع ؛ يقول : جدلته فانجدل صريعاً فهو مجدول ؛ وأكثر ما يُقال بالتشديد : جدَّلته تجديلاً .

<u>الجدل :</u> والجدل (محرك) : هو تردد الكلام بين إثنين ، ولا ثبات فيما يروم كل واحد منهما إثباته ، ودفع ما يروم دفعه ؛ وقيل : هو دفع الخصم بحجة أو شبهة ، وهو مأخوذ من إنفاد الشيء وإحكامه ؛ تقول العرب : درع مجدولة وجدلاً ، وحبل مجدول ، إذا كان مُحكم الفتل ؛ يُقال : جدلته فانجدل ، وأصله من الجدالة ، وهي الأرض ؛ وأنشد أبو زيد :

---

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .

قد أركب الآلة بعد الآلة وأترك العاجز بالجدالة

أي : بالأرض ؛ وقال أبو جعفر : واترك العاجز بالجدالة ، واترك الأمر العاجز ، أي : آخذ بالحزم وأترك العجز .

وقيل : إن الجدل هو الصراع على الأرض ، فشبه المُتجادلان بالمُتصارعين ، لما يروم كل واحد منهما من كسر مذهب صاحبه ، بالحجة مرة ، وبالسبة أخرى ؛ قال عنترة :

وحليل غانية تركت مجدَّلاً تمكوا فريصته كشدق الأعلم

قوله : [مجدَّلاً] ، يعني : مصروعاً ، وأصله : لصق بالجدالة ، وهي الأرض ؛ وقوله : [وحليل غانية] ، أي : زوج غانية ، وهي المُستغنية بزوجها ، هذا أصله ؛ ثم قيل للشابة : غانية ، ذات زوج كانت ، أو غير ذات زوج ؛ و [تمكوا] : تصفر ؛ والمكا : الصفير ؛ والفريصة : المُضغة التي في مرجع الكتف ، ترعد من الدابة إذا فزع ؛ وإنما يصفر الجرح ، إذا ذهب الدم كله ، لأنه يخرج منه ريح بعد الدم ؛ و [الأعلم] : الجمل ، وقد مر تفسيره .

والجدال : هو الحجاج ؛ وقال الله (سبحانه وتعالى) : ﴿ يجادلنا في قوم

لوط ﴾ [١] ، أي : يُحاجنا ؛ وقوله (عز وجل) : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ [٢] ؛ وقوله (جل جلاله) : ﴿ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ﴾ [٣] .

والتنازع في الجدال : إدعاء كل فريق أن الحق في يده ، لينزعه من الآخر ، ثم جعل كل إختلاف تنازعاً ، وكره من كره الجدال ، واحتج فيه بإخبار عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وغيره .

روي أبو أمامة ، عنه (صلى الله عليه وسلم) ، أنه قال : " ما ضل قوم بعد هديً كانوا عليه ، إلاَّ أعطوا الجدل " .

وعنه (صلى الله عليه وسلم) ، أنه قال : " ما كرهت أمة العمل ، إلاَّ أخذت في الجدل " .

وعن ابن عُمر ، قال : ما قصرت أمة عن العمل ، إلاَّ أخذت في الجدل .

وأجازه من أجازه ، إذا قصد المُجادل به إظهار الحق ، وإبانه العلة ، وإيضاح الحجة ؛ قال الله (عز وجل) : ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [٤] .

---

(١) سورة هـود : ٧٤ .
(٢) سورة العنكبوت : ٤٦ .
(٣) سورة الحـج : ٦٨ .
(٤) سورة النحل : ١٢٥ .

وإنما يكره جدال عبث وتلبيس ، ما يُؤدى إلــى جـهل وسـفه ؛ فأما غير ذلك ، فما زالت العُلماء تستدعى من العُلماء فوائد العُلوم بالمُجادلة .

<u>الجد :</u> قال : الجد ، هو اللفظ الوجيز المُحيط بالمعنى .

وقيل : أنــه اللفـظ الجامـع المانـع ، ومعنـاه : أن يـجمع جمـيع محـدوده ، ويمنع غيره من مُشاركته في حُكمه .

<u>الدليل :</u> والدليل : هو الفاعل لله تعالى وبه للدلالة .

وقيل : أنه المُستدل ؛ وقيل : هو الدال على الشيء ؛ وهو دال ودليل ، كما يُقال : عَالِم وعَلِيم ، وقادر وقدير .

والإستدلال : طلب الدلالة على المعنى .

والدلالة : مصدر قولك : دللت ، غير أنها تقام مقام الدليل فـي العبارة ، فيُقال : دلالتي على كذا ؛ وتقول : دليلي عليه ؛ وقد يُقام المصدر مقام الفعل الدائم ، كقولـك : رجـل صـوام ، أي : صـائم ؛ وزوار ، أي : زائر ؛ والدلالة : مصدر الدليل ؛ والإسـم : الدليـل ؛ يُقال : إقبلوا الحق ودليلاه ؛ واقبلوا هُدى الله ودليـلاه ؛ وكـل مـن إستدللت به فهو دليلك ؛ والدليل : هو حجة الله تعالى على الخلق .

الحجة : والحجة : هي الإحتجاج التي يحتج بها الإنسان على خصمه ، وهو فعله ؛ والحجة مُقدمة صادقة ، لها شاهدة على الحقيقة ، وهي مأخوذة من القصد ، ومنه : حج يحج ، إذا قصد ؛ ويُقال للطريق : القاصد المُستقيم محجة ، فكان الحجة مأخوذة من المحجة ، وهي : الإستقامة في الطريق الماضي إلى الغرض .

وكل حجة دلالة ، وليس كل دلالة حجة ، لأن إرشاد المُرشد إلى السبيل ، دلالة السبيل عليه ، وليس بحجة عليه ؛ والإسم : الدليل على المُسمى ، وليس بحجة عليه ؛ والحجة في اللغة : الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة ؛ والفعل : حاججته ، فحججته ، واحتججت عليه بكذا ؛ والحجة : جمعها حجج ، والحجاج المصدر ؛ وجمع الحجاج : أحجة ؛ وحججت الجرح : سبرته لأعرف غوره ؛ قال :

تحج مأمُومة في قعرها لجب قاس الطبيب مداها كالمعاريد

والمحجة : الطريق ؛ قال :

ألا أبلغا عني حريثاً رسالة فإنك عن قصد المحجة أنكب

البيان : والبيان : هو إخراج الشيء من حيز الإشكال إلى حيز الوضوح والجلي .

العلة : والعلة : هي المعنى الذي يطلب منه الدليل .

وقيل : هي النكتة المدركة بالسير والإنتزاع ، وهي مأخوذة من التكرار والدوام ، وذلك إنهم يسمون تكرار السقي علة (في المصدر) ؛ وعلل (في الإسم) ، وكأن اللغة التي يُوجد الحُكم بوجودها ، ويدوم بدوامها ، سُميت علة لهذا المعنى ؛ والمعلول مُختلف فيه .

وقال قوم : هو الحُكم الذي جلبته العلة ؛ وقال قوم : هو الاصل والفرع اللذان توجد العلة فيهما دون الحُكم .

النظر : النظر : هو تأمل حال المنظور فيه ، على الوجه المخصوص ، وهو الإستدلال على حقيقة المطلوب ، وهو في معنى الجدل ، غير أن النظر قد تفرد به الناظر ؛ والجدل : لا يُطلق إلاّ على ما يجري بين نفسين .

الإجتهاد : والإجتهاد : هو بذل المجهود في طلب حُكم الحادثة .

زيادة في الحجة : والحجة : قد تسمى حجة ، ولو كانت باطلة ؛ قال الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم ﴾ (1) ؛ وقيل : المعنى : ﴿ لئلا يكون للناس ﴾ ،

---

(1) سورة البقرة : ١٥٠ .

عليهم ﴿ حجة إلا ﴾ ، من ظلم باحتجاجه ، فيما قد وضح له ، كما يقول : ما لك عليَّ حجة إلاَّ الظلم ، وإلاَّ أن تظلمني ، وإنما المعنى : ما لك عليَّ حجة البتة ، ولكنك تظلمني ؛ وما لك عليَّ حجة إلاَّ الظلم ؛ وإنما سُميَّ الظلم ها هنا : حجة ، لأن المُحتج به سماه : حجة ، وحجته داحضة عند الله ؛ قال الله (عز وجل) : ﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ [1] ، فقد سُميت حجة ، إلاَّ أنها حجة داحضة مُبطلة ، وليست بحجة مُوجبة حقاً ، كما يقول : قلت قولاً باطلاً ؛ وصليت صلاة فاسدة ؛ وعملت عملاً رديأ ؛ فقد سُميَّ : قولاً ؛ وسُميت : صلاة ؛ وسُميَّ : عملاً ، وإن كان كله باطلاً غير صحيح .

زيادة في العلة : أختلف في العلة ؛ قال قوم : إنها الوصف الجالب للحُكم ، أو المنزلة ؛ وقيل : الوصف الذي يحدثه حدث الحُكم ؛ وقيل : الوصف للحُكم ؛ وقيل : العلة علامة الحُكم ؛ وقيل : رباطة ؛ وقيل : نكتته ؛ وقيل : هو معنى الحُكم ، ولا يجوز أن يتقدم الحُكم على العلة ، لأن الحُكم صحة للعلة ومُوجبها ، كما لا يتقدم جلد الزناة على الزنا ؛ والعلة غير المُعتل ، وغير المعلول ، والأصل والفرع .

زيادة في الدليل : والدليل في كلام العرب : هو المُرشد إلى

---

(١) سورة الشورى : ١٦ .

المطلوب ، والمهدي إلى المُغيبات ، فكل ما أدى إلى عِلم شيء : فهو دليله ، وإن كانت أسباب الدلالة مُختلفة .

الوحي : والوحي في كلام العرب : هو إيصال المعنى إلى الفهم بالشيء اللطيف ، يعني : من جهة لطيفة ؛ والوحي : على وجوه كثيرة ؛ ويُقال : وحي ، وأوحى .

قال العجاج : وحي لها القرار فاستقرت ؛ أراد : وحي ، وأوحى لها ، أي : أوحى إليها ؛ والإيحاء : الإشارة ؛ وذكر أن بعضهم قرأ قوله (عز وجل) : ﴿ قل أوحي إليَّ ﴾ (١) ، بمعنى : وحي ، لما إنضمت الواو وهُمزت ؛ والوحي : إشارة ، كقوله (سبحانه وتعالى) : ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ﴾ (٢) ، إنما هو إشارة إليهم ، لأن زكريا (عليه السلام) ، كان مُنع من الكلام ، علامة للولد ؛ وقال علقمة بن عبدة ، في الظليم وأنثاه :

يُوحي إليها بإنقاض ونقنقه كما تراطن في أفدانها الروم

الإنقاض ، والنقنقة : من أصوات النعام ؛ والتراطن : ما يكون بين الرجل وصاحبه ، لا يفهمه غيرهما ؛ والأفدان : الحصون ؛ وإحدها : فدن .

---

(١) سورة الجن : ١ .
(٢) سورة مريم : ١١ .

الحقائق : والحقائق في الكلام ، وكذلك الحدود ؛ وحد الشيء ، معناه : ألا يرى أن وصف الأسود بأنه أسود ، هو الوصف له بالسواد ، وكذلك حقيقة الوصف له بأنه أسود ، هو الوصف له بالسواد ؛ فقد جمع الكلام في الحقائق ، والمعاني ، والحدود ، إلى شيء واحد ؛ وكذلك ما كان المُجاز في الكلام دون المعنى ؛ والحقيقة : ما تصير إليه حقيقة الأمر ووجوبه ، ولا حقيقة للحقيقة ، إذ الحقائق في الأوصاف والعبارات ، لا في المعاني .

المُجاز : المُجاز : طرف القول ومأخذه ، وقد جاز في القرآن به والعربية ، وأجمع الفصحاء على القول به ، إلاّ ما خالف فيه ابن داود الأصفهاني ، فقال : لا مُجاز في القرآن ؛ ولم يتبعه على قوله هذا أحد .

المُحال : والمُحال : ما لم يكن وجوده ، كالحركة والسكون ، في زمان واحد ، وكالوجود والعدم في شخص واحد ، في زمان واحد ؛ والمُحال من الكلام : ما حُول عن جهته .

الباطل : الباطل : ما لم يحكم له بالجواز ، وهو - أيضاً - ما لم يحتسب به لفاعله ، ولا يحكم له به ؛ - وأيضا - ما لم يحتسب به زوال الشيء بعد ثبوته ؛ بطل الشيء يبطل بطلاً : إذا ذهب باطلاً ؛ والباطل : نقيض الحق ؛ والبطل : مصدر الباطل ؛ وقال النابغة :

لعمري وما عُمري عليَّ بهين　　لقد نطقت بُطلاً عليَّ الأقارع

وأبطلته : جعلته باطلاً ؛ وأبطل فلان : إذا جاء بباطل ، وإدعى غير الحق .

فصل

وكل دعوى عُريت من البراهين ، وصح بطلانها ، وكل من يُجاهل فيما يستدرك من طريق اللغة ، لم يكن في حد نظر ، لأنه لا سبيل إلى إقامة الحجة تأدية العقول ، وإذا تعارض الآثر والنظر ، كان الحُكم للآثر ، وسقط إعتبار النظر ، وإذا جاء النص بطل القياس .

والقياس : هو حمل الفرغ على الأصل بنكتة الحُكم ؛ وقيل : هو الجمع بين المُشتبهين لإستخراج الحُكم الذي يشهد له كل واحد منهما .

<u>الإجماع :</u> والإجماع : حجة تقطع العذر ؛ والإجماع : توقيف ؛ وخرق الإجماع : خروق ؛ والخرق : نقيض الرفق ؛ وصاحبه أخرق ؛ وفي الحديث : " ما دخل الرفق شيئاً إلاَّ زانه ، ولا دخل الخرق شيئاً إلاَّ شانه " ؛ والرفق لين الجانب ، ولطافة العقل ؛ قال الشاعر :

الرفق يمنُ والإناة سعادة فاستأن في رفقٍ تلاق نجاحا

الإناة : الحِلم ؛ واستأن : إستفعل ، من التأني ؛ والتأني : التثبيت في الأمر والقول ؛ وقوله : [إلاّ شانه] ، الشين نقيض الزين ، والفعل منه : يشين شيناً .

والقول بالإجماع واجب ، وهو إجماع الصحابة ، فإذا أجمعوا على شيء ، وجب التسليم لهم ، فإذا تنازعوا ، وجب الرجوع إلى الكِتاب والسُنَة ؛ والإجماع : أحد وجوه الحق .

قال النبي (ﷺ) : " أمتي لا تجتمع على ضلال " ؛ والإجماع : جمع جمع ، وهو قبض الرجل أصابعة ، وشده إياها للكز ؛ ويُقال : ضربه بجمع كفه ، وجمع كفيه : إذا جمع أصابعه ، ثم لكزه ؛ ويُقال : لكزه ، ووكزه ، ونهزه ، وبهزه ، ولهزه ، ومجزه ؛ والعامة تقول : نجزه .

وقال أبو عُبيدة : لا يُقال : لكزه ، وإنما يُقال : وكزه ، وبهزه ؛ وفي قراءة ابن مسعود ، لقول الله (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿ فوكزه مُوسَى فقضى عليه ﴾ (١) .

وينقسم الإجماع على قسمين : أحدهما : إجماع الكافة من

---

(١) سورة القصص : ١٥ .

الخاصة والعامة ، وهو مثل أجماعهم على يوم الجُمعة ، إنه اليوم الذي بين الخميس والسبت ؛ ومثل أجماعهم على شهر رمضان ، ووجوب صيامه ، وإنه الشهر الذي بين شعبان وشوال ؛ ومثل إجماعهم على الصلوات ، وأعدادها ، وركعاتها ؛ والآخر : إجماع الخاصة ، وهو مثل إجماعهم على توريث الجد مع الولد ، وتوريث الأخت من الأب ، مع الأخت من الأب والأم .

الترجيح : الترجيح : أن ترجح أحد العلتين على الأخرى ، إحدها : أن يكون أحداهما منصوصاً عليها ، كقول بعض قومنا : أن الحج لا يسقط بالموت ، لأنه دين ، فأشبه ديون الآدميين ، فتكون هذه العلة أولى عليه ، من علة طريق العراقي ، حيث قال : يسقط بالموت ، لأنها عبادة محضة ، فأشبهت الصلاة والصيام ، لأن النبي (ﷺ) قد نص عليها ، فقال في حديث الخثعمية : " فدين الله أحق أن يُقضى " ؛ والثاني : أن يكون أحداهما يشهد لها بعموم الأسم ، فتكون أولى ، وذلك مثل العلة في البر ، أنه مطعوم من جنس ؛ لأن النبي (ﷺ) ، نهى عن بيع الطعام إلاَّ مثلاً بمثل ، أو تكون أحدهما مُنتزعة من أصل أقوى من أصل الأخرى ، أو بنوع من أصل جلي ، والأصل خفي ، أو يتفرع من خبر مُتواتر ، والأخرى من خبر مُنفرد ، أو يُنتزع من أصل مُتفق على

حُكمه ، والآخر من أصل مُتفق عليه بين الخصمين ، وقد خالفهما غيرهما ، وإنما كان ذلك كذلك ، لأن الأصل عِماد العلة ، وكلما كان عمادها أقوى ، كانت بالعمل أولى ، أو يكون أحدهما يُوجد الحُكم بوجودها ، ويرتفع بارتفاعها ، ويُوجد الحُكم بوجود الأخرى ، ولا يُعدم بعدمها ، فتكون التي تجمع الأمرين أولى .

وذلك مثل قول أكثر العُلماء في العبد : إذا زنا كان عليه نصف الحد ، قياساً على الأمة ، بعلة وجود الرق ، فتكون هذه العلة أولى من علة من يقول : أن عليه الحد كاملاً ، لأنه ذكر مُكلف ، قياساً على الحُر ، لأنهما يجمعهما السبب والوجود ؛ أو تكون أحدهما مُقتضبة من أصول الأخرى ، من أصل واحد ، فتكون المُقتضبة من الأصول المُسندة إليها أقوى مقالة .

وعلة العراقي في جواز الوضوء بغير نية ، لأنها طهارة بالماء ، قياساً على إزالة النجاسات .

وعلتنا في المنع منها : أنها عبادة من جنسها ، فرض ونفل ، فكانت هذه العلة أولى من علتهم ، لأنها تستند إلى أصول ، وهي : الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ؛ أو يكون أحدهما : صفة إتفق على ثبوتها ، فتكون أولى ، وذلك مثل علتنا في نجاسة بول ما يُؤكل لحمه ، لأنه مُستحيل في الجوف ، فأشبه بول

الإنسان ، فتكون هذه العلة أولى من علة المالكي ، حيث علل بأنه نافع ، وردت الرخصة في إباحة شربه ، فأشبه اللبن ، لأن علتهم صفة مُختلف فيها ، وتكون أحدهما مُوجبة ، والأخرى مُسقطة ، فتكون الواجبة أولى ، مثل : إعتلالنا بوجوب الزكاة في مال الصبي ، لأنه مال مُسلم ، تام المال ، فأشبه البالغ ، فتكون هذه العلة أولى من علة العراقي ، حيث قال : لا زكاة في ماله ، لأنها عبادة محضة ، قياساً على الصلاة ، لأنها مُوجبة ، وعلته مُسقطة .

<u>بيان الإنقطاع :</u> والإنقطاع : هو العجز عن بلوغ الغرض الذي يقصد ؛ يُقال : إنقطع فلان في سفره ، إذا عجز عن بلوغ القصد الذي رامه ؛ وهو ضربان : أحدهما : من المسؤول ؛ والآخر : من السائل .

فأما المسؤول ، فعلى ثمانية أقسام : أحدهم : العجز عن بين المذهب ؛ والثاني : العجز عن بيان الدلالة ؛ والثالث : العجز عن بيان وجه الدلالة ؛ والرابع : العجز عن بيان الإنفصال عن المُعارضة ؛ والخامس : الجحد للضرورات ؛ والسادس : ما ثبت بدليل ؛ والسابع : الإنتقال من حجة إلى حجة ، وعلة إلى علة ؛ والثامن : أن يخلط كلامه بما لا يفهم .

وإنقطاع السائل ، في ثمانية أقسام : أحدهم : العجز عن الإستخبار عن المذهب ، بأن لا يبين مسألته ؛ والثاني : العجز عن الإستخبار عن الدلالة ؛ والثالث : عن المُطالبة بوجه الدلالة ؛ والرابع : العجز عن المُعارضة ؛ والخامس : العجز عن القدح في الترجيح ؛ والسادس : الإنتقال عما طولب به قبل أن يستوفي الإنفصال ؛ والسابع : الجحد للضرورات ؛ والثامن : أن يخلط كلامه بما لا يفهم ؛ وإنما سُميَّ العجز عن إستتمام ما إبتدأ به المُتكلم إنقطاعاً ، لأن مورده قد وقف قبل بلوغ الغاية التي قصدها ، عجزاً عن الوصول إليها ، فمتى وجد العجز سكناً كان ، أو تخليطاً من السائل والمسؤول ، كان مُنقطعاً عما أراده ، ورام بلوغه ، أو يكون الإنقطاع لإنفصال العِلم بالجدل ، فلا يهتدي إلى وجوه الدلائل والإعتراضات ، ومواضع السؤال في الجواب ، أو يكون لقلة العِلم بالدلائل ، فيكون الذي قصر به قلة عِلمه ، لا ضعف جدله ، أو يكون لشاذ المذهب الذي يبصره ، فلا يلحقه في إنقطاعه العيب ، الذي إذا أورد الشبهة التي إستبدل بها صاحب المقالة ، وإنما يلحقه العيب في نصرته له ، لأن من نصر المذهب الفاسد ، كان مُعيناً آثما عند أهل العِلم ؛ وقد حصل شيء من هذا الباب ، في باب : " الأصول " ، يأتي بعد هذا ، إن شاء الله .

الباب السادس عشر :

في التـقـلـيد

التقليد : هو التصديق ؛ والتقليد على وجهين : أحدهما : لا يجوز مما يكون الحق فيه ، في واحد من أقاويل المُختلفين ، لأن الله تبارك وتعالى ، إذا تعبد بذلك ، أو بشيء منه ، نصب الأدلة عليه .

وقد نهي (عَزَّوَجَلَّ) عن التقليد في ذلك ، وذم من قلد فيه ، كنحو قوله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) : ﴿ إنا وجدنا أباءنا على أمة وإنا على أثارهم مهتدون ﴾ (١) ، ونحو ذلك من القرآن .

والوجه الآخر من التقليد : ما لم ينُص الله تعالى عليه في ظاهره حُكماً يدل عليه ، ولا على مُراده ، ولم ينُص عليه دليلاً من كِتاب ، ولا سُنة ، ولا إجماع من الأمة ، ورد حُكمه إلى العُلماء ، ليجتهدوا في طلب حُكمه ، نحو الأروش ، والقيم ، ومُتعة المُطلقة قبل الدخول بها ، ولم يكن فرض لها صَداقاً ، ونحو ذلك .

فهذا مما يجوز التقليد فيه ، ويرجع فيه إلى قول أهل العِلم فيه ، لعدم النص عليه ، والدليل على حُكمه ، وليس العدل ،

(١) سورة الزخرف : ٢٢ .

والعدلان ، والثلاثة ، وما فوق ذلك ، بحجة في الدِّين ، الذي طريقه طريق العقل ، وإنما العدل حجة ، فيما طريقه طريق السمع ، والخبر ينقله الواحد والأكثر ، والعقل ينفرد بصحة دليله ، والله أعلم .

مسئلة : والتقليد لا يجوز عند وجود الدليل الصحيح ، من الكِتاب ، والسُنة ، وإجماع الأمة ، أو حجة العقل ، وإنما يجب التقليد ، في حال يعدم فيه المُقلد صحة الإستدلال ، من الجهات التي ذكرناها ؛ والدليل من أوجهٍ ، منها : قائم ، فلا معنى للتقليد ، وبالله التوفيق .

مسئلة : وتقليد السائل للفقيه ، فيما يفتيه به ، جائز وواجب عليه تقليد الفقيه ، وقبول قوله ، والعمل به ؛ فإن قيل : لم جاز التقليد في الدِّين ؟ قيل له : الدِّين الذي تعبد الله تعالى به الخلق ، على ضربين : فضرب منه عقلي ، وضرب منه سمعي ؛ فالضرب العقلي : لا يجوز التقليد فيه ، لأن طريقه طريق العقل ، وهو الدليل على ما تعبد الله به عباده ؛ والضرب السمعي : يجوز التقليد فيه ، لأن طريقه الخبر الذي يطرق السمع ، وبه يعلم ما يكون به دليلاً على الخبر ، والرجوع فيه إلى خبر المُقلد ، إذ لا دليل إلاّ هو ، ألا ترى أن المُحتكم إلى الحاكم ، والواصل إليه ، في

حُكم يلزمه ، ويجب عليه الوصول إليه ، فيما يقلده ، ويجب عليه ذلك ، إذا حكم عليه بشيء ، أو حكم له ، أو تقبل فيما يعلم ، أن الحُكم فيه ، وفيما لا يعلم صحته ، حتى لو إمتنع من قبول ذلك ، لوجب على المُسلمين إعانة الحاكم عليه ، وللحاكم أن يجبر ما إمتنع من قبول حُكمه بالحبس ، وللمحكوم عليه أن يلزم نفسه ذلك ، وإن كان لا يعلم أحُكِمَ عليه بحق أو بغيره ، وكذلك المُحتكم إلى الفقيه ، عليه أن يُقلده فيما يحكم عليه ، فيما لا يعلم الحُكم فيه ؛ قال الله (عز وجل) : ﴿ فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ (١) ، ولو كان أمرهم أن يسألوا العُلماء عما لا يعلمون ، وليس عليهم أن يقبلوا منهم ، ولهم مع ذلك مُخالفتهم ، كان أمره إياهم بذلك ، لا معنى له ، ولا فائدة فيه ؛ والله تعالى يتعبد بشيء ويأمر به ، ولا معنى له ، ولا فائدة منه ، والله المُوفق للصواب .

فصل

وعن بعض : أنه ليس في التقليد إلاَّ الأنبياء (عليهم السلام) ؛ فقد قيل : إنهم مُقلدون ، لأنهم لا يقولون على الله تعالى إلاَّ الحق ، والله يعصمهم ويهديهم إلى الحق والعدل ، وليس بعدهم لأحد

(١) سورة النحل : ٤٣ .

تقليداً ، فإذا أحل المسؤول حراماً ، أو حرم حلالاً ، فالسائل والمسؤول هالكان جميعاً ، إذا أتبع السائل المسؤول على ذلك .

مسئلة : قال أبو محمد (رحمه الله) : تقليد الصحابة جائز ، في باب الأحكام ، وما كان طريقه طريق السمع ، ألا ترى إنك تحكي عنهم الإجماع ، وإن كان الخبر منقولاً عن بعضهم ، إذا لم يُنقل عن أحد منهم خلافاً لذلك ، ويجوز تقليد الواحد منهم - أيضاً - إذا قال قولاً ، ولم يُنكر عليه غيره ؛ فإن علِم له مُخالف في الصحابة فلا ؛ وخلاف التابعي عليهم ليس كخلاف بعضهم على بعض ، لأنه ليس في طبقتهم ، لأن الصحابة هم الحجة التامة ، ألا ترى أن الله (عز وجل) ، جعل شهادتهم على الناس ، كشهادة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، بقوله (سبحانه وتعالى) : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ (١) ؛ فلا يجوز وقوع الخطأ في شهادتهم ، إذا كانت شهادتهم كشهادة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وهذا عندي ، والله أعلم .

ومثله ، قول الله (عز وجل) : ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ (٢) ؛ والخارج عن قول

(١) سورة البقرة : ١٤٣ .
(٢) سورة النساء : ١١٥ .

الصحابة ، مُتبع لغير سبيل المُؤمنين .

وروي عن النبي (ﷺ) ، أنـه قـال : " لا تجتمـع أمتـي علـى ضلالـة " ؛ فـإذا لـم يُنقل الإختـلاف فيـهم ، وكـان المنقـول عـن بعضهم ، وترك المُخالفة من الباقين ، فهم حجة الله (جل ذكـره) ، في أرضه على عبـاده ، دل تركـهم علـى المُخالفـة ، القـائل منـهم على تصويبه .

ومن إدعى أن في ضمـائر بعضـهم غـير مـا كـان فـي الظـاهر منهم ، أو تقية منعتهم ، كان مُخطئاً ، وطعن فـي الصحابـة ، أنـهم لـم يقيمـوا الحجـة لله تعـالى ، بالنـهي عـن المُنكـر ، والأمـر بالمعروف .

ولا يجوز التقليد لأهل الإستدلال ، والبحـث ، والإخبـار ، فـي عصر غير الصحابة ، مع الإختـلاف ؛ ويجـوز الإعتراض عليـهم في أدلتهم ، ولا يجوز الإعتراض على الصحابة لما ذكرنـاه .

ويجوز للعامة تقليد العُلماء والإتباع ، فيما لا دليل لـهم ، علـى التفرقة بين أعدل أقاويلهم ، في باب الشرع ، ومـا طريقـه طريـق الإجتهاد ، والإستسلام للعُلماء ، كالإستسلام للحُكام فيما يحكمـون به لهم وعليهم ، فيما لا عِلم لهم بصوابـه ، وكذلـك تقليـد الجـاهل

لمن لا يُتهم في الدين ، والله أعلم .

مسئلة : إختلف فمن أراد أن يحمل دينه ، فقال قوم : يجزيه فقيهان مُجتمعان ؛ وقال قوم : يجزيه واحد بعد واحد ، ولو إجتمعا كان أحوط له ، وهذا فيما يجب به الحُكم من أهل الإحداث ، وأما غير ذلك من ولاية المُسلمين ، والدلالة على الحق ، من الحلال والحرام ، فالواحد يجزيه ، والله أعلم .

في ذم التقليد : قد ذم الله تعالى التقليد ، في غير موضع من الكِتاب ، وجاءت به السُنة بذمه ـ أيضاً ـ من ذلك : أن رجُلاً أصابته شجة ، فأجنب ، وقد إندملت عليه ، فاستفتى له ، فأمر بالغسل ، ولم يروا له عُذراً ، فاغتسل ، فكز فمات ، فأخبر النبي (ﷺ) بذلك ، فقال : قتلوه ، قتلهم الله ؛ وفي هذا الخبر ، دليل على أنه لم يجعل للمُستفتي والمُستفتى له عُذراً ، والله أعلم .

ولعل المُفتي لم يكن أهلاً لذلك ؛ وقد قال الله (عز وجل) : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ (١) ؛ ومعلوم عند ذوي الفهم ، أنهم لم يعبدوهم ، ولكن أمروهم فأطاعوهم ، فهكذا ثبت أنهم قالوا لرسول الله (ﷺ) : إنا لم نعبدهم ، فقال (ﷺ) : " أليس

(١) سورة التوبة : ٣١ .

كانوا يحلون لكم الحرام ، ويُحرمُون عليكم الحلال ، فتتبعوهم ، فتلك عبادتكم لهم " .

وقد روي عن ابن عباس ، أنه تلى هذه الآية ، ثم قال : والله ما عبدوهم ، ولكن أمروهم فأطاعوهم ؛ والذم لا يُلحق إلاَّ من فعل ما ليس له فعله .

الباب السابع عشر :
في ذهاب العِلم وطالبيه
وإنقلاب الأحوال بأهله وزهادة أهل الوقت فيه

كان العِلم في الزمن الأول مطلوباً ، ومرغوباً فيه ، ومحبُوباً ، تشد إليه الرحال ، ويُشترى بالأموال ، وتحتمل فيه شقة الأحوال ، وصعوبة الأهوال ، ويسمُوا به مُتحملوه ، ويُصان له أهلوه ، ويُوقر عليهم منتحلوه ، وكل يُعظمهم تبجيلاً ، ويُقدمهم تفضيلاً ، هذا إذ الناس ناس ، والدِّين قوي ، والحق جلي ، والعِلم أرفع شيء ، فلما ذهبت الأفاضل ، وبقي الأراذل ، وضعف الدِّين ، وأدجا الحق ، وأخوي نجم العِلم ، وبخس جده ، وإكبار نده ، وأقل سعده ، صار العِلم جهلاً ، والتعليم وبالاً ، والحق ضلالاً ، والصحيح مُحالاً ، والرياسة للأسافل ، والتقديم للأراذل ، والسيادة للجُهلاء ، والبلادة للفضلاء ، والعِلم مهجور ، والأدب محقور ، والمال مطلوب ، وصاحبه محبوب ، وبلسانه مُتكلم ، ولمكانه مُتقدم ، فهل تجد في وقتك هذا عَالِماً ، إلاَّ وهو مُستحقر ذليل ، أو جاهلاً إلاَّ وهو مُوقر جليل ، فيا لها حسرة كررت الحسرات ، وفكرة أدرت العبرات ؛ وقال محمد بن مداد في ذلك :

يـا لعيـن كثـيرة العــبرات لإفتقـاد المُحققيــن الثقــاتِ

مات أهـل العُلـوم فـافتقد العِلـم وقــل الطــلاب للخـــيراتِ

وبقينـا نجـولُ فــي سُـفهاءٍ لصحـاب الجمــال والعـبراتِ

فترى الجاهلين في رغد عيشٍ وأهـل العُلـوم فـي حســراتِ

فالفقير الحقير من طلب العِلـم وأهـل الخنـى مـن الســاداتِ

والسفيه الوضيع يستحقر العَالِم حتــى يصــير مثـل القــذاتِ

وكنـوز الأمـوال للجاهل الفـدم وأكــل الغضــرا والطيبــاتِ

وأخـو العِلـم حـائر القلـب فــي ضر معاشٍ يجُول في الطرقـاتِ

فـالأقلاء والأذلاء أهـل العِلـم والعــز للطغــاةِ الدنــاتِ

يـا لدهرٍ قد بدل الحلو مُراً وأتـى بالعجـائب المفـضعاتِ

وقال النبي (ﷺ) : " كأني بالسُفهاء يستهزئون من العُلماء ، وكأني بالخطايا قد كثرت بينكم ، حتى تعرفـوا أهلـها ، كمـا يُعرف الليل من النهار ، فعند ذلـك يظـهر الفُحـش والزنـا ، كـل ذلـك فـي النار " ، صدق رسول الله (ﷺ) ؛ قد إستهزأ السُفهاء بالعُلماء ، وصح كل ما قـال (ﷺ) : العُلمـاء اليـوم أقـلاء أذلاء ، والسُـفهاء أعزاء أجلاء ؛ وقال محمد بن مداد :

العُلمــاء اليــوم فـي ذلــة والأمر والنهي إلى الجاهل

وقال عبد الله بن عُمر في ذلك :

مقـــال لســـيدنا المُصطفـــاءِ أخبر ذوي الوحي والأنبيـاءِ
كـأني بدهرٍ لـــدى السُـفهاءِ يســـتهزئون مـــن العُلمـــاءِ
وتظـــهر فحشـــاؤهم بينـــهم جهاراً وليس بهم من حياءِ
ومـن يطلـب العِلم فـهو مُـهان لديهم وليـس لـه مـن بـهاءِ
يجلـــون كـــل خـــنٍ أبلـــدٍ غبـيٍ وفـدم مـن السُـفهاءِ
خصوصـاً إذا كـان ذا ثـروةٍ من المال من أجهل الجُهلاءِ
ألا بئس دهر سقى ذا الهدي مرارتــه وارتضى ذا الخناءِ

ولقد أحسن القائل ، حيث قال :

أرى الدهر من سُوء التصرف مائلاً إلى كل ذي جهلٍ كان بـه جهلا

وعن النبي (ﷺ) ، أنه قال : " يأتي على أمتي زمان ، يكون المُؤمن فيه حلس بيته ، ويكون مُثبتاً به ، وتكون الأمة أعز من المُؤمن ، ويكون المُتمسك بدينه ، كالقابض على الجمـر " ؛ وقد تقدم شيء من هذا الباب ، في فصل : من ذِكر العِلم ، أول الكِتاب .

وعن الحسن ، قال : هلك الناس ، هلك الناس ، قولاً ولا فعل ، معرفة ولا صدق ، مالي أرى رجالاً ، ولا أرى عقولاً ، دخلـوا فـي الإسلام ثم خرجوا ، وعرفوا ثـم أنكـروا ، وحرمـوا ثـم إستحلوا ، وإنما إيمان أحدهـم لعقـة علـى لسـانه ، إن سـألته : أتؤمـن بيـوم

الدِّين ؟ قال : نعم ؛ كذب ومالك يوم الدِّين ؛ وقال محمد بن صالح :

تكلم ذو المال الكثير كأنه خطيبٌ ولولا المال لم يتكلم
وباكر أبواب الملوك مقدماً إليها ولولا ماله لم يقدم
وأخر ذو المال القليل كأنه مُريبٌ ولولا عدمه لم يذمم
وما العدم إلاَّ قلة العقل للفتى ولو كان ذا ثوبٍ رفيع ودرهم

ولقد أحسن القائل ، وصدق في قوله :

لا يعجبنك راكب مُتلبس فعساه من عقلٍ وعِلمٍ مفلس
ومن المُحال بأن يكون الجاهل حظ الأديب ولو علاه السُندس
إني لأمقت من تعدى طوره حتى يضيق عليَّ منه المجلس

وقد قالت الحُكماء : ليست العزة في حُسن البزة ؛ وقال الشاعر :

وترى سفيه القوم يُدنس عرضه سفهاً ويمسح نعله وشراكها

وليس يفوق الجاهل بلبس ما يروق ، والمرء بأدابه ليس بثيابه ؛ وقال ابن مناذر :

رضينا قسمة الخلاق فينا لنا أدبٌ وللثقفي مال

وما الثقفي إن جادت كساه وراعك شخصه الأخيال

ولغيره :

عليَّ ثياب لو تقاس جميعها بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو تقاس بمثلها نفوس الورى كانت أعز وأكبرا
وما ضر نصل السيف أخلاق جفنه إذا كان عضباً حيث يممته فرا

وقال آخر :

فإن كان ثوبي في الثياب به وكس وكان ردياً كل قيمته فلس
فلي فيه جسمٌ في الجسوم مُميز ونفس كريم دونه الجن والإنس
وثوب أناسٍ نيرٌ تحته الدجى كذاك ثيابي ظلمة تحتها شمس

وقال آخر :

من كان يملك درهمين تعلمت شفتاه أنواع الكلام فقالا
وصغا له الأقوام واستمعوا له ورأيته بين الورى مُختالا
لولا دراهمه التي في كفه لوجدته أسوى البرية حالا
فهي التقي وهي الحجى وهي النهى وهي السلاح لمن أراد قتالا

وقال منصور بن إسماعيل :

كثير المال ليس له عوار ولا في كل ما يأتيه عار

لأن المال يستر كل عيبٍ وفي الفقر المذلة والصغار
رأيت الفقر بالأقوام يزري كما يزري بشاربها العقار

وقد قيل : لكل زمانٍ رجال ، ولكل مقامٍ مقال ؛ وقال محمد بن مداد :

وجدنا لكل زمانٍ رجالاً وفي عرض كل مقامٍ مقالا
فمن جاد بالمال ملنا إليه ووداداً وكنا عليه عيالا
ومن لم يجد كان أضحوكة لدينا وعزنا عليه دلالا

والناس بزمانهم ، أشبه منهم بأبائهم ، ورجال هذا الزمان السُفهاء والجهال ، ومقال كل مقام اليوم بالمال ؛ وقال محمد بن مداد :

الناس أشبه بالزمان من الغراب إلى الغراب
ورجال هذا الدهر غير ذوي المروة والصياب
فرجالهم سُفهاؤهم والدهر أحيف لا يُحابي
وبراعة الأقوام بالمال المُجمع لا الكِتاب
ذو العِلم عندهم أذل من الحثالة والتراب

وليس يجمل بذي العقل على ما جاء في النقل ، إلاَّ الصبر

على ما قدر الله وحتم ، وقضى وحكم ؛ كما قال عبد الله بن عيينه :

ما قدر الله فهو خير وفي مقاديره الخيار
يستأخر الرائع المذكي فيه ويستقدم الحمار
قد أصبح الناس في زمانٍ أعلامه السفلة الشرار

وقال محمد بن مداد :

ما قدر الله من شيءٍ فإن لنا حُسن الرضى بالذي يجري به القدر
هذا زمان تضم الخيل هنيها ذلاً وتصهل في أرجائها الحُمر
وينثني العَالِم القوال مُكتئباً وقد تكاد توافي المنبر البقر
قد أصبح الناس في عمياء مُظلمةٍ يكاد ينتص من أهوالها الشعر

والسفلة : أراذل الناس ؛ يُقال : فلان من سفلة الناس ، وعليَّة الناس ؛ وعليَّة : جمع على ، أي : رفيع شريف ؛ كما يُقال : صبية ، وصبي ؛ وقد مر تفسيره في كِتاب : " الإبانة " ؛ ولهذا قال بعض الشعراء :

لا يُطلب العقل ولا أهله فإن أهل العقل قد بادوا
والتمس الجهل وأشياعه فإن أهل الجهل قد سادوا

وقال أبو نواس :

إذا ما شئت أن تحظا وأن تلبس قوهَيا
وأن تأكل لحم الطير مطبوخاً ومشويا
فكن في الحال طنازاً وصفعاناً ولا شيئا
وإن أحببت حرماناً وأن تصبح شوميا
فخذ حظاً من العِلم وكن في الحال نحويا

وقال الخليل بن أحمد : - ويُقال : أنها للشافعي - :

كفى حزناً أن المروءة عطلت وأن ذوي الأداب في الناس ضيعوا
وأن ملوكاً ليس يحظى لديهم من الناس إلاَّ من يُغني ويصقع
طنابيرهم معمورة بأذانهم ومجلسهم قفر من الذِكر بلقع
فيا ليتني أصبحت فيهم مُغنياً ولم أشق بالعِلم الذي كنت أجمع

وهذا التمني من قائله ، عن ضجر وضيق ، لا عن صحةٍ وتحقيق ؛ وقال محمد بن مداد في مثله :

إذا ما شئت منزلة وجاهاً ومكرمة تحاولها وقدرا
وأن تحوي مع المثرين مالاً وتكبر فيهم ورقاً وتبرا
فلا تتعلمن في العِلم حرفاً ولا تقرأ بيان العِلم سطرا

وحق لمن شاهد ما ينكره ، ويضيق صدره ويضجره ، أن

يُفوه بما لا يعتقده ، ويذهب إلى ما لا يقصده .

وقد قالت الحُكماء : من ضاق صدره ، إتسع لسانه ، وكم من عَالِم تزندق ، ومُؤمن في الدِّين مرق ، لضجرة نالته ، وحسرة غالته ؛ وقال الراوندي ، وقد تزندق :

يا قاسم الرزق قد ضاقت بي القسم ... ما أنت مُتهم قل لي من أتهم
إن كان نجمي نحساً أنت خالقه ... فأنت في الحالتين الخِصم والحكم
أنصفت في الحُكم إذ أعطيتني حكماً ... ربي بلا ورق ما تنفع الحكم
فخذ من العِلم شطراً وأعطني ورقاً ... لا تحوجني إلى من وجهه صنم

وله - أيضاً - :

كم ذا أفكر في الزمان وإنما ... إزداد فيه غماً إذا أتفكر
حرمان ذي أدب وحظوة جاهل ... أمران بينهما العقول تحير
فالأرذلون بغبطةٍ وسعادةٍ ... والأمجدون قلوبهم تتفطر

وله - أيضاً - :

سبحان من أنزل الأشياء منازلها ... وصير الناس مرزوقاً ومألوقا (١)
فعاقل فطنٌ أعيت مذاهبه ... وجاهل أحمق تلقاه مرزوقا (١)

---

(١) في نسخة أخرى ، يُروى :

سبحان من وضع الأشياء مواضعها ... وصير الناس مرزوقا ومألوقا
فعاقل بدل الحرمان ساحته ... وجاهل أحمق تلقاه مرمُوقا

كأنه من خليج البحر مُغترف ... ولم يكن بارتزاق القوت محقوقا
هذا الذي ترك الألباب حائرةً ... وصير العَالِم النحرير زنديقا

النحرير : الرجل العَالِم ، الحاذق ، الماهر ؛ والمألوق : الذي لا يزال يلقى شراً ؛ وخليج البحر : جناحه ؛ وخليجاه : جناحاه ؛ والزنديق : معروف ، وهو الجاحد بالآخرة والربوبية ؛ فمن وفقه الله ، وعصمه ، وبصره بالهُدى ، وسلمه ، إستعمل الصبر والتقوى ، واستمسك منهما بالعروة الوثقى ، وألف قناعته ويأسه ، ووطن عليهما نفسه ، وركن إلى قول الشاعر :

وقد تأتي الفتى الأرزاق عفواً ... ويحرمه على الطلب الحريص

وإلى قول الآخر :

إن كنت تهوى بأن تحوي الغنى كُملاً ... فنج نفسك عما في يد الناس
إن الحريص فقير دهره أبداً ... حتى يغيب في تربٍ وأرماس
فقل لنفسك إن أبصرتها شرهت ... أبقى عليك فليس الناس بالناس
مضى الكرام وأبقوا حسرة بقيت ... على الفؤاد فما يرجى لها آس

الآس : الطبيب ؛ وإلى قول الآخر :

قد يُرزق المرء ولم تتعب جوارحه ... ويُحرم الرزق من يُؤتاه [1] بالتعب

(١) في نسخة أخرى : يرجوه .

مع أنني واحد في الناس واجـده الرزق أروع شيءٍ في ذوي الأدب
وخلة قل فيها من يخاللني الرزق والنوك مقرونان في نسب

النوك : الحُمق ؛ والنوكا : الجماعة الحمقاء ؛ وإلى قول الآخر :

كم طالب لم ينل بالحرص بُغيته ونالهُ غيره عفواً وما حرصا

وإلى قول الآخر :

فما يستفيد المرء مالاً بقوةٍ ولا بإحتيال لا ولا بالتكايس
ولكن أرزاق العِباد تجيئهم مُقدرة من كل رطب ويابس

وإلى قول أبي تمام :

إصبري أيتها النفس فإن الصبر أحجى
نهنهي الحزن فإن الحزن إن لم يُنهنه لجا
وألبسي اليأس من الناس فإن اليأس منجا
ربما خاب رجاء وأتى ما ليس يرجا

قوله : أحجى بهذا الشيء ، أي : أحرى به ؛ يقول : أحج ، وما أحجاه بكذا ؛ وكقولك : ما أخلقه وأحراه ؛ وللشافعي ، مما يتعلق بهذا المعنى :

ما الحرب أن تنضي سيوف صوارم ... الحرب أن تنضي سيوف المنطق
والمرء كالمخبو تحت لسانه ... ولسانه مُفتاح باب مُغلق
ما همتي إلاَّ مُنازعة العُلى ... خلق الزمانُ وهمتي لم تخلق
إني أرى الأكياس قد تركوا سُدىً ... وأزمة الأرزاق طوع الأخرق [1]
الناس أعينهم إلى طلب الغنى ... لا يسألون عن الحجى والأولق
لو كان بالحيل الغنى لوجدتني ... بنجوم أقطار السماء تعلقي
لكن من رزق الحجى حرم الغنى ... ضدان مُفترقان أي تفرق
والجدَّ يدني كل شيء شاسع ... والجدَّ يفتح كل باب مُغلق
فإذا سمعت بأن مُجدًّ وذا حوى ... عوداً فأثمر في يديه فصدق
وإذا سمعت بأن محروماً أتى ... ماء ليشربه فغاض فحقق
وأحق خلق الله بالهم إمرءٍ ... ذو همةٍ يُبلى بعيش ضيق
ومن الدليل على الفضاء وكونه ... بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق
وأشد من قلع الجبال وبسطها ... بين المفاوز أخذ ما لم يُرزق
ولربما عرضت لنفسي حاجة ... فأود منها أنني لم أخلق
إن إمرءاً رزق اليسار فلم يصب ... حمداً ولا أجراً لغير مُوفق

قوله : [ينتضي] ، أي : تسل ؛ يقول : نضوت السيف وانتضيته ، إذا أخرجته من غمده ؛ وقوله : [سُدى] ، أي : مُهملين ؛ يقول : أسديت الأمر ، إذا أهملته ؛ قال الله (عز وجل) :

---

(١) في نسخة أخرى : الأحمق .

﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ [1] ، قيل : مُـهملاً ، لا يُؤمـر ولا يُنهى ؛ والأخرق : الأحمق ؛ والحجى : العقل ؛ والأولق (على تقدير فوعل) : وهو مس مـن الجنـون ؛ يُقـال : رجـل بـه أولـق ، أي : مس الجنون ؛ وهو مألوق ، أي : مجنون ؛ والجـد : البخـت والحـظ ؛ والمجـدود : المحظـوظ والمبخـوت ؛ والمحـدود ضـد المجدود : وهو الممنوع من الخير .

وقـد أطلـت فـي هـذا البـاب ، حتـى يظـن الواقـف عليـه ، إنـي خرجت عـما قصدت إليه ، غيـر أنـه مما يحتاج إلى الإطالة ، إذا كان حُكم الوقت يقتضيه ، فأردت تسلية للأديب ، وتعزية للأريب ، وليعلما أن هذا إنما ذكـر تعجبـاً مـن إنقلاب الزمـان ، لا لتصويـب وإستحسان ، وإن الصحيح ما قد كان ، وإن الباطل مـا هـو الآن ، فيخـف عليـه الإهتمـام بـه ، والإعتمـاد بسببه ، والعصمـة بـالله ، والتوفيق منه .

فصل

كان النـاس في الزمان الخالي ، إذا لقـي الرجُل مـن هـو أعلـم منه ، فذلك يوم غنيمته ، وإذا لقي من هو مثله ذاكـره ، وإذا لقـي مـن هـو دونـه علّمه ، ولـم يـزهى عليه ، فصار النـاس اليوم على

(١) سورة الإنسـان : ٣٦ .

غير ذلك ، لا يتعلمون ممن هو أعلم منهم ، ولا يذاكرون أمثالهم ، ويزهون على من هو دونهم ، وسبب ذلك : أن الرغبة في العِلم قد زالت ، والنية للتعليم قد إستحالت ، وإنما الإشتغال اليوم بجمع الأموال ، والأفعال تبع للسُفهاء والجهال ؛ ولبعض أهل هذا العصر :

أخو اليُسر محبُوبٌ جليلٌ مُعظم		وذو العُسر مبغُوض قليل مُذمم
فأنت الفتى إن كنت تملك درهماً		ولست الفتى إن لم يكن لك درهم
وقد كان فيما قد مضى قيمة الفتى		من الناس عند الناس ما هو يعلم (1)
فقد صار في أيامنا قيمة الفتى		لدى الناس ما تحوي يداه ويغنم
فكن طالباً للعِلم ما شئت قانعاً		بما نلته فالعِلم أسنى وأعظم
فلا تطلب المال فالمال كثرة		لغيرك إرث بينهم يتقسم

(1) ويروى في نسخة أخرى :

وقد كان فيما قد مضى قيمة الفتى		لدى الناس ما تحوي يداه وتغنم

الباب الثامن عشر :

في المُتعلم وما له وعليه من التحليل والتحريم

قال الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) : ﴿ يا أيها الذين أمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾ (١) ، قيل : تعلمُونهم وتأمرونهم بتقوى الله (عَزَّ وَجَلَّ) .

وعن عليّ ، في ذلك ، قال : أدبُوهن وعلموهن ، كأنه يذهب في ذلك إلى الأزواج .

وعن أبو سعيد الخدري ، عن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، أنه قال : " لا يلقى الله (عَزَّ وَجَلَّ) العبد بشيء ، أشد من جهالة أهله " .

وأجمعت الأمة على تأديب صبيانهم ، وتعليمهم غسل النجاسات ، ونهيهم عن المحظورات ، وتعليمهم الطهارات ، والوضوء ، والصلاة ، وضربهم عليها ، إذا بلغوا عشر سنين ، وتفريقهم بين مضاجعهم لسبع سنين ، لما روي عن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، أنه قال : " فرقوا بين أولادكم في المضاجع لسبع سنين ، واضربوهم على الصلاة لعشر سنين " ؛ وتعليمهم القرآن ، لينشأوا على ذلك ، ويكونوا عَالِمين به قبل البلوغ ، فإذا بلغوا ، وجب عليهم أن يتعلموا ويسألوا ، وإن لم يكن ذلك ، على أبائهم

(١) سورة التحريم : ٦ .

أخذهم بذلك ، ولكن لهم أن يأمروهم بتقوى الله (عَزَّ وَجَلَّ) ، ويحذروهم معصيته ، وينكروا عليهم ما يجب إنكاره ، فإن هم سألوا عن ذلك من يعلمه علمهم ، كان أباً أو غيره ، وكذلك عليهم تعليم عبيدهم البالغين ، كتعليم أبنائهم .

وقال النبي (ﷺ) : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " .

وعنه (ﷺ) ، أنه قال : " هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا مأدبة الله ما إستطعتم ، وإن لقاريء القرآن ، بكل حرف منه عشر حسنات " .

وفي الحديث : أن القرآن مأدبة الله ، فأدبوا عليه صغيركم ، ولا يُباري عنه كبيركم ، فإنه ليس كل إمرئ وُلِدَ عَالِماً ، وإنما العِلم بالتعليم .

وقال أبو ذكوان : مأدبة الله (بالضم والهمز) ، أي : مدعاة الله ؛ وقال : والأدب : الداعي ؛ والمأدبة : المدعاة .

وقال أبو الحسن النيسابوري : يقول : أدبت القوم ، إذا دعوتهم إلى طعامك ؛ والمأدُبة (بضم الدال) : الطعام الذي يُدعى إليه الناس ؛ وأما من الأدب : فمأدَبة الله (بفتح الدال) ؛ والآدب : صاحب المائدة ؛ يُقال : مأدُبة ، ومأدَبة : للدعوة ؛ وفي الحديث :

القرآن مأدبة الله ؛ قال أهل العِلم : معناه : مدعاة الله ، وليس من الأدب ؛ وأكثر المُفسرين قالوا القول الأول ، فكلاهما في العربية جائز ؛ ويدل على القول الأول ، قول النبي (ﷺ) : " أنا الجفنة الغراء ، التي يجمع عليها الناس ، ويدعون إليها " ؛ فمن قال : مأدَبة الله (بفتح الدال) : فهو من الأدب ؛ ومأدُبة الله (بضم الدال) : هو الطعام .

فأول ما يجب تعليمه : القرآن ، لما روي عن النبي (ﷺ) - أيضاً - : أنه جاءه رجل ، فقال : يا رسول الله ، علمني ؛ فقال (ﷺ) : إذهب فتعلم القرآن ؛ ثم عاد ، فقال له مثل ذلك ؛ ثم عاد ، فقال له مثل ذلك ، ثم عاد ، فقال له (ﷺ) ، في الرابعة : " إقبل الحق ممن جاءك به ، حبيباً كان أو بغيضاً ، ورد الباطل على من جاءك به ، حبيباً كان أو بغيضاً ، وتعليم القرآن ، ومل معه حيثما مال " .

فينبغي للأباء ، أن يبدأوا بتعليم الأبناء القرآن ، والكِتاب مصدر الرسل ، الذي تعلم فيه الصبيان ؛ والمكتب : المُعلم ؛ وأهل مكة يسمُون المُعلم : كبيراً ؛ ويقولون : يا كبيري ، أي : يا مُعلمي .

وعن ابن عباس ، في قول الله (عز وجل) : ﴿ إنه لكبيركم الذي

علمكم السحر ﴾[1] ، يُريد : مُعلمكم .

ويقول : علمت الصبي تعليماً ؛ والتعليم للمُتعلم ؛ قال الشاعر :

تعلم إذا ما كنت لست بعَالِمٍ   فما العِلم إلاَّ بالعنا والتعلم
تعلم بُني العِلم واعلم بأنه   دليل ونور واضح غير أقتم

ولمحمد بن مداد في مثله :

تعلم ولا تضجر فإنك لم تزل   على الجهل والعمياء ما لم تعلم
فإني رأيت اليوم من كان جاهلاً   فليس يساوي قدره قدر درهم
ولا تدع القرآن والعِلم راغباً   إلى غيره وإن ترع قولي تفهم

مسئلة : وتعليم القرآن فرض على الكفاية ، فإذا قام به البعض ، سقط عن الباقين فرضه ، إلاَّ ما يُقام به الصلاة ؛ وتعليم القرآن بالأجرة جائز ، بالسُنة القائمة عن النبي (ﷺ) : أنه أتاه رجُل ، فقال : يا رسول الله ، زوجني من فلانه ؛ فقال (ﷺ) : أعندك مهر تمهرها إياه ؟ قال : لا ؛ فقال (ﷺ) : أتحفظ من القرآن شيئاً ؟ قال : نعم ، أحفظ كذا وكذا ؛ فقال (ﷺ) : فاذهب فعلمها إياه ؛ ثم أتاه بعد أن علمها ، فزوجه (ﷺ) .

والقرآن لا يثبت به النكاح ، وإنما يثبت بالعوض الذي عليه

---

(1) سورة طـه : ٧١ .

في تعليمها ، فدل أن ذلك جائزاً ، إذا كان لا نكاح إلاّ بمهر ؛ وجائز للمُعلم أخذ الأجرة عليه ، وكره بعضهم ذلك ، إلاّ أن يجعل الأجرة لعناه ، وقعوده ، وتعليم الخط .

<u>مسئلة :</u> فإذا كان على المُعلم حق ليتيم ، فعلمه القرآن ، وحسب ذلك عليه ، مثلما يحسب على غيره ، فأرجوا أن يسقط عنه حقه ، إذا كان من أهل التعليم ، وإن كان فقيراً ، فعلمه قدر ما يعرف به أمر صلواته ، فلا يُحسب عليه ذلك ، لأن تعليم الصلاة ، وما يقوم به من القرآن ، واجب على الناس ، بعضهم لبعض بلا أجرةٍ .

وقال أبو عليّ : يكره الشرط للمُعلم ، فإذا أعطي شيئاً بطيبة أنفسهم ، لم أرى به بأساً ، فإذا كان لإمرأة إبن مع المُعلم ، فأعطاه زوجها نخلة للمرأة ، ولم تغير ، فالأحوط له أن يلتمس تمام أمرها من المرأة ؛ وإن قال له رجُل أو إمرأة : أنها قد أجازت له النخلة ، إكتفى بذلك إن شاء الله ؛ والمُعلم إذا أعطاه ولي اليتيم نخلة من مال اليتيم ، جاز له أخذها ، وإذا دفع اليتيم شيئاً إلى المُعلم وأخذه ، رجا أن بعض أهله وجهه بذلك إليه ، فجائز ذلك على التعارف والعادة ؛ وإن قال الصبي للمُعلم : هذا شيء أنفذه إليك والدي ، أو والدتي ، وسكن قلبه إلى ذلك ، فجائز تعارفاً وسكوناً ؛ وأما في الحُكم فلا ؛ وكذلك لو كان دراهم ، وقول

الصبي ، فلا يُقبل في الحُكم ، وما في يده محكوم له به ؛ ويستبيح المُعلم أبا الصبي ، على قول من قال بذلك .

وقال أبو محمد : الضمان الذي يلزم المُعلم ، هو للصبي عليه ، والخلاص منه إلى والده ، يقبضه له .

قال الشيخ الفقيه ، العَالِم ، الزاهد / راشد بن خلف بن محمد بن هاشم ، رسالة :

سلام كنشر المسك لاحت غلائله ... أخص به ثاني ومن هو عائلهُ
لقد طالت الأيام بيني وبينكم ... كفى ما كفى له لم تجد ما تحاولهُ
فإن أخا الدُّنيا قريبٌ رحيلهُ ... ويُمسي الفتى له عز ما هو راحلهُ
ورب إمرءٍ فيما يروم هلاكهُ ... وما لم ينل منه تكون فضائلهُ
وفوض إلى الرحمن أمرك كلهُ ... فإن إله العرش ما شاء فاعلهُ
وقصر من الطرف الطويل وكن ... بما أتاح قنوعاً فهو للمرء سائلهُ
فإن التماني في القرآن ذميمة ... فكم قد تمنى المرءُ ما ليس نائلهُ
وخادمك الصافي لودك راشدٌ ... مُقيم على العهد الذي أنت سائلهُ
ويخدمك الإخوان صنوي مُبارك ... ومن قد حوى النادي ومن هو آهلهُ

تمت ، وكتبتها كما وجدتها ، وبالله التوفيق .

وقال حسان بن ثابت الأنصاري :

إن دهراً يبورُ فيه ذو العِلم لدهرٌ هو العُتُل الزنيم
وحرامٌ لمن يرتجي كرم الناس وقد راضهم زمان لئيم
رب عِلم أضاعه عدمُ المال وجهلٍ غطى عليه النعيم

وقال غيره :

إحذر من الدُّنيا ولا تغتر بالعُمر القصير
وانظر إلى آثار من صرعته منا بالغرور

وقال العبد الفقير لله القدير / سعيد بن عُمر بن سعيد بن عبد الله ، في تاريخ الكِتاب :

تَمَّ الكِتاب لربه من ربه إكرامهُ
ولمن بإحدى يديه زبرجه له إنعامه
وهو الضياءُ من الضياءِ لقلب كل مُهذبٍ
طبٍ ربيطٍ لا تطيش لذي الحلوم سهامه
تأليف قدوتنا الفتى القتمي سلمه ذي الندى
فاق الورى أصلاً وفرعاً نثرهُ ونظامه
من كل فنٍ في العُلوم به تجد مزبورةً
منشورةً في الخافقين لجوده أعلامه
وإليه ديوان الهُمام محمد نجل الندى
مداد قد جمع الغريب من اللغات نظامه

يـوم الـعروبـة كـان حـتمـاً بـالعشـي تـمـامه

ولأربعٍ بقيت من الشهر الأصم ضرامه

في عام ستٍ ثم سبعين سنيناً قد مضت

من بعد تسعٍ من مائيينٍ إذ خلت أعوامه

من هـجرة المُخـتار سـيدنا الـنـبي محمدٍ

لازال مـن رب العُـلا يسمو إليه سلامه

مـع آلــه وصحبه والـتـابعـين صـلـواتـه

دومـاً تـضـيء كـمـا أضـاء كـلامـه

مـا غـردت ورقـاء فـي فـنـن الأراك

ومـا حدا حادٍ ومـا برق تألق واستهل غمامه

الشواهد

تضمن كِتاب : " ضياء الضياء " ، شواهد في الكثير من موضُوعَاته ، منها نظم المُؤلِّف بنفسه ، ومنها لغيره ؛ ورأينا إن أكثر الشواهد وأفصحها ، هي التي قالها الشيخ العلاَّمة محمد بن مداد ، لأنها أشد إرتباطاً بالمعنى ، مع أسلوب بياني ولغوي فريد ، يُعتبر من أرقى الأساليب ؛ لذلك رأينا جمعها وإثباتها هنا في آخر الكِتاب :

اجعل الكتب رأس مالك يا هذا   وما قد حفظته نفقة
وتصدق به فإن على العَالِم   في فضل عِلمه صدقة
فاحفظ العِلم واحتفظ بأداء   العِلم لا تودعنه غير ثقة

إذا كنت ذا عقل وذا فهم   لا تحتقر شيئاً من العِلم
العِلم بحر ما له ساحل   لا ينتها بالخضم والقضم
وأن من إجلالك العِلم أن   توقر العَالِم للعِلم

بسـم الله تشــفي كـل داء وبسم الله عون فـي الـدواء
وبســم الله مُفتـاح المثـاني وبســم الله تــاج الأنبيـــاء
وبسم الله تسعة أحرف بعد عشـر فـي العداد لكـل راء
وفي الحسنات حرف منه عشر فأكـثـر فـي مُضاعـفة الجزاء

ألا من أحب العِلم حُبب في الورى وحاطت به في العَالَمِين فضائلـه
إذا كـان ذاك الحُب لله خالصـاً ولم يختلجه أمر زهـو وباطلـه
وكل لباس يلبس المرء في الدُّنا سيظهر في الأخرى عليه غلائله

من تحلى بالعِلم لم يمس خلـوا مـن حديـث وحكمــة وبيــان
أو تسلى بــالكُتب لـم يتسـلى مثلـه عنـد مجمـع الفتيـان
ولخير من كل شيء عليها للـمرجـي تـلاوة الـقــرآن

كـل عـز لــم يشـايعه عِلـم فـــهو خـــزي وشـــنار وذل
وكذا العِلم إذا لـم يُؤيد بتقوى فهو في العُقبى ضلالٌ مُضل

إنمـــا النفـــس حـــرون وعليــها العقــل ســـائق
ولـــها العِلـــم دليـــل عنـــد إدلال المضـــائق
فـــإذا قـــام عـــليـــهـــا سلكت حسن الطـرائـق

إنمـــا النـــاس ذئـــاب ووحـــوش وبـــهائم
همـــهم أكـــل وشـــرب مثل ما ترعى النعائم
أبـغض الـنـاس إلـيـهـم عـارف بالله عَـالِـم

أرى العِلم قد ولى وقد مات أهله ولم يبـق إلاً غبر فـي الغوابـر
ومـا فـقده إلاً لفقـدان أهلــه عشية أمسوا كلهم في المقابـر

العِلم شتى الضروب مُختلف يعجز عن جمع كلـه الكلف
الفقه والنحو واللغات وأنساب وطب وعِلم النجوم يا خلف
وفي الأحاديث والرواية والأشـعار عِلـــم وكلــــه شـــرف
فخُذ من العِلم ويـكُ أحسنه فالعِلم بحر بالموج يصطدف
مـا جمـع العِلـم كلـه أحـد كـلا ولا ينتهيـه متثقـف

من ظن للعِلم غاية فقد إستولى   على ضعف عقله الوكف

ما حوى العِلم لعمري أحد   لا ولو مد له ألف سنه
يا أخي ما خاب إلاَّ مُهمل   حظه إن لم يدعه ديدنه
فخذ العِلم لتزداد به   كل حين في طلاب حسنه
إنما العِلم كبحر سائل   فانتخب من كل شيء أحسنه

قال رسُول الله ذو النور والهُدى   وأصدق قولاً قاله خاتم الرٌّسل
فمن ظن يوماً أن للعِلم غاية   فقد نقص العِلم الشريف عن الفضل
وما إن طلبناه لندرك غاية   ولكن لننفي ما إستطعنا من الجهل

ومن يتعمق في البحر لا   يرتع به البحر في الساحل
وبين البلوغ لقصوى العُلوم   كما بين مصر إلى بابل

أجهل الناس كلهم   من حوى العِلم بادعاء

قـــد رأى العِلـــم أنــــه مثل شـرب مـن السقاء
فــإذا أنـــت بـــزتـــه كان مـن أجهـل الرعاء

يقولون جالسنا ذو العِلم برهـة ونحن من العِلم الشريف على نظر
فإن ترهم في العِلم لووا رؤوسـهم وكانوا كأصناف الحمير أو البقر
أولاك نعاج العِلم لا تـغترر بهم فما هم على الدُّنيا وما هم من البشر

من نال في العِلم شبراً علت بـه النفس تيـها
ومد فـي العِلـم باعـاً وقــال للنـــاس إيــها
ومـن ينـل منـه شـبراً يصــــر فقيــهاً نبيــها
وقلّ في نفسه ما حـوى وصـــــار وجيـــــها
ولـــم يعــال عليمــاً ولــم يمـــار ســـفيها
ويـعـد غـايـة عِـلـم هـيـهـات أن يـنـتـهـيـهـا

العِلـم رتبـــه الحكيـــم علــى ثـــلاث منـــازل
فالرتبـة الأولـى يكـون علـى طريـق الســاحل

يعنـي عليـه أن يعُـوم فــلا يـــروم بطـــائل
والرتبــة الأخــرى أشــد كـوطـــأة المُـتـثـاقـــل
والـرتـبـة الـعُـلـيا تـهـون علـى الـعمـيّ الـجـاهـل

العجب بـالعِلم يفسد العمـلا فـلا تكن مُعجباً ولا كسـلا
واسترزق الله حكمـة وتـقـى فما عليهن في اللباس حُـلا

إن الجحـود دفـاع حــق أنـت منــه علـى بصـيره
كـجحـود مـعرفـة الـنبـي من اليهـود خـلا السريره

وما يعهد الأشياء إلاّ الإنسان وذاك منــه لصفـا الأذهـــان
وفي البهيمات حظور العرفان ليس لها عهد بماضي الأزمان

والحمـد لله هـادينـا لـمـلـتـه ويرحم الله عمران بن حطانا

إعلم أخي إن كُنت من أهل النظر　　واسمع أخي وافهم مقالي واعتبر
العِلم أنثى والذي نلت ذكر　　والدرس أب ولقاحه الفكر
والعِلم يُؤتى بالتقى لا بالسجر　　من كان لم يتقي فعلمه هدر
قد قال هذا قائل فيما غبر

جماع الحكمة القرآن　　والفقه مع العِلم
ومعرفة الحلال من الحرام　　وجودة الفهم
وإتيان التقى　　ومُجانبة الزيغ والإثم
فتلك الحكمة الغراء　　يؤتاها أولوا الحكم

لا تغبطن سوى تقي عَالِم　　فاق الأنام بحكمة وبيان
أو ذا غنى واسى الفقير بماله　　ليكون جَلّ غناه في الميزان

لا تحدث بالحكمةِ سُفهاء　　ولا تمنعها العُلماء
فيظن الجهول قولك كذباً　　ويظن العليم فيك جفاء

قالت الحكمة إني / عند من يعمل بي
لست أوتى ذا شقاء / ضاحكاً يلعب بي
ذاك ما نال سوى / المقت وعظم التعب

وهذه الحكمة وحشية / محبُوسة في صدر أهل النفاق
حتى إذا صارت إلى مؤمن قرَّت / وما أقطرت [1] لطيب الوفاق

إنما الحكمة نور / في قلوب الحُكماء
مثل ما يجعل في البيت / سراجاً للضياء
وإذا شايعها الصبر / على مر القضاء
والتقى لاحت كما لاح / ضياء من ذكاء
فاقتن الحكمة في قلبك / من كل وعاء
واجعل الصبر دليلاً / تنج من كل بلاء
إنما الحكمة تؤتى / من صدور العُلماء
وإذا ما الداءُ أعياك / فعجل بالدواء
وأرى العِلم شفاءً / للفتى من كل داء

---

(١) يُقال : أقطرت الناقة إقطرارا : إذا ضربت بذيلها على رحمها .

وأرى الجهل على ذي الشيب كالـــداء العـــيـــاء

أنت إن كُنت ذا بيـان وعقل وتقـى زائـن دعيـت حكيمـا

وأرى عَالِماً يروم المعاصي مثل ذي علـة يداوي سقيما

إن مـن يسمع منـا ثـم لـم يع ما قلنـا لـه غير خليـق

يـدرج العِلم على ذي قلـبٍ كاندراج الماء في الرأس الحليق

فلا تـك كالقـارور يمـنع فضنه فلم يُؤت فضل العِلم من هو مانـع

فذا سامع للعِلم راح مُضيعاً رويدك فاعلم إن عِلمـك ضـايـع

فإنك والعِلم المُضاع كقابض على الماء لـم تجمع عليه الأصابع

وكن عَالِماً كالشمس أضحت ونورها على كل آفاق البسيطة ساطع

العِلم نعم ذخـيرة المُسـتذخر والعِلم أنفع من كنـوز الجوهـر
تـفنى الكنوز على السنين ببذلها والعِلم يـمكث بـاقيات الأدهر
والعِلم لا تخشى عليه سارقاً وتضمه في القلب بعد الدفتر
والكنز تغزوه الحوائج كلـها وعليه جُلُ حسابه في المحشر
والعِلـم فيـه صيانـة وديانــة وأمانة ورزانة في المحضر
والعِلـم تبذلـه ويعفـوا دائمـاً والعِلم يعلوا فوق كل مُؤمر
يكسي العليم مهابـة وجلالـة مـن عِلمه لا مـن كنوز الأنضر

مـن حجـب الله عليـه عِلمـه عذبـه بالجـهل فـي جـهنما
ومن أراد أن يُبحه حمى جنته قـدمـه بـالـعِلـم فـاستـقدمـا
بـالعِلم صـار العُلمـاء أنجمـاً والجهل يكسوا الجاهلين حمما
الجـهل يُؤتي أهلـه تـندمـاً والـعِلـم يُؤتـي أهلـه تـفهما

حسـبك بــالفتى عِلمــاً إذا خشــي العليمــا

وحسبك بالفتى جهلاً ومنقصة ولؤما
وزاد بعلمه ذلاً وإن أمسى عظيما
وإن أمسى على أعداء نعمته زعيما
إذا ما كان بعد العِلم جباراً أثيما
فبالكبر إنتهى إبليس شيطاناً رجيما
فعش في عزة العِلم ذليلاً لا ذميما
ينلك الله منزلة تبلغك النجوما

الجهل مُشتق من المجاهل والعِلم يعلوا ذروة المنازل

تعلم العِلم فإن الهُدى والنور والحكمة في العِلم
فإنه يُنجيك من سورة الجهل ويحميك من الظلم
كم جاهل صيره جهله حيران بين الجهل والإثم
حتى تمنى أمه أنها كانت كضراء من العُقم
أما ترى العَالِم في عِلمه يهدي إلى الخيرات كالنجم
وما ذوو الجهل ولو خولوا دثراً من الأموال كالدهم
إلاّ كمثل الزط في كسبهم والغُلف والحُبشان والغتم

إحضارهم أشباه غيابهم ... ووجدهم في الناس كالعدم
وإنما هم شجر نابت ... كالسرو أو كالأثاب العسم
يقول من رام بهم نجدة ... يا عم لا قدست من عم
أما إذا أنت فاكرتهم ... فيما خلا والخضم القضم
جاؤك أهتاراً يدهدأ بهم ... كالسيل ذي الطم وذي الرم
فعش فريداً واحداً عنهم ... وطر مع العُقبان والعصم
ما وجد الناس إلى ربهم ... وسيلة أقرب من عِلم
يهديهم سُبل طريق الهُدى ... حقاً وينهاهم عن الظلم

أرى فقهاء العصر نور المساجد ... وإن أصبحوا إتكى على كل مارد
وإن فقيهاً واحداً من قضاتنا ... أشد على الشيطان من ألف عابد

قد رأينا في بطن كل كِتاب ... عن رواة الحديث والأصحاب
أنهم أجمعوا جميعاً وقالوا ... حسب العِلم أرفع الأحساب

قيمة الإنسان ما يُحسنه ... من صنيع فاكتسب حُسن الصنيع

وكفاك العِلم زيناً في الملا ليس قولي لك هذا بالبديع
فهو ممدوحٌ على كل لسان وهو يُعلي نسبا كل وضيع
وهو نور وهو للفقر غنى وهو للغاني كتاج برصيع

وكفى بالعِلم عِزاً أن كُلاً يدعيه وكفى بالجهل شؤماً أن كُلاً ينتفيه

العِلم أفضل من كنوز المال والمال ميلته إلى الأنذال
والعِلم لا تخشى عليه سارقاً والمال تتلفه على أحوال
لازال صاحبه عليه مُشفقاً وإذا يبيت يبت على أوجال
والعِلم في إنفاقه بركاته لازال يربأ بالمكان العالي
والمال أكثره حساب إنما يربوا بحسبة ذا إليك وذا لي

العِلم كنز لا تخاف عليه آفات السرق
والعِلم تنفقه فأكثر أن يُباح ويُنتفق
والمال يخشى أن ينوب عليه آخذ أو غرق

والمـــال إن بـذرتــه قل إجتماعاً وامتحق

إســـمع أخــــي أفــدك منـــي نظمـــا

مـــا مـــات مـــن إذا أخـــاه علمـــا

لا تمنـــع العِلـــم أخـــاك ظلمـــا

ولا تعلــــــم السـفيه الفدمـــا

ودعـــه فـي الـجـهـل يُـعـانـي الـغـمـا

من لم يُعاني العِلم لم يعلم ومن يُعادي العُلماء يُحرم

المـــال ظـــل زائـــل وبذاك سُميّ المال مـالا

لـــو أن فيـــه فضيلـــة أو عنـد مؤنتـه حـلالا

لوجـدت خـير الأنبيـاء أجلــهم ذهبـــاً ومــالا

ولـمـا وجـدت الـكـافـرين تـمـولـوا مـنـهـا خـلالا

ومن عجب الأشياء إنجاح جاهل ... أخي حمقٍ عيٍ وإكداءُ عاقل
ولكنها الأشياء تجري بحكمة ... على قدر من عَالِمٍ غير غافل

أرى الناس ما نالوا معاشاً بجهدهم ... ولكنهم نالوا بقدرة حاكم
ولو أنهم نالوا بتدبيرهم ... لقد هلكن من التدبير كل البهائم
ولكنها الأرزاق تأتي على الورى ... بقدرة جبار وحكمة حاكم

العِلم والعقل للإنسان إقبال ... وإن يقل عليه الجاه والمال
والجهل والحُمق حرمان لصاحبه ... وفيه منغصة حقاً وإذلال
وكيف يُسعد من أشقى الإله ... وهل يشقى أمرئٌ عَالِمٍ لله فعال

يا أخي حاول العُلوم ما استطعت ... فإما ودعته ودعك
أنت عند الورى جليل بما حزت ... من جُملة العُلوم معك
وبما تفضل البهائم والوحش ... بغير إحتمال عنها ما وسعك
كُن مع العِلم عاملاً فإذا ... ما كُنت عاملاً نفعك
وذر الجهل والسفاه فإن تصحب ... الجهل سادراً صرعك

لا تكُن طامعاً إلى أحد   وعلى العِلم فاعتمد طمعك
إن في حفظه بلوغ مُنى   وامتنع من جميع ما منعك
واتخذه أخاً مُشاورة   فإذا ما أطعته رفعك

إنما العِلم أشرف الأحساب   والمودات أشبك الأنساب
وبلوغ المُنى طلابك للعِلم   صغيراً من قبل ريع الشباب
والفراغ الذي يراع به العِلم   له نهرة كمرٍّ السحاب

العِلم والحِلم والتقى جمعاً   والزهد والصالحات والورعا
إلى جميل الخلال مع كرم   وحُسن سمت وعيشة نفعا
زين على طالب العُلوم ولا   يليق بالجاهلين أن يسعا

العِلم في جنبات القلب مُزدهر   له ضياءٌ كما يجلي الدجا القمر
والعِلم يهدي إلى الجنات صاحبه   والجهل سيرة أعمى ما له بصر
والعِلم أكثر أن تحصى فضائله   وهل يعد إذا ما أسهل المطر

يا جامعَ العِلم والتـقـوى هُنيت   فقد جمعت أحسن ما يقتنيه مدخر

يـا جـاهلاً راح فـي جهالتـه   مُستحسـنـاً جهلـه بتقديـر
لـو جمـع الجهل والتصاوير   لكان في جُمـلة الخـنـازيـر

كم بين زينة ذي لباس تظهر   حُسناً وعورة ذي عوار تستر

ومـا شـيء أشد علـى السـفيه   وأفظع مـن مُجالسـة الفقيـه
فـهذا راغـب فـي عِلـم هـذا   وهـذا أزهـد الثقليـن فيــه
وهــذا ســامع للعِلــم واعٍ   وهــذا بالجهالـــة يدعيـــه
وما للجاهل الحمق المُناوي   لأربـاب النُـهى فاهـاً لفيـه
فتبـاً للجـهول بغـم وخزيـاً   أما يكفيه كـون الجـهل فيـه
فمـا أغراه بـالورع النبيه   ومـا أعداه للـعِلـم الـنـزيـه

جهلت بفضل العِلم حتى شننته   وشتان راعي حق علِمٍ وجاهله

وضد كل إمرءٍ ما كـان يجهلـه   والجاهلون لأهل العِلم أعداءُ
العَالِمون لأهـل العِلـم أدواءُ   والجاهلون بلا شـكٍ هُـم الـداءُ
العَالِمون نجوم يُـهتدى بـهم   إلى منار الهُدى والجهل عميـاءُ
وهُـم لبعضهـم بعضاً مشاناة   لفرط بينهم في القصد أعداءُ

وقال الحكيم ابن عبد العزيز   وما عُمرٌ عندنـا ذا إرتيـاب
لا يعدمنـك مـن جـاهل   كثير الخطأ قليـل الصـواب
مخايل في كـثرة الإلتفـات   وسرعته عند رد الجواب
وفي الجهل موت ونفس الحياة   في العِلـم والكلـم المُستطاب

أرى معشر الجُهال لا عِلـم عندهم   من العِلم في مستودعات الدفاتر
فهم كالجمال الرائحات عشية   مُحملة لم تدر ما في الغرائر
وهم معشر الموتى عليهم ثيابهم   خلا أنهم لـم يدفنوا في المقابر

المــوت أســتر للجــهول   من التشدق في المقامة
وإذا الجهول رأى الحليم   على الشناة فـلا ملامـة
ذو الجهل مُسـتغن بكثرة   جهلـــه حتـــى القيامـــة
ويـــرى التعلـــم آفـــة   ولكل ذي جـهلٍ علامـة
وعلامـة الجُـهال بُغضــهم   لأهـــــل الإســـــتقامة
وتــرى الجــهول بجهلـــه   يهوى السيادة والزعامة
قبحـاً وترحـاً للجـهول   فـلا جنــاب ولا كرامـة

عذرك يـا مسكين محطـوط   لو أن عذر الجهل محطـوط
كــل الــذي تفعلــه واحــد   ما عشت مذمـوم ومسـخوط
وإنـمـا بـالعِلم يُـدعى الفتى   في الـرأي إذ تبدو المشاريط

رب جهل وقى بـه المرء حلماً   وسـفاهٍ أغنى عن الحلــماء

ما اكتسب الإنسان في دهره   أفضـل مـن مُكتســب العقـل

لأنــه يـهديــه سُبل الـهُدى حقـاً ويـحـويـه عن الجهـل

بـالعقل تدبـير الفتـى كلـه والعقـل من أفضـل مرجـو
والجهل أعدا كل من طالب ثـأراً ومـن أقبـح مـدعـو

إذا أنت لم تعص الهوى قـادك الهوى إلى هُوةٍ تهوي إلى غير نـاظر

إذا أمـات المرءُ شـهوته فلقــد أحيــا مروتـــه
وإذا أحــيـا لـشـهـوتـه رأى دون المـوت حسرته

رأيت الهوى والعقل في القلـب دائمـاً على غابر الأيام يصطرعان
فأيهما غشا على القلب ماله وليس هما في الـوزن يستويان
فهذا له زرع التلهي وذا له التـفكر فيما يعقب الفتيان [١]

(١) الفـتـيـان : الـلـيل والـنـهـار .

رب ذي عقـل لــه أدب　　مُستشــار فــي مُشـاورته
عاقل فــي أمـر عاقلتـه [(١)]　　جــاهل فــي أمــر آخرتــه
فهو كالمصباح يحرق نفسه　　مــن نــفــع حــاضــرتــه

إن يكن عقـل أخ الدُّنيا عقيمـاً　　فلعقـل المُتقــي غـير عقيـم
إن شـتى بيـن عقــل مُثمــر　　نـافع العُقبى إلى عقـل ذميـم
مـا لـذي الدُّنيا سوى بلغته　　وأخ العُـقبى إلى مُـلك عظيم

إلهِ عن الدُّنيـا وجـانب الجُـهلا　　واحـرص على الدُّنيا واكتسب العقلا
فالعقل والعِلم تحوي بـه فضلا　　والجهل والظلم تهوي به سفلا

روينــا عــن علــيّ عــن　　نبيـــك خـــاتم الرُســـل
عليـــه الله صلـــى مـــا　　إســتهلت ديّـمُ الوبـــل
بـأن لا مـال أعوذ للفتـى　　مـــن راســـخ العقـــل
وأن لا فـقر أقبح بالفـتـى　　مـــن شـــدة الـــجـهـل

---

(١) في نسخة أخرى : عـافيتـه .

وأن لا شـيء أحسـن كـالتفكر يـا أخـا عجـل
وأن لا شـيء أدنـى للـهُدى كالفرض والنـفـل

لو صور العقل على صورة لأظلمت مِن نوره الشمس
أو صور الجهل على هيئةٍ لضاء من صورته الدمس [١]

ما نقصت جارحة من فتى إلاَّ وكان الريّم [٢] في عقله

إن جمـال المرء في عقله والبكر يُرجى عقلها في الجمال

ما سُميَّ القلبُ قلباً غير أن لـه تقلباً فهو في الأسباب ينقلبُ

يـا أخـي لـم أرَ فـي النـاس كمثـل العُلمـاء
هُـم مصابيح السماء هُـم وصاة الأنبياء

(١) الدمس : تراكم الظلمة .
(٢) الريّم : الزيادة .

هُــم نجــوم الأرض والأجر كـأجر الشــهداء
هُــم ولاة الله فـــي الأرض على فصل القضاء

كل عِز لـم يوطـد بعِلـم فــإلى ذل وقــل يصــير
وإذا الـعز إستـقل بـعِلـم فهو والرحمن مـلك كبـيـر

العُلمــاء ولاة الأنبيــاء فقــد كادوا يكونون فوق الناس أربابا
حُبب إليهم لفضل العِلم أفئدة وهذبوا فغدوا في العِلم صبابا [1]

رحم النبي عليه صلى ربنـا مـثر أقلَّ وعَالِمـاً يسـتجهل
وعزيز قوم كان صاحب ثروة أخنى عليه دهره المُسترحل

كل من لم ينهه العِلم عن الجهل فـهـو الجـاهل المُسـتجـهل

(١) الصبـابـا : خـيـار النـاس .

أكرم العِلم تكرم | واتبع الحق تسلم
أنت لا تدرك العُلوم | بغير التعلم
لا تكن ما حييت | عبد الفلس والدرهم
كُن مع العِلم عَامِلاً | إن تزغ عنه تندم
من كراماته أن | تتقي كل مأثم
فلا تكُن فيه لاعباً | لعب الصبي بالدم
واطلب الله بالعُلوم | طلاب المهتم
تنل العِلم باقتباسك | من كل مرزم

ليس العليم بمن يُعلم غيره | عِلماً ويجهل عِلم ذاك لنفسه
أولى بذي عِلمٍ غدا مُتعاشياً | عن عِلمه إيداعه في رمسه
فالكلب أعلا منه منزلة | وإن أمسى يتيه على الملا من جنسيه

ما الناس إلاَّ جاهل أو عَالِم | وعويلم من بينهم يتردد
مراً يُصيب ومرة يُخطيء | ويُصلح تارة مُتفقها أو يُفسد

سألت أي الناس شر فقالوا شــر قــوم عَــالِم مُفســدُ
فقلت يا قوم فمن مثله قالوا جـهُول فــي الـرخـا يـعبدُ

من لـم يكُـن فـي عِلمـه نافعـاً لنفسه نُصحـاً فمـن ينصحـه
لا خير فيمن لـم يكن عِلمه يُكسبه التـقـوى ولا يـردعـه

خير عِلم ما كان عندك في القبر وشـر العُلـوم مـا كـان إرثـا
وإذا العِلم لـم يُلازمك في المضجع فــاعـلـم بـأنــه كـان غـثـا

إذا إنـتحى العَالِـم عن عِلمه نُودي يا هذا تركت الطريـق

من كان يعجبه غزارة عِلمه ويظن أن قد نال منه كثيرا
فهو الجهول بغاية العِلم الذي لو عاش ألفاً كان فيه يسيرا

إني أقول وخير القـول أصدقـه ... لا ينفع العِلم حتى ينفع العمل
من لم يصنه طلاب العِلم عن سـفه ... فذاك ثور على المسنـاة أو جمـل
والعَالِم العامل المرضي سيرتـه ... نجـم يضيء بنور العِلم مُشتعل

إسمع أنبيك ببعـض الأخبـار ... من حكمة أودعتها في الطومار
المسك والعنبر عطر العطار ... والحبر في الآثار عطر الأحبار
والكُتب كالبُستان وسط الـدار ... تأكل من ثمارهـا مـا تختـار
من الثمار وصنوف الأزهار ... الفـــل والجـــل وجلنـــار
يا نُزهة الرأي وروض الأفكار ... يا صاح لا يلهيك كسب الدينار
وجمـع حـبات حواهـا البـذار ... ولا حساب بـدر ولا قـنـطار
عن كُتب يقرأوها في أضبار

أفي العِلم تستحي فتشرب نغبة ... ألا در شـراب العُلوم فأنقعـا
ودع عنك جلباب الحياء فإنما ... ينال المُنى من كان في العِلم مُشجعا
سعى سعيه مـن كان في العِلم ساعياً ... وأكدى إمرؤ لم يحو للعِلـم مُودعـا
يقول متى هذا وأنى لنا بذا دراكاً ... فسل عن ذا وذا كل أروعـا

مثـل العَـالِمِ إن جالســته　　مثل الريحان في وسط اليدِ
وهو كالعطار يؤتي ريحه　　من أتــاه عاديـاً فـادي يـدِ
وكـذا الـعَـالِـم إن سـائلـته　　كان فيه رشدة المُسترشدِ

ليـس الفقيـه مــن إذا　　شـــاورته قـــال أجــل
إن الـفـقـيـه مـن يـخـاف　　ربـــه عـــز وجـــل
ومـــن يـبـيـت لـيـلـه　　مـن ذنـبـه عـلـى وجـل

تعلموا العِلم أوان الصغـر　　فإنه كالوحي وسط الحجر
لا تطلبوا العِلـم إذا شِبتم　　فتستحوا أن تعلموا في الكِبر
والعِلم في الشيب على حالة　　أحسن من جهل قبيح مُضـر
ما من غدا في العِلم ذا مطلب　　كمن حوى جهلاً كثور البقر
فـإنـمـا الـعِـلـم بـتـطـلابــه　　والكـدّ في تعليمه والنـظر

وددت بـأني إذا مـا جمعـت　　كِتابـاً حفظـت لمــا أجمــع
وإن خصنــي مُسلم عَــالِم　　بعِلـم وعيـت الـذي أسـمع

أو أنَّ الذي كـان فـي جدتـي ... مـن العِلـم شـايعني أجمـع

إذاً لإغتديـت بـه عَالِمـاً ... لـه أنتـهي وبـه أنفـع

ولكن ما غاب عن خـاطري ... إذا شـئت لُقيـاه لا يرجـع

ومـا يجمـع العِلـم إلاَّ إمـرؤ ... إلـى قلبـه عِلمـه مُـودع

إذا قيل هات أنبري مُسـمعاً ... بفاضلـة الحـق إذ يصـدع

يُشـايعه لِسـنٌ مُصقـع ... ويحضـره ثـابتٌ ألمـع

ولكـن جمعـي لـه عـدة ... عسـى إذ أعـاوده يرجـع

وكـي يستـفيد بـه عَالِـم ... نبيـةٌ يفيـد بـه مُصقـع

وذو القياس إذا لم يحو مـآثره ... للعِلـم في القلب أعيته المقاييس

قد قاس قبلي فلم تـنفعه عدتـه ... مـن القيـاس عـدو الله إبـليـس

ما أجمل المرء ما دام الحياة بـه ... بـأن يكـون لفضـل العِلـم طلابـا

فإن رأيت الفتى إستغنى بحكمته ... فاعلم بأن إليه الجـهل قـد ثابـا

لا تترك العِلـم إهمـالاً بحفظكـه ... ما دُمت حياً ولـو قطعت أرابـا

إن المكارم كلا في الطلاب لـه ... مـا خاب حامل نور العِلم ما خابا

مــا إزداد عِلمــاً عَــالِم إلاَّ وزاد بـــذاك حرصـــا
وكذاك يستشفى المريض علـى الطبيـب إذا تقصـا
وأخو الجـهالـة إن أعب للحفظ عنه قال حـرصا

إن إحتياج العِلم في أربـع معلومــةٍ أولـــها المُــدة
وجدة فـي العِلـم مبسُوطة وشـهوة فـي طلـب الرشـدة
ورابـع الأشيـاء أن تحتــوي قريحـــة تبرأهـــا عـــدة
وعَـالِـم ذا مقـة نـاصح مُـوافق فـي اللـين والشدة

لقد أوحى الإله إلى ابن إيشا عليـه صلاة خالقـه المجيـد
أيـا داود خــذ نعلــي حديـد وَجُدَّ وخذ عصي لك من حديـد
بجهدك في طلاب العِلم حتـى تبيدهمـا علـى الأبـد الأبيـد
بصين الصين أو بجبال نوس أو السديـن أو هنـد الهنـود

يقول ابن محبوب تعلم ولا تدع وكيـف تنـال العِلـم إن لـم تعلـم

وكل من إستغنى عن العِلم جاهل غبي ونيل العِلم بعد التفهم

الناس عندي ثلاثة رجل علاَّمة بالعُلوم مُرتفع
ودونه عَالِم يسائل عن ما لم يعيه فذاك مُنتفع
وثالث غرة بطالته فذاك مثل الحمار مُنتقع
وجدانه مثل فقده وهو من عماية الجهل خده صرع

وتعلم الأدب الشريف فإنه مال لمن أمسى فقيراً عائلا
وإذا الغني به تحلا زانه وهو الجمال لمن يعلم سائلا

لا أقل الله من أهل الأدب فإليهم مُنتهى كل الحسب
لو وزنا بأديب واحد ألف ألف من رعاع لغلب
إنما الناس تراب وحصى وهم كالدر حسنا والذهب

المرء يعلوا صعداً بماله وأدبه

فإن خلا من أدبه ومالــه ونسبه
ففقده أغنى لــه وموته أجمل به

لا يسودن عَالِم قرن العِلم بالطمع
قارن العِلم بالإياس من الناس والورع
إن من لم يكن كذا قاده الحرص فاتضع

إذا المرء لم يعمل بموجب علمه تبدى عليه الجهل وانتزع العِلم
وكيف يداوي الناس من خان نفسه لبئس الخليلان الخيانة والإثم

قد وسع العَالِم في قوله لجاهل ارجع إلى العدل
لا وسع للجاهل في قوله لعَالِم أرجع إلى الجهل
وذا لأن العِلم يقضي على الجهل بتدبير ذوي العقل

من علم الناس عِلماً كان يعلمه جاء القيامة في طوق من النور

يضيء للناس من بُعدٍ ويرشدهم　　يزهى بوجهٍ كمثل البدر منضور
والجاهلون تراهم في القيامة　　كالعميان يمشون حبواً في سمادير [1]

إن صـون العِلـم بذلـه　　فـي مكـان هـو أهلـه
من أفـاد النـاس عِلمـاً　　فـهـو الـعَـالِـم كـلـه

إن إقتصاد المرء في سُنته　　خير من المكث على البدعة
وترك أسباب الخطايا لـه　　خير لـه من طلب الرجعة
والصمت للإنسان عن باطل　　خير من الجريان والوقعة
والنشـر للحـق وإيذاعـه　　خير من الصمت بلا شرعة
والصمت في الجهال خير　　لذي عِلم من الضحكة والسمعة
لا تودعن العِلـم هلباجـة　　فحفاحـة هيابـة قلعـة
يا عجباً من ساخرٍ ضاحكٍ　　فيما يُرجى عَالِماً نفعه

العجبُ في الناس قبيح　　ولكن بثقات العُلماء أقبح

(١) السمادير : الظلمـة .

كم عَـالِم أعجبـه عِلمـهُ فظل فـي إعجابـه يجمـح
زل بـه الـعِلـم إلـى هـوة شـنعاء في ظلمـتها يطرح

إذا تعلمـــت عِلمـــاً فــاعضض عليـه بــأزم
فـــإن رأس الـخطـايــا تـخـليـط ضحـك بعِلـم

لا ترجعن إلـى كـلام قلتـه مُترجعـــاً فتملـــه الأذان
فالقطر يسال بالأكف إذا أتى وإذا تـواتـر مـلـه الإنسان

واضع هذا العِلم في غير أهلــه كمن قلد الخنزير شذراً وجوهرا
ومانعه عن أهلـه مثل مانع زكاة وكان ذا عيالين أغبرا

مات أولوا الحكمة النحـارير وخلفـت عصرنــا الدقـــارير
لا حلم فــي مجلس يُؤيدهـم ولا لـهم فـي العُلوم تدبـير
فـابك لـروض رعـاه خـنزير وابـك لعِلـم حـواه شـــرير

وابك لعود من العُلوم ذوي ولعبت فوقه الأعاصير

وابك أناساً مضوا لنا سلفاً بانوا فكل في الأرض مقبور

❖ ❖ ❖

قل لغاد يدعي العِلم وينسى جهله لن تنال العِلم إلاَّ أن تحرى فضله

بإجتهاد وبتقوى يتعاطى قبله فإذا أخلصت هذا فتناول أصله

وتبين شكله وتأمل عدله إن يكن من أهله فهو راع أهله

لا تكن حامل سكينٍ لباغي قتله قابل العِلم يُقابلك صلاحاً مثله

فتجمل هديه وتبين فضله

❖ ❖ ❖

إسمع النُصح واعياً لا كذاباً أطلب العِلم ما مُنحت الشبابا

طلب الشيخ للعُلوم إعتساف والتكاليف لا تفيد صوابا

وأرى كل ذي فؤاد ذكي صادق الروع مُتقناً ما أصابا

❖ ❖ ❖

فهو في الأحداث روض خضل وهو في الشيخ كماء في صباب

لا أحابي في الذي جربته وعلى غير التجاريب أحابي

❖ ❖ ❖

إذا رأيت الفتى لم يكتسب أدبـاً		من بعد مـا جاوز العشرين مُعتلما
ولم يرح لإكتساب العِلم مُبتديـاً		جراً ولـم يعمل القرطاس والقلما
فقل حمار إعتمال عبد مقـتـرة		مُستعمل أو كراع يرتعي البشما

كـره النبـي مقالـة المُتملــق		في حين تأدية وحين تخلق
إلاَّ بحضــرة عَـالِم يختصــه		لينال ما فيه جمـال المُتقـي
فأخصصه بالتسليم بعد جماعةٍ		وألن له في القول عمداً وارفق

بُني إذا لم تحتمل ذل ساعة		تصيبك في التعليم شبت على الجـهل
إذا أنت لم تحمل على العِلم عزة		بقيت عزيز النفس عن دنس الذل
وإن أنت باطشت المُعلم غرة		بقيت قليل الخير والدِّين والعقل

تذلل لمن تعي تعش مُتعززاً		بعِلمـك مغبُوطـاً بـه مُتحـرزا
فإني رأيت العز في ذل ساعة		لدى عَالِم يُؤتيك عِلماً مُبرزا
فإني رأيت الجاهلين وعزهم		إلى الذل ما صاروا إذا جاهل نزا

أن مـن أكـرم يومـاً عَالِماً		فلقـد أكـرم سبعين شهيدا

قال عليٌّ إن نصف العقل أن		تعرف الفضـل لأهـل الفضـل
وليس كالفضلِ بأهل الفضل		أن تعرف الحق لأهل الفضل

إصبر لِذّلِكَ ساعة مُتعلمـاً		تفرح بعزك إن غدوت مُعلمـا
إصبر لدائك إن كتمت طبيبه		واصبر لجهلك إن جفوت مُعلما
ولا تعدّونه كرامة وصيانة		ومهابة وجلالـة أن تكرمـا
فإذا حَرَمْتَ حُرمْتَ غامض عِلمه		فاجعل لكل طريق عِلم سلما

لا تُعظِمن جاهلاً يروقك إن		واجهته في جمال رونقـه
وانظر إليـه بعين مطرحٍ		فإنمـا ذاك مـن تحذلقـه
واسمُ إلى عَالِمٍ أخي أدبٍ		عمداً فقبل بياض مفرقـه
ولو بدا في ثياب مهنتـهِ		فإنمـا العزّ فـي تعلقـه
العِلم نور في قلب حاملهِ		كالبحر يسموا على تدفقه

أتعبّ أخيّ قدَمك كم تعبٍ قد قدّمك
ولا تروحن سُدىً فلا تردَّ ندمك

تناول من قليل العِلم حتى تنال به من العِلم الكثير
فمن لم يحو من فن يسير غداً لم يحو من فن كبير
وما ذا العِلم إلاَّ كالمراقي يرقاها على مرَّ الدهور
كما يرق الأمير إلى وزير ومن وزراً إلى الملك الخطير
كذاك النفس حليتها التجلي بما تُدعى إليه من الأمور
فإن دُعيت إلى رُشد أطاعت كطوع الإبن للأبُ الأمير
وإن دُعيت إلى جهل ضرير تداعت كالبناءِ على شفير
فأنت تطب نفسك كالسفير عذيرك ما تركت بلا عذير (١)

قيدوا العِلم بالكتاب فإني قد رأيت القلوب حيناً تموت
قلّ من أهمل الكتابة إلاَّ فاته من عُلومه الماموت (٢)
فاجعل العِلم في الدفاتر قوتاً إنما العِلم في الدفاتر قوت

---

(١) العذير : الحال الذي أنت عليه .
(٢) الماموت : المقصود .

قد تموت القلوب حيناً وتحيا   إن أريحت وعز من لا يموت
رب ذي حكمةٍ وعاها فألقاها   فألـــهاه رأيـــه المبتـــوت
فغدت من يـديـه مثل ضمار   لا يعيها العصرين قلب شيت

دع العجــــــــب إن   العجـب أقبــح بـــالأدب
مــن الحمــق لا شــيء   وأعــدى مـــن الحـــرب
وكيف إختيال من يطوف بعذرة   أيُجمل أن يختال هذا من العجب

إذا المـرء نيـف للأربعيـن   ولم يحو عِلماً نبيلاً وفضـلا
فدعه فما نفـع عد السنين   إذا كـان يـزداد فيـهن جـهلا
فذلك كالضب يـدعى الجهول   شيخاً ويُوصف بالحِلم حِسلا

إن من هاب خاب والمُترجي   أن ينال المُنى به لا يخيـب

إذا طلبـت فنـون العِلـم والأدب   فاجهد بجهدك في التعليـم والطلـب

فليس كل زمان أنت مُدركه   حتى ترقى إليه غير مُتيب [1]

يا رب قول قد آلام قائله   وود أن لو كان جذ عامله
الصمت حكم وقليل فاعله   ما لامه في الصمت يوماً عاذله
عقل الفتى في صمته مقائله

وفي الناس من تلقاه في العِلم سائلاً   مُخالط حُمق في طماعة أشعب
يحاول مني شيمة غير شيمتي   ويطلب مني عابثاً غير مذهبي
صَمتُ ولم أعبأ له عن جوابه   وقطع سفاه المرء من غير مأرب

ألا لا يستحي من سأل عِلماً   فيجهل أن يقول الله أعلم
تعلم يا أخي فالعِلم زينٌ   ولا تدري إذا ما لم تعلم

ألا لا تفتين بغير عِلم   فتخسر أو تبوء بكل إثم

---

(١) مُتيب : مُستحي.

إذا ما لم تجـد شيئاً فدعـه وقل هذا يغيـب عنـه فـهمي
فليس عليك حين وقفت عيب وعيب أن تقول لقومه بوهم
فـترمي فـيه بالتخـمين ظنـاً فتخطيء للإصابة حين ترمي

إن قبـض العِلـم أن يقبـض ربـي العُلمـاء
فإذا ماتوا تنحى النـاس رُؤسـاءَ جُـهلاء
فـأضلـوا ثـم ضلـوا وبقـوا فـي النـاس داء

قـد قلـت إذ كـثروا فقـالوا مـا المـرء إلاً بأصغريـه
فقلـت قـول إمـرءٍ حكيـم مـا المـرءُ إلاً بدرهميـه
من قلَّ فـي النـاس درهمـاه لـم تتلفـت عرسـه إليـه
وعاش في النـاس مُستهانـاً وبـال سـنـوره علـيـه

قال العُماني جـابرُ وَهُـوَ ذُو العِلم الذي في عُلومهِ بهرا
لا تسألوا عن أمر دِّينكم في العِلم مـن كـان لا يُحسـن النظـرا
غنـي قـوم غِنـاه أبطـره ومن غدا فـي غِناه مُفتقرا

ومن دعاه هوى مهفهفةٍ ومن غدا في شرابه سكرا
ومن دعاه الخلاء وأحوجه فذاك حيران لا يعي حصرا

***

إذا ما قصدت العَالِم الحبر سائلاً فأوسعه إجلالاً وبشراً وإنصاتا
ولا تتعنت عنده في قضيةٍ فشر سؤال المرء ما كان إعناتا

***

إذا كنت تبغي العِلم من عند عَالِمٍ فوافق له وقت الفراغ وأومض
فإن كان في شغلٍ فأعرض ولا تكن ثقيلاً فإن واجهت مهلاً فعرض
فلو كنت في شغلٍ وجاءك سائل لما بحت إلاَّ عن فراغ مغوض
ولا تأخر مُفتياً في حضوره فذلك حُمق المائح المتبرض
فإنك إن تفعل سقطت بعينه ولو كنت أعلا منه عِلماً فأعرض
ولا تؤذه في مجلس مُتآمراً عليه ولا تعصيه لا شك يمغض

***

إن طلاب العِلم بالسؤال من رق وجهه عن السؤال

رق بـه الـعِلـم مـع الرجـال أمـا تـرى أكـابـر الـجـهـال

جهلاً قد إستغنوا عن السؤال

أضعـف النــاس عُلومــاً عَجُــلاً عنــد الفتـــاوي

لا يـساوي جـاهـل بـالـعِلم خـــيـراً لا يـــســـاوي

إنَّ هـذا الـرأي مـا جـاز لغـــــيـر العُلمـــــــاء

لــم يجـز للجـاهـل الفـدم مقـــــال بارتيـــــاء

رب رأي مـــن ســـفيهِ مثـل أعمـى فـي عمـاء

وكـذا لـم يـحـمـد الـخـابـر أراء الـنـســـــــاء

إن عكس السؤال لم يستطعه غير من كان عَالِماً ربيا

يحسن الرد ثم يعكس أولاه لأخــراه مـــاهراً قثميـا [1]

والذي لا يكاد يُحسن شيئاً لا تــراه إلاَّ مُــراءٍ أميـا

قِسْه لو كان بالغ السن شيخاً بغرير ومن يكون صبيـا

(١) القثمي : الجامع للأمـور .

إنما يعكس الهُداة بعِلم ... وبيان طريقها المأتيا

إسمع وعي القول وكن مُتقناً ... للعِلم حِفظاً يا ابن مداد
لا خير في عِلم إذا لم يزن ... صاحبه في المحفل النادي
ولا إذا لم يعه صدره ... فيقطع الجُزء من الوادي

ألا لا تمار ألا لا تمار ... ولو كان وفق الهُدى في يديكا
فإن المراء يزل الحليم ... وربتما كان حتفاً عليكا

يا لعين كثيرة العبرات ... لإفتقاد المُحققين الثقاتِ
مات أهل العُلوم فافتقد العِلم ... وقل الطلاب للخيراتِ
وبقينا نجولُ في سُفهاءٍ ... لصحاب الجمال والعبراتِ
فترى الجاهلين في رغد عيشٍ ... وأهل العُلوم في حسراتِ
فالفقير الحقير من طلب العِلم ... وأهل الخنى من الساداتِ
والسفيه الوضيع يستحقر العَالِم ... حتى يصير مثل القذاتِ
وكنوز الأموال للجاهل الفدم ... وأكل الغضرا والطيباتِ

وأخو العِلم حائر القلب في ضر معاشٍ يجُول في الطرقاتِ
فالأقلاء والأذلاء أهل العِلم والعز للطغاةِ الدناتِ
يا لدهرٍ قد بدل الحلو مُراً وأتى بالعجائب المفضعاتِ

العُلماء اليوم في ذلة والأمر والنهي إلى الجاهل

وجدنا لكل زمانٍ رجالاً وفي عرض كل مقامٍ مقالا
فمن جاد بالمال ملنا إليه وداداً وكنا عليه عيالا
ومن لم يجد كان أضحوكةً لدينا وعزنا عليه دلالا

الناس أشبه بالزمان من الغراب إلى الغراب
ورجال هذا الدهر غير ذوي المروءة والصياب
فرجالهم سُفهاؤهم والدهر أحيف لا يُحابي
وبراعة الأقوام بالمال المُجمع لا الكِتاب
ذو العِلم عندهم أذل من الحثالة والتراب

ما قدر الله من شيءٍ فإن لنا حُسن الرضى بالذي يجري به القدر
هذا زمان تضم الخيل هنيها ذلاً وتصهل في أرجائها الحُمر
وينثني العَالِم القوال مُكتئباً وقد تكاد توافي المنبر البقر
قد أصبح الناس في عمياء مُظلمةٍ يكاد ينتص من أهوالها الشعر

إذا ما شئت منزلة وجاهاً ومكرمة تحاولها وقدرا
وأن تحوي مع المثرين مالاً وتكثر فيهم ورقاً وتبرا
فلا تتعلمن في العِلم حرفاً ولا تقرأ بيان العِلم سطرا

تعلم ولا تضجر فإنك لم تزل على الجهل والعمياء ما لم تعلم
فإني رأيت اليوم من كان جاهلاً فليس يساوي قدره قدر درهم
ولا تدع القرآن والعِلم راغباً إلى غيره وإن ترع قولي تفهم

الفهرس

الصفحة	الموضـــــوع
٩	* تقديم لمعالي السيد محمد بن أحمد بن سعود آلبوسعيدي
١٧	* مُقدمـة المؤلّـف
٣١	* الباب الأول : في : { بسم الله الرحمن الرحيم }
٤١	* الباب الثاني : في العِلم
٦١	- فصل في المعرفة
٦٦	- فصل آخر في العِلم
٧٣	* الباب الثالث : في الحكمة
٨٣	* الباب الرابع : في مدح العِلم وتفضيله
١٠٥	* الباب الخامس : في ذم الجهل وتضليله وكثرة أهل جيله
١٢٥	* الباب السادس : في العقل
١٤١	- فصل في القلب
١٤٧	* الباب السابع : في تفضيل العُلماء وتعظيمهم وتجليلهم وإكرامهم
١٥٩	* الباب الثامن : في مراتب العُلماء وأحوالهم وما جاء في أقاويلهم وأفعالهم

الموضــــوع	الصفحة
ـ فصل في تسمية العُلماء وصفاتهم	١٧٤
* الباب التاسع : في الحث على طلب العِلم وتعليمه	١٨٧
ـ فصل في تعليم الأدب	٢١٧
* الباب العاشر : في أداب العُلماء	٢٢٩
* الباب الحادي عشر : ما يجب على العُلماء في التعليم	٢٣٧
* الباب الثاني عشر : ما يجب على المُتعلم لِمُعلمه وما يؤمر به من الأدب في تعليمه	٢٥٧
* الباب الثالث عشر : في أدب المسؤول والسائل والفتيا والجواب عن المسائل	٢٧٥
ـ فصل في الفتيا	٣٠٧
ـ فصل في السائل	٣١٩
ـ فصل آخر في السؤال	٣٢٦
ـ المسائل التي لا جواب لها عند الفقهاء إلاّ التسليم	٣٣٤
* الباب الرابع عشر : في صفة المُستحق للسُؤال عن الحلال والحرام	٣٣٧
ـ فصل في الرأي	٣٤١

الصفحة	الموضـــــوع
٣٥٧	- فصل في عكس السؤال
٣٦٩	* الباب الخامس عشر : في الدرس والمُذاكرة والمراء والمُناظرة
٣٩١	* الباب السادس عشر : في التقليد
٣٩٩	* الباب السابع عشر : في ذهاب العِلم وطالبيه وإنقلاب الأحوال بأهله وزهادة أهل الوقت فيه
٤١٣	* الباب الثامن عشر : في المُتعلم وما له وعليه من التحليل والتحريم
٤٢١	* شواهد كِتاب : " ضياء الضياء " ، للشيخ محمد بن مداد
٤٦٧	* الفهـــــرس

تم بحمد الله

رقم الإيداع : ٣٧٢ /٢٠٠٣م